حياة ترَف

ظل بديل

حياة تَرَف (ظل بديل) (رواية)

براءة الأيوبي (كاتبة لبنانية)

الطبعة العربية الأولى 2022

© حقوق الطبع محفوظة بموجب عقد 2022.

الآن ناشرون وموزعون

المدير العام: د. باسم الزعبي

الأردن، عمّان، شارع الملكة رانيا، بجانب صحيفة «الرأي»، مجمع المفلح التجاري(87)، ط1.

هاتف: 797162720، 65620722 (962+)

alaan. publish@gmail.com

www.Alaanpublish.com

تصميم الغلاف: بسام حمدان

All rights reserved. No part of this book may be reproduced،stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

ISBN: 978-9923-13-510-5

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2497/ 5/ 2022)

306

الأيوبي، براءة محمد
حياة ترف.. ظل بديل/ براءة محمد الأيوبي. عمان: الآن ناشرون وموزعون، 2022
(376) ص
ر. إ: 2497/ 5/ 2022
الواصفات: الروايات العربية/ / الأدب العربي/ / العصر الحديث
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

براءة الأيوبي

حياة ترَف

ظل بديل

رواية

الإهداء

إلى أحبائي

مروة

بكر

رغيد

ما هو الوطن ؟
ليس سؤالاً تجيب عليه وتمضي !
إنّه حياتك وقضيّتك مَعاً

محمود درويش

«لا تُفلِت ظهري.. تشبَّث به جيّداً يا عابِر.. يا لك من صبيّ متهوِّر».

صرخَت تَرَف ابنة الرابع عشر ربيعـًا بـأعلى صـوتها، وخفّفَـت سـرعةَ الدرّاجة النارية العتيقة التي تستقلها مع أخويها عابِر وبَيدَر.

هي في طريقها إلى وسط المدينة القديمة حيث تستقرّ مدرسة الولـدين المجّانيّـة. عليهـا أن تُقلّهمـا سـريعـًا ثـمّ تنطلـق لتبلـغ مدرسـتها (المجّانيّـة أيضـًا) في الطرف الآخر من المدينـة القديمـة، قبـل حلـول الثامنـة بتوقيـت الشقاء.

الدرّاجة النارية، على قِدَمها، لا تنصاع غالبـًا لأوامـر جسـدها الهزيـل، وتستمرّ في معاندتها مصدرةً زئيراً مثيراً للشفقة.. فتـارّةً تتوقّـف دون سـابق تنبيه وأحيانـًا تنطلق غزالةً شاردة فتخرج عن مدار سيطرة الصغيرة. ولـولا لطف الإله لكانت وسائل التواصل الاجتماعي تتحدّث، ومنـذ زمـن، عـن كارثةٍ إنسانيةٍ بدرجة فاجعةٍ ونكبة.

ومـا يزيـد مـن مأسـاوية الوضـع، ذلـك الشـجار المسـتمرّ بـين الولـدين الصغيرين المرصوفين خلف ظهر الفتاة على خشبةٍ احتلّـت مكـان مقعـد الدراجة المهترئ والذي يعمـل، عـن سـابق ترصّـدٍ، على تجـريح فخـذَي الطفلين مع كل حركةٍ أو ارتجاج. هذا الشجار بات طَقسـًا رسميّـًا مسجّلاً في ذاكرة تَرَف، يبدأ منذ مغادرة القافلة الصغيرة (شـبه) المنـزل في المخـيّم المتعفّن المتقوقع على جانب الطريق الدوليّ وصولاً إلـى بـاب المدرسـة القديمة الجاثية بحَياءٍ وسط مجموعةٍ من المبـاني القديمـة فاقـدة الملامـح ومشوّهَة التاريخ.

المسافة طويلة، والطريق تكاد لا تخلو من التعاريج والحفر والمطبّات ذات الأشكال الهندسيّة المتباينة، ممّا يرفع مؤشر الاشمئزاز لدى الفتاة ويَحملها على الصراخ في كلّ مرّةٍ تزداد فيها حدّة الخلاف بين الولدين.

منذ ما يقارب السنتين، وتَرَف تأخذ على عاتقها مهمّة ايصال أخويها إلى المدرسة وإلعودة بهما إلى المنزل أيضاً.. هذا إلى جانب الكثير من الأعمال الأخرى التي قد تصنّف أشغالاً شاقّةً في قاموس فتياتٍ يُماثِلنَها في العمر. لكن، بالنسبة إلى تَرَف القادمة من خلف الحدود.. من البعيد، حيث الريف والبادية والشّقاء، من المفترض أن تبقى مسؤوليّاتها ضمن نطاقها الاعتيادي. هكذا أخبرَتها والدتُها نوف، ذات خوفٍ، بعد أن عبروا الحدود مع مئات اللّاجئين. ثمّ أخذت بعد ذلك تسعى لإقناعها مراراً أنّ الحياة ليست مجرّدَ بستان فرح ولا مرتعاً للأحلام، بل تحتاج بَذلاً وربّما تضحيات بعيداً عن أيّ تأفّفٍ أو تضَجّر..

ولكن! ما هكذا كانت الحال في الزمن البعيد..

تذكر تَرَف ظلالَ أيامٍ غائرة في النسيان وهي لا تزال طفلةً صغيرة، ووجه والدتها وهي تبتسم لها، تحتضنها وتسألها عن أمنياتها وما تحبّ، فكل شيءٍ ممكن، ولا مستحيل.

ما فتئَت تستعيد حكايةً سمعَتها مراراً من والدَيها عن سبب تسميتها بـ تَرَف.. قال والدها إنّ شهوراً مضَت قبل أن تلتصق بها صفة الترَف. الحيرة بدت يومَها سيّدة الموقف، فهما يرغبان باسمٍ يليق بفتاتهما الأولى ثمرة حبٍ عظيم بينهما كما أنّهما يريدان منحَ الصغيرة صفَةً تليق بروعة

حضورها وبالقدَر الجميل الذي أصاب حياتهما بمجرّد انبعاثها للحياة.. فها هما قد انتقلا إلى منزلهما الجديد بعد سنوات من مشاركة الأهل سقفاً يسترهما، ثمّ تمكّن الزوج صقر من ابتياع ماشيةٍ بدأت تجلب لهما أموالاً تكفي ليعيشا مع الصغيرة حياةً كريمةً بل مرَفّهة.. ومن هنا ارتأيا في ليلةٍ مقمرة أن يُلَقِّبا الطفلة «تَرَف» في تحدٍّ واضحٍ لتقاليد الريف والتي كانت تحتّم عليهما اختيار اسمٍ من تراث العائلة الحافل بالتسميّات الريفيّة الغريبة.

إذاً جاءت تَرَف وانهالَت معها الخيرات، حتى صار صقر اسماً بارزاً في الريف والبادية المجاورة على صعيد تجارة المواشي.. وعرفَت الصغيرة دلالاً لم تسبقها إليه فتاةٌ في تلك الرقعة الرابضة بين شظف الصحراء وبدائيّة الريف.

كلّ شيءٍ استمرّ رائعاً لعدّة سنوات ومثيراً لنظرات الحسد ممّن لم يتمكّنوا من تقبّل نجاحات هذه العائلة الصغيرة، حتى كان اليوم المشؤوم الذي شوّه ملامح الحياة واغتال الحلم الجنين.

المسكينة تَرَف، هي اليوم في وضعٍ لا تُحسد عليه، فعلى عاتقها تقع مسؤوليّة خدمة أسرةٍ بكاملها وتلبية طلباتها: والدٌ مُقعد إثر وقوعه من على ارتفاعٍ كبيرٍ أثناء ممارسة عمله كبنّاء، وثلاثة أخوة أكبرهم في التاسعة وهو عابِر والأوسط بَيدَر صاحب الخمس سنوات والصغيرة العَنود ابنة السنتين، بالإضافة إلى والدة أنهكها الزمن وما زال يحفر بصماته على وجهها ويديها وقلبها الذي غدا ضعيفاً من هَول بؤس الحال.. ورغم

ذلك تعمل جاهدةً في الخياطة لتأمين ما يمكنه أن يسدّ رمق هذه الأسرة المنكوبة عبر توفير أدنى الاحتياجات..

وتَرَف في كلّ ذلك تؤدّي دور السند للجميع.. تنظّف المنزل، تقوم بتدريس إخوتها، تساعد والدتها في إعداد الطعام وشراء المستلزمات.. كما تتولى مهمّة زيارة النّساء في منازلهنّ لتحديد المقاسات التي تَلزَم والدتها في خَياطة الثياب ثمّ إيصال الألبسة المُنجَزة فيما بعد مستقلّة الدرّاجة الناريّة البائسة. هذه المهمّة كثيراً ما عرّضتها لمواقف مهينة من نساءٍ متعجرفات يلجَأنَ إلى إهانتها إذا لم يَرُق لهنّ الثوب أو إلى السخرية منها والاستهزاء من أنوثتها الضائعة فوق درّاجةٍ يستحيي الرجال من استخدامها.. وفي كلّ ذلك دائماً ما تحافظ تَرَف مجبَرةً على هدوئها، فهي تدرك أنها إن لم تفعل ذلك فستخسر الأسرة مصدر رزقها حيث لن تقبل النساء حتماً دخول المخيّم من أجل توصية خيّاطةٍ على ثوبٍ جديد أو استلامه بعد إنجازه.

لكِ الله يا تَرَف!

ونظراً لندرة المياه في المخيّم، خصّصَت الفتاة يوم الأحد فقط (وهو يوم العطلة الرسميّ في البلاد) موعداً للاستحمام، فتقوم مبكّراً لتحضير المياه الساخنة في قصعةٍ كبيرة تضعها على «البابور»، ثمّ تدخل لإيقاظ إخوتها واحداً تلو الآخر.. إلى أن يأتي دور الأب المُقعد.. وبعد إتمام مهمّتها الصعبة تستحمّ سريعاً بما تبقى من مياه، مستخدمةً في كلّ ذلك

وعاءً نحاسيّاً ضخماً كحوض استحمام ودلواً صغيراً يساعدها في صبّ المياه.

إذاً تُنهي تَرَف مهمّة الاستحمام لتبدأ بأخرى تتمثّل بغسل جميع الملابس المتّسخة والتي تمّ تجميعها على مدى أسبوع كامل.. تضعها الفتاة في كيس كبير ترميه أمامها على الدراجة الناريّة وتنطلق إلى منزل «لولية».. تلك السيّدة التي تعيش وحدها في الجهة المقابلة من المخيّم بعد أن توفي زوجها إثر رصاصةٍ اخترقت الرأس أثناء اجتياز الحدود.. منذ أن باتت «لولية» وحيدة بلا معيل قرّرت الاعتماد على ذاتها. وبما أنها لا تملك حرفةً تسندها، اشترت غسّالة كهربائيّة بما تواجد معها من مال، وراحت تؤجرها لمن أراد أن ينظّف ملابسه. وهكذا صارت مقصدَ جميع نساء المخيّم، باعتبار أنّها المالكة الوحيدة لهذا الاختراع التكنولوجي العظيم في زمن العولمة.

لطالما تنازعت النساء حول أسبقيّة الغسيل، ووصلت بعض الخلافات إلى مرحلة الصراخ والسباب وشدّ الشعر وحتى العضّ، وحتى لا تتكرّر مثل هذه الحوادث البائسة أخذت «لولية» تسجّل على دفتر كبير زمن حضور كل «زبونة» وتحدّد توقيتاً مناسباً لكل منهنّ حتى تنجز عملها بعيداً عن أيّ انحياز، ثمّ اعتمدت فيما بعد مبدأ القُرعة الذي نال استحسان جميع النساء.

وهكذا صارت النساء يجتمعنَ عند «لولية» في حلقة نميمةٍ نسائيّة حماسيّة لا تنتهي إلا مع غروب الشمس في انتظار إتمام ما أتَين من أجله.

هـذه الجلسـات النسـائيّة الأسـبوعيّة كانـت تـروق لـ تَـرَف لأنهـا شـكّلَت الوسيلة الوحيـدة لتخـرج مـن دائـرة همومهـا وعـبء انشـغالاتها اليوميّـة.. فـتجلس، تسـتمع، تبتسـم، وتـنغمس في أخبـار وحكايـا، بعضـها بـائسٌ وبعضها الآخر مؤجّجٌ للوجع والحسرات.

وليت مؤشر البؤس يتوقّف عند هذا المستوى.. فـ تَرَف تَجهَد كثيراً بل وتعاني لتشارك في تغطية جزءٍ من مصاريف عائلتها التي تـزداد يومـاً بعـد آخر، خاصّةً في ظلّ تردّي الأوضاع الاقتصاديّة في بلد اللجوء، وانهيار قيمة العملة الوطنية مع ارتفاعٍ فادحٍ في أسعار مختلف السلع، حتى الضـروريّة منها.

مساهمتُها تتمثّل بإعطاء دروس خصوصيّة لأطفـال المخيّم الـذين لـم تتَح لهم فرصة الالتحـاق بالمدرسـة، لأسـباب قـد تـرتبط بفقـدان الأوراق الثبوتيّة للعائلة أثناء رحلة لجوئها الشّاقة.. أو ربّما أيضـاً لأسباب أخـرى أكثر بؤسـاً!

إنّها مأساةٌ حقيقيّة أن يجد الأفراد أنفسهم، لحظةَ ضياع، فاقدي الهويّـة والانتماء وخارج مدار الإنسانية بأبسط حقوقها.. أن يحاولوا عبَثاً لملَمـةَ شَـتاتهم والاحتفـاظ ببقايـا ذاكـرةٍ قـد ترجـع يومـاً أو ربّمـا تغـادر إلـى غيـر عودة..

هي ليست دروسـاً خصوصيّةً بالمفهوم الشائع للكلمة، لأن ما تقوم به تَرَف يبدو أشبه بمهرجانٍ لأولادٍ من أعمار مختلفة تجمعهم الفتاة في كوخٍ من تنكٍ متآكـل، منسيٍّ علـى الطـرف الجنـوبي مـن المخيّم ومطلٍّ علـى

مساحاتٍ شاسعة من بساتين الليمون. أرض الكوخ تمّ تغطيتُها بمجموعةٍ من الحُصُر العتيقة المهترئة التي تبرّع بها أهل المخيّم، وبسبب قِدَمها تترك مجالاً للحصى والتربة أن تتنفّس الصعداء وتتسلّل من المِزَق الكثيرة فتتراقص على مؤخرات الأولاد والفتيات مسبّبةً لهم جروحاً بعضها طفيف وبعضها الآخر يحفر أوشاماً تلتصق بالجسد على مدى عمرٍ وعذاب.

أمّا عن تقنيات التعليم فحدّث ولا حرج: قطعةُ لوحٍ عثرَت عليها تَرَف ذات صدفةٍ في سلّة المهملات أمام منزل سيّدةٍ أثناء مهمّة تسليمها الثوب، بالإضافة إلى مجموعةٍ من قطع الفحم المرميّة في زوايا مختلفة من المخيم، والتي تنازل عنها أصحابها بعد أن غَدَت غير صالحة لأيّ استخدام.

تعتبر تَرَف أنّ تقاضيها أموالاً لقاء هذه الدروس مُشينٌ جدّاً، وتشعر بالخزيّ إزاء ذلك. لكنّها تجد نفسها مكبّلةً بألف واجبٍ والتزامٍ ممّا يحتّم عليها إعطاء هدنةٍ لخَفق قلبها ونبضه الحاني.. لا وقت لديها للتعاطف مع تعاسة الآخرين وحرمانهم، وكلّ ليونة منها سيقابلها بالتأكيد دمعةٌ تنسكب من مقلةٍ غاليةٍ على قلبها..

صحيح أن المبالغ التي تستحصلها ليست ذاتَ بالٍ ولا تحتلّ أيّ مكانةٍ في عالم الحسابات، إلّا أنّها تدرك، بملء حسرتها، الخلل الذي قد يحدثه أيّ إنفاق في موازنة لاجئٍ عاجزٍ عن الحياة.

إذاً لا ترَف في المشاعر ولا ترَف في الإغداق.. ولتنغمسي يا تَرَف في مزيدٍ من البّذل والتضحيات..

أما عن توقيت الدروس فتتباين بحسب انشغالات تَرَف، والإعلان عنها يتمّ عبر نداءاتٍ يطلقها عابِر شوارع المخيّم أثناء جَريه بين المنازل المتراكمة فوق بعضها بعضاً في شكلٍ هندسيٍّ مثيرٍ للتعجّب.

ولكن..!

ماذا عن دراستها وتحصيلها العلميّ! وهل تملك رفاهيةَ الاختلاء بذاتها لبضع وقتٍ حتى تُنجز ما عليها؟!

منطقُ حالها يقدّم إجابةً واضحةَ المعالم، ويدعونا للوقوف لحظةَ تأمّلٍ مع الذات لالتقاط مؤشّرات سعادةٍ قد تكون غائبةً عنّا وسط صخب حياةٍ مُشبَعةٍ بعدم الرضا وانتظار المزيد.

فعلاً.. مُستَضعفةٌ وتعيسةٌ هذه الفتاة.

إذاً، هي في طريقها لإيصال أخوَيها إلى المدرسة، وعليها أن تعبُر طرقات بعضها القليل مُعَبَّد وأكثرُها يعاني من نتوءات وترهّلات ومَشيب، فيساهم بصبغ ملامحها بمزيدٍ من علامات النكد والتذمّر.

عند بلوغ الهدف، أوقفت تَرَف الدرّاجة الناريّة على الرصيف، وأثناء قيامها بمساعدة بَيدَر الصغير على النزول، إذا بشيءٍ صلبٍ يهوي فوق رأسها مسبّباً لها ألماً جسيماً. أفلتت تَرَف يدَ أخيها وارتدَّت إلى الخلف ثمّ هَوَت بجسدها الهزيل على الأرض مصدرَةً أنّاتٍ حادّة..

ضحكاتُ أولادٍ انبعثت من هنا وهناك، وقهقهات فتياتٍ صغيرات، أعقبها تصفيقٌ حادٌّ وهتافات ساخرةٌ من تَرَف ودرّاجتها.. أصوات غير محدّدة المعالم صدحت من اللامكان وراحت تنعتها بأقبح الأوصاف مطلِقةً بحقها تسميات ذكوريّة بائسة جرّحَت قلبها الغَضّ وأرْدَتها في وَجَع.

انتفض عابِر من مكانه وأخذ يصرخ بلعنات وشتائم، ثمّ طرح حقيبته القماشيّة جانبًا، وانقضّ بعنفٍ على مجموعة الأولاد وهو يوزّع لكماته ذات غضبٍ وذات جنون.. ولكن ماذا يفعل هذا الصغير وسط تيارٍ جارفٍ من قلوبٍ التهبَت وفاضَت خصومةً فغَدت كالرماد!

هي حربٌ غير متكافئة انهالت فيها الضربات على عابِر حتى أوشك على الإغماء لولا تدخّل ثلّةٍ من الرجال العابرين لفضّ النزاع وتوجيه كلماتٍ قاسية للأولاد الذين هربوا سريعًا وتلاشت ظلالهم داخل سور المدرسة.

إثر هذه الحادثة، احتفظت تَرَف بين تلابيب روحها بمزيجٍ من خوفٍ وحقد، وبدأ التمرّد يتسلّل بين خَفقها، ويصيبها بوَخزِ روحٍ كلّما اختَلَت بذاتها في لحظات سكونٍ نادرة.

***

أنا تَرَف.. فتاةٌ – مع وَقف التنفيذ – أجمع بين شظَف الريف ورعونة البادية..

أتيتُ من البعيد.. حضرتُ جسداً بلا روح وما زالت ظلالي تلهو هناك، تارّةً بين شجر «البطم» وتارّةً أخرى فوق الرمال المنبسطة بين قريتنا و«مضارب» البدو.

فعليّاً لستُ سعيدة..

ولمَ أكون كذلك، وأنا ثريّةٌ بعوامل البؤس وباذخةٌ بالتعب!

أعتذر عن هذه البداية المُشينة، لكنّ الصراحة قد تتراءى أفضل في مُستهَلّ العلاقات، وأنا ستجمعني بكم علاقةُ ربّما ستنتهي قريباً أو قد تمتدّ لأصير جزءاً من ذاكرة حكاياكم..

أنا في الرابعة عشرة من عمرٍ ذُرِفَت لِحاظه آهاتٍ وحسرات.. تسعُ سنوات، منذ أن غادرتني الأحلام وغدرَني الزمن، وأنا أعاني شتات الروح وفقدان الهويّة..

هل حقّاً أنا فتاةٌ كاللواتي أصادفهنّ في الطرقات وفصول الدراسة!

هل أنا واحدةٌ من ذلك الجنس الذي يوصف بالطّراوة واللّطف! وهل سأصطدم يوماً بقلبٍ يعزف لي سمفونيّةً تستمدّ سحرها من حضوري!

أطرح هذه التساؤلات وفوق ثغري ترتع بسمةُ استهزاءٍ من نفسي شكلاً ومضموناً..

لا أدري إن أقدمتُ على وصف ذاتي بأيّ النعوت الكئيبة سأبدأ.. فتكويني غريبٌ، ولا أعثر في محيطي على مثيلٍ أو شبيه. ربّما حضوري

كـان سـيغدو عاديّـًا هنـاك، حيـث وُلِـدت، ولكـن في هـذه الأرض تبـدو المسألة مستحيلة.. أجدني أحلّق خارج السرب، وأينما حلَلت تجتاحني النظرات وترمي بحقدها على تفَرّدي وضعفي.

بشـرتي سـمراء حـادّة يشـوبها احمـرارٌ قـاتمٌ يـتراءى جليّـًا تحـت نـور الشمس. كثيراتٌ في هذا المكان بلونٍ أسمر، لكن هيهـات بينهنّ وبيني.. أمّا عن الشفاه فالوضع مريب.. هي تكاد لا تَبين، حتى كـأنّ ثغري عبـارةٌ عن حفـرةٍ- بـلا أطـراف تحـدّدُها- وُجـدَت صـدفةً لتقطـع امتـداد مسـطّح الوجه. وهذا الأنف المنقوش في الوسط أكاد لا أشعر بوجوده لولا حاسّـة الشمّ القويّة التي أتمتـع بهـا. هـو يقتصـر على حفـرتين متـوازيتَين قـابعتَين بسلامٍ دون أدنى نتوءاتٍ فيهما. أذكر يومـًا رأيتُ فيه زميلةَ صفٍّ لي تبكـي أنفَهـا وتصـفه بالطويـل، ولـم تسـتكن حتـى وعـدت نفسـها أمـام الجميـع بإجراء عمليّةٍ جراحيّةٍ تجتثّ امتدادَه وتثأر لها من سـنواتٍ قضَـتها مُكرَهـةً برفقته. كنـت وقتهـا في ذروة الدّهشـة، أنـا التـي عشـتُ زمنـًا أحلـم بسـحرٍ خرافيّ تأتي به جنيّة الحكايـا لتُحيـلَ هـاتَين الحفـرتين في وجهـي إلـى أنـفٍ متكاملٍ ممتدٍّ إلى الأمام، ولا يهـمّ إن سلك في امتداده طريقـًا مسـتقيمـًا أو متعرّجـًا..

يا لتناقض البشر!

أملك عينين صغيرتين جداً صالحتَين للرؤية لكن خارج مدار الجمال، مـع بضـع شـعيراتٍ تحيـط بـالجفون تحـت مسـمّى الأهـداب. كـل ذلـك، ويقبع فوق رأسي شَعرٌ أسود داكن منسدلٌ حتى الأكتـاف ولا تـنجح معـه

أيّ محاولةٍ لحجبه عن العيون، فيظلّ وجهي مغطّى به كستارةٍ من غزل عنكبوت.. وإزاء ذلك لا أملك وسيلةً لرَفعه، فأنا لا أطيق احتمالَ أيّ أداةٍ تستخدمها الفتيات عادةً في تزيين الشعر من أربطة أو غيرها. أشعر بوجودها وكأنّ شيئًا أطبق على أنفاسي فأصير ألهث من توترٍّ وخوف. لا أدري سببًا لذلك، لكنّه واقعي ولا أملك له تغييراً. فكّرتُ مِراراً باجتثاث الطول من شعري، لكنّني في كلّ مرّةٍ أجدني أضعف من الإقدام على انتزاع صِلتي الوحيدة بعالم الأنوثة الجميل.

أمّا عن جسدي، فالحديث قد يطول لوصف هذا الهيكل الهزيل، والذي يسمح لمن يراه بإحصاء عدد نتوءاته العظميّة بسهولة، وإجراء عمليّةٍ حسابيةٍ وهندسيّة للوقوف على أدنى مكوناته الداخلية من عظمٍ وشرايين، ورسم خارطة طريقٍ واضحةٍ لها.

شهيّتي للطعام كبيرة، وأتناول كل ما أعثر عليه. المشكلة لا تتعلّق بي، وإنّما ترتبط بالظروف الحياتيّة الصعبة التي تعيشها أسرتي منذ حوالي التسع سنوات، والتي تجعلنا غير قادرين إلا على توفير ما قد يسدّ رمقًا ويحفظ الحياة.

لا رفاهيّةَ أمامي لاختيار ما أحبّ من الأطعمة، ولا إمكانيّة للتأفّف أو التضجّر.. كلّ ما قد يتواجد أمامي عليّ أن أعتبره وليمةً فاخرة، وفي توقيتٍ موازٍ يجب أن أُقبل عليه بشبه لهفةٍ كفتاةٍ تخشى إلحاقَ الضرر بقوامها المنحوت، فربّما لا نملك في الغد كَسرة خبزٍ نقتاتُها.. التقنين ضروريّ بل واجبٌ والتزام!

في الحقيقة، أحبّ ان أعيش حياةَ فتاةٍ اعتياديّة.. أن أهتمّ بأنوثتي فأرتدي فستاناً جميلاً أو بنطالاً ضيّقاً يُبرزني كأنثى، بدلاً من قِطَع الأقمشة الفضفافة الملونّة التي أكتسي بها ولا أدرك لها خارطة طريق. ملابسي أنا وإخوتي تخيطها لنا أمّي من بقايا أقمشة متباينة، وتبذل في سبيل ذلك مجهوداً كبيراً لتعطيها انسيابيّة وانسجاماً وقبولاً، لكنّها رغم كلّ شيءٍ تبقى محاولات لا تتخطّى موضةَ ريفٍ وبؤسَ حال.

أعشق الأحذية ذات الكعب العالي، ولطالما وقفتُ أمام المحلّات لأستطلع الحديث منها وأحتفظ بصوَرِها في البال، فأتمكّن من الاستمتاع بارتدائها عندما أركن إلى الخيال في أمسيات البرد الطويلة.

أحلم بشَعري وقد قمتُ بتعريجه ليغدو متموجاً كنجمات السينما، كما أتصوّر ملامحي وقد غزَتها أدوات التجميل.. أحبّ الكُحل وأحمرَ الشّفاه، كما أعشق تلك الألوان التي تدسّها الفتيات فوق الجفون لإعطاء وهجٍ للعيون فتغدو نظراتهنّ أكثر عمقاً وجاذبيّة.

كم أتمنّى أن تكون لي صديقةٌ أحكي لها عن أسرار كتلك التي تتهامس بها البنات في الفصل الدراسيّ، ويجلسن بعدها في حالةٍ غريبةٍ من الضحكِ الهستيريّ..

أشياء كثيرة وربّما بسيطة تحتلّ اهتمامي، ولكن أراني أرتكب خطيئةً بمجرّد التفكير فيها.. فأولويّاتي لها نكهةُ عَوَز، وأمنياتي وشاحٌ بالٍ كلمّا رتقتُه ازداد اهتراءً وتشوّهاً..

دائمـًا ما أكون بسبب مظهري ولهجتي الريفيّة – البدويّة محطّ استهزاءٍ من زميلاتي في الصف. جميعهنّ يجِئنَ إلى المدرسة بحضورٍ زاهٍ ويتحدّثنَ بأسلوبٍ غريبٍ عنّي لكنّه يستهويني لما يُضفيه من أنوثةٍ على كلماتهنّ وحركاتهنّ. وفي اعترافٍ صريح، لطالما اختليتُ بذاتي ورحتُ أقلّد أحاديثهنّ وأسلوب غنجٍ في مَشيتهنَّ وحوارهنَّ وحتى ضحكاتهنَّ، دون أن أنجح في ذلك بالتأكيد. غالبًا أحاول افتعال اللّامبالاة إزاء تهكّمهنَّ منّي عن طريق الانغماس في الشرح والانتباه، لكن داخلي يكون متأجّجًا وملتهبًا من حزنٍ ونقمةٍ واستياء.

هذه أنا.. أفتقد الرضا عن الذات، وواقعي يكبّلني بألف عقدةٍ ويُحيلُني ريشةً في مهبّ الريح. هزمني بؤسي، ولم أجد من ينتصر لوَهَني وعَجزي.

كلُّ مكانٍ أرتادُه ينقش بصماته في الوجدان، ويترك ألف حسرةٍ وشجن.. فكم أتمنّى أن أقطن هذا الشارع أو تلك العمارة. كم يستهويني أن أرى نفسي مستقرّةً على تلك الشرفة أرتشف قهوتي الصباحيّة وأتأمّل الأفق دون أن يبتُر شرودي قلقٌ من مستقبلٍ أو خوفٌ من جوع.. كم أرغب أن تكون لي خصوصيّةٌ في المبيت، فأمضي وقتي في غرفتي أدرس وأستمع إلى الموسيقى أو حتى أحاور السكون.

نعم، أنا تَرَف.. لكنّ حياتي تفتقد أدنى مقومات البهجة والرفاهيّة. أعيش مع أسرتي في مخيّمٍ للّجوء، بعد أن كنّا نملك مزرعةً صغيرةً في الريف البعيد خلف الحدود.. في بلادنا التي لفَظَتنا لحظةَ حرب!

أبي تاجر مواشٍ، وله اسمٌ بارزٌ في قريتنا القابعة على حدود البادية. له مكانةٌ عند شيوخ القبائل بسبب صدقه ووفائه بالعهود. ما دخل تجارةً معهم إلّا وقدّم أفضل ما عنده من بضاعةٍ وسلوكيات تعامل.

أمّا الآن، فقد بات مُقعداً، يمضي نهاره بعباءةٍ بدويّةٍ فضفافةٍ على كرسيّ أمام باب منزلنا، أو فلنقل كوخنا. بيتُنا كسواه من بيوت المخيّم عبارةٌ عن مجموعةٍ من صفائح التنك المتراصّة فوق بعضها البعض بطريقةٍ عشوائيّة، تتيح المجال للمياه أن تتسرب من بينها بسلاسة. هذا الأمر يضطرنا دائماً وقبل هطول المطر، إلى رصف الأواني على الأرض جنباً إلى جنب، في سَعيٍ إلى تحقيق فائدةٍ مزدوجة: بدايةً نحول دون تحوّل الأرضيّة إلى مجمّعٍ لمياه الأمطار فنحافظ بذلك على أثاثنا فاخرِ القدَم، إن وُجد.. وثانياً نلجأ إلى تخزين المياه بسبب ندرتها في المخيّم بحيث نسعى لاستخدامها فيما بعد فتخفّف من وطأة جفافٍ ضرب نفوسَنا قبل المكان.

لا غرف في المنزل، فمن يلِج إليه يرى امتداداً واحداً تتكوّم في زواياه كراكيب مختلفة من أغطيةٍ بالية وأوانٍ وملابس قديمة.. المكان الوحيد الذي تحرص العائلة بأكملها على إبقائه نظيفاً وخالياً من أيّ تشوّهات هو ذاك الذي تتّخذه أمّي مستقرّاً لإنجاز عملها، فتخيط الملابس للنساء بعيداً عن كلّ ما قد يسبّب تلفاً أو اتساخاً للأقمشة. إنّه المكان المقدّس الوحيد في البيت، وما تبقى مجرّد خرابةٍ تضمنّا لستر حُرمتنا بعيداً عن حشريّة البشر وجنون الطبيعة.

أمّا عن بيت الخَلاء فتستحيل إمكانيّة الاختلاء فيه.. هو جزءٌ صغير من القاعة الكبيرة، فيه حفرةٌ تمتدّ في الأرض إلى اللامكان، ووعاءٌ صغير يحوي بعض المياه الآسنة. من أراد أن يدخله عليه أن يغلق ستارةً مرقّعةً ومهترئةَ الأطراف علّها تساعد في حجبه عن النظر، وغالبًا ما تفشل.. وفي كثيرٍ من الأحيان يحدث أن تتقيّأ الحفرة كلّ ما فيها ويغرق المنزل في دنَسٍ ومأساة!

شوارع المخيم تنبض قذارةً وتحاكي بضيقها والتواءاتها متاهاتٍ تحمل لعابريها انقباضًا وتخوّفًا من مجهولٍ قد يداهِمُ وينقضُّ في توقيتٍ مباغت. هي مكانٌ ملائمٌ للضياع والانغماس في كلّ أنواع الموبقات، ولا يمكن أن يتخطّاها إلّا مَن اقتات وتشبّع مِن بؤسها واعتاد شوائبها وجَدبَ خَفقها.

الجرذان هي الوحيدة التي يستضيفها المخيّم بوِدّ، فيفتح لها أحضانه الباردة ويحتويها بحبٍّ لم يقدّمه لأيٍّ من قاطنيه من قبل، فيكاد لا يخلو أيّ حيّزٍ من حضورها الدميم. حتى في المنازل تجدها داخل الأواني وبين الألبسة وفوق الجدران المعدنيّة للصفائح.. مشهدٌ مقزّزٌ بالفعل ولكن لأولئك الذين اعتادوا زمنًا من وَردٍ وحياةً من ياسمين.. أمّا نحن، اللاجئون، فنعيش هنا خارج مدار الإنسانيّة، وعلينا أن نحمل أوزارها ونقَدَّم كقرابين على مذبحة جنونها.

في البداية أصابني فزعٌ هستيريّ من هذه الكائنات خصوصًا عند الخلود إلى النوم، ورؤيتها تخرج من أوكارها لتغزو الغرفة الكئيبة. كنت

أصدح بصراخٍ مريب، فتصحو أمّي لتحتضن خوفي فأنام بين يديها بعد أن تُسدِل على وجهي غطاءً حتى لا تصطدم نظراتي مجدداً بوجود هذه الكائنات..

أمّا اليوم، وبعد مرور سنوات من القَهر، صرتُ لا أغفو إلّا على وَقع نميم الجرذان فوق رأسي، وهي تتهامس مع بعضها في لقاءٍ أشبه بجلسات ثرثرةٍ نسائيّة.

لا أملك وقتاً لتحقيق رفاهية تَرَف ولا حتى للالتفات إلى احتياجاتها.. فجأةً، وبعد طفولةٍ وبهجةٍ وأمنيات، وجدتُني في مقام ضَعف.. ثمّ في موقع مسؤولية..

القصّة بدأت من هناك، من البعيد جداً، وامتدَّت مع انسراب الزمن، حتى بلَغتُ ما أنا فيه من ضمورٍ للأحلام..

والحديث يطول!

التيه..

أريد البحث عن وطنٍ جديدٍ
غير مسكونٍ وأرضٍ لا تعاديني
أريد أفرّ من جلدي ومن صوتي
ومن لغتي ، أريد أفرّ من ظلّي
وأهرب من عناويني.

نزار قبّاني

«تَرَف أين أنتِ صغيرتي؟ يا إلهي دائماً ما تفعل بي هذا، تختفي فجأةً وتتركني للوساوس والهذيان».

خرجت أمّي نوف بملابسها الفضفافة، إلى الفناء الأماميّ للبيت، وهي تنادي باسمي وتتمتم بعبارات لم أتبيّنها ولكنّي أكاد أحفظها لتكرارها بطريقةٍ شبه يوميّة. ثيابها ملطّخةٌ برَوَثٍ وتربةٍ وقَشّ، ووجهها مُبتلٌّ بعَرَقٍ ينسرب من أعلى رأسها إلى وجنتيها ويقطر كحبّات لؤلؤٍ على كتفيها. بدَت بسبب توتّرها غير مباليةٍ بتعبها وببطنها المنتفخة أمامها بعض الشيء. إنها حامل في أواخر شهرها السادس، هكذا أخبرتني.. سألتُها مراراً كيف يمكن لطفلٍ أن يظلّ طوال هذا الوقت جاثياً في بطنها دون أن يملّ، ودائماً يكون جوابُها ضحكة تصدح في أرجاء المكان وترفع مؤشّر الغيرة عندي.. أنا لا أريد أختاً تشاركني لعبي ولا أخاً يشاطرني الهدايا.. لا أتقبّل وجود ولدٍ جديد يقاسمني منزلنا الذي أحب، وأرغب أن أظلّ الابنة الوحيدة لوالديّ. منذ أن عرفتُ بحَمل أمّي كرهتُ جميع الأولاد، وعندما تأتي نساء القرية مع أطفالهنّ لزيارتنا، أظلّ في حال امتعاضٍ وعصبيّةٍ، وأصير عدوانيّةً في التعامل مع الجميع. أستمرّ على هذه الحال إلى حين مغادرتهنّ، أعود بعدها لألملم شتات روحي وأسترجع طفلةً لطيفةً كنتُها..

يستقرّ منزلنا وحيداً فوق التلّ البعيد على الطرف الجنوبيّ من القرية، ويطلّ من موقعه على امتدادٍ رمليّ واسع لا نهاية له، تسمّيه أمّي «البادية»..

من منزلنا نستطيع أن نلمح خيم البدو السوداء منتصبةً وسط الرمال بثقة وكبرياء، وكأنها تجثو على ضفاف نهرٍ جارٍ تسوّره الأشجار من الجانبين.

لا أعرف كيف يمكن لهؤلاء الأشخاص أن يتقبّلوا فكرة إقامتهم في مكان يسوده اللاشيء، ويصخب بالفراغ! كيف يستطيعون التآلف مع حياتهم المُجدِبة، بينما بإمكانهم الانتقال إلى أمكنة قد تقدّم لهم شيئًا من الراحة مقارنةً بما هم فيه من ضنكٍ وشقاء!

ربّما بسبب عمري الغضّ الذي لم يتجاوز الأربع سنوات بكثير، أو بسبب حديث والدتي الدائم عن وحوشٍ جائعة تقطع البادية ليلاً ونهاراً تنهش الأفراد وعن جفاف يغزو الصحراء فتذبل الأرواح قبل الأجساد، لم أتمكّن من استيعاب نمط حياةٍ قد أصفه بالفظّ ويراه أولئك «البدو» رفاهيةً محقّقَة..

فلنَعُد إلى أمّي.. المسكينة تبدو في هلعٍ كبير. هي تحبّني كثيراً، فأنا ابنتها الوحيدة وثمرة زواجها من رجل أحبّته، والدي صقر.. تخشى عليّ من التيه في الصحراء، وعندما أخرج لألهو في فناء المنزل، تبقى في حال ترقّبٍ وقلقٍ حتى أعود، لذلك صارت مؤخراً تنجز معظم أعمالها خارج البيت حتى أظلّ أمام ناظرَيها، فتطمئنّ وتستكين.

اليوم، غافلتُها أثناء تواجدها في الزّريبة لتفقُّد البهائم وتزويدها بالطعام، هكذا أوصاها أبي أن تفعل كلّ يومٍ قبل أن يغادرنا. إنّه تاجر ماشية، يسافر كثيراً بين القرى ويقطع البادية.. يبيع ويشتري ويعقد الصفقات، قد يستغرق

ذلك منه عدّة أيّامٍ أو ربّما أكثر من أسبوع، وعندما يرجع يكون محمّلاً بالهدايا التي يجمعها من كلّ مكانٍ يحطّ رحاله فيه.

عندما خرجتُ من المنزل كنتُ في قمّة الحماس للّهو مع «ظلّي».. كلّ يوم أقضي معه ساعات نلعب، نعدو، نتسابق، ونتحاور أيضاً.. لا أملك أصدقاء، فبيتنا بعيد عن سواه من بيوت القرية، وأمّي مشغولةٌ معظم الأحيان وتفضّل إنجاز أعمالها على القيام بزياراتٍ لنساء القرية. لذلك أقضي معظم وقتي برفقة ظلّي الذي أحبّه كثيراً. هو لا يخذلني أبداً، ويستمرّ في احتضان وَحدتي وملء فراغي بنفحات رضا والكثير من البسمات. وما يساعد ظلّي الصغير على الاحتفاظ برَونقه، تلك المساحة الممتدّة في فناء المنزل حيث لا أشجار تعيق حضوره أو تبتر انسيابه، فيستمرّ وجوده متوهّجاً لساعات.

من مكاني المشرف على البادية حيث كنت أجثو مع ظلّي نتهامس، لمحتُ أمّي بعينيها المذعورتين تصرخ باسمي، تضرب بيديها على الرجلين في تعبيرٍ عن خوفٍ وقلق، ومنديلُها منسدلٌ على كتفيها مفسحاً المجال أمام شعرها الناعم ليتطاير بعشوائيّة.. انتفَضتُ من جَلستي وأسرعتُ إليها لأتشبّث بفستانها المبتلّ، ربّما من مياه الغسيل أو من حليبٍ تطايرَ رذاذه عليه أثناء قيامها بحَلْب الماشية.

احتضنَتني بشدّة، وبعد أن هدأ بالها، راحت تعاتبني وتكرّر على مسمعي مخاوفها من ضياعي في صحراء البادية التي تبتلع كلّ من يتخطّى حدودها..

قلق أمّي عليَّ لم يأتِ من فراغ، فقد سبق وعاشَت تجربةَ فَقدٍ مريرةٍ بسببي، ويا لها من حادثةٍ أردَت أمّي في حُمّى شديدة استمرّت لمدّة أسبوع..

يومَها كان أبي ما زال غائبًا في إحدى رحلات عمله، استيقظتُ باكراً على غير عادتي وانسرَبتُ من السرير وأمّي ما تزال تنعم بإغفاءةٍ طريّة. خرجتُ إلى فناء المنزل بملابس النوم، وبينما أنا ألهو بالحصى لمحتُ أرنبًا تتقافز بين المزروعات. رحتُ أتسلّل خلفها في محاولةٍ لالتقاطها. تقصّدتُ أن لا أغفل عن رؤيتها حتى لا أفقد أثرها، وانغمستُ في مطاردتها لدرجةٍ لم أنتبه معها إلى مسافةٍ صارت تفصلني عن البيت. استمرّت عمليّة تتبّعي للأرنب زمنًا، لأن أشعة الشمس باتت تلامس جلدي بخشونةٍ مسبّبةً تعرّقًا لجسدي الأسمر الهزيل. وعندما توقّفتُ لبضع ثوانٍ في محاولةٍ لمسح ما علق على جبيني المبتلّ من تراب، كانت الأرنب قد اختفت. اشتعلتُ غيظًا، ووقفت أقتنص حضورها من البعيد دون أيّ نتيجة.. لم أتقبّل انهزامي، ورحت أتقصّى وجودها في مختلف الزوايا حتى وجدتُني وقد وصلت إلى حافّة التلّ، وباتت البادية ترسم في امتدادها أمامي لوحةً فنيّةً متفرّدة الجمال. تردّدتُ كثيراً قبل أن أخطو إلى الأمام وأشرع في الانحدار عن التلّ لأجد نفسي مستقرّةً وسط الرمال المنبسطة، وظِلّي بكامل زَهوه يترامى أمامي بكبرياء. فَرِحتُ بموافاته لي وشعرتُ باطمئنانٍ يتسلّل إلى عمق الوريد. حضور صديقي الوحيد حفّزني على البقاء قليلاً في تجربةٍ جديدةٍ لتحرّي المكان.. رحتُ أسير وأتبع ظِلّي الذي سبقني وبدا أكثر حماسًا منّي. مشيتُ

طويلاً في انتظارٍ لتبدّل المشهد، لكنّ شيئًا لم يتغيّر.. مساحاتٌ رمليّةٌ شاسعةٌ وأشعة شمسٍ حارقة تزيد من يباس بعض النباتات الشائكة المترامية هنا وهناك في توزيعٍ عشوائيّ. شعرت بعطشٍ شديد وأخذَت معدتي تصدر أصواتًا تدعوني لإمدادها بالطعام.. الفراغ حولي أصابني بقشعريرةٍ رغبتُ إثرها بالعودة إلى البيت، لكنّ ذلك بدا مستحيلاً فلا درب أسلكه ولا وجهة محدّدة.. فراغٌ في فراغ!

كان الحرّ شديداً، فأخذتُ أفتّش عن أيّ شيءٍ يمكن أن يظلّلني، وحتى لا أشعر بوَحشةٍ صرتُ أحادث ظلّي بصوتٍ مرتفع.. حكيتُ له الكثير عن أحلامي الطفوليّة وعن انتظاراتي لعودة أبي من سفريّاته عندما يأتيني محمّلاً بالهدايا، وعن أمّي وتعبها الدائم في إدارة شؤوننا وقدراتها المميّزة في خياطة الملابس وصناعة الجبن وزراعة الأرض.. شعرتُ عندها بغصّةٍ كبيرة وقلقٍ على أمّي التي تركتُها دون إذنٍ منها.. من بعيد لمحتُ شيئًا قابعًا وسط الرمال، وعندما دنوت فوجئتُ بشجرةٍ غريبةٍ تنتمي إلى عالم الأقزام بحجمها، لكنّها رغم ذلك تصلح لأن تكون مظلّةً تُؤوي جسدي الصغير. تسلّلتُ تحتها وتبعني ظلّي الذي تلاشى بين جنباتها فلم أعد ألمح له وجوداً. الغريب في الأمر أنّ خوفًا لم يلامس أعماقي رغم غرابة المكان ووَحدةٍ لم أعتدها على الإطلاق. وعلى حين شرود، رحتُ في نومٍ عميق.. وعندما صحوتُ بعد زمنٍ لا أدركه، وجدتُني في سريري وأمّي تجلس قربي مع جارتنا وهما ترمقانني بعينين جاحظتين..

هذا جلّ ما أذكره عن رحلة التّيه التي خرجتُ منها بسلامٍ، بمساعدة رجال القرية الذين ما إن عرفوا بغيابي من لهفة أمّي الملتاعة، حتى انطلقوا بحثًا عنّي، ولم يعودوا إلّا وأنا أغفو بين أيديهم وكأنّ شيئًا لم يكن..

بعد هذه الحادثة، لم تعاتبني أمّي لأنّها ظلّت طريحة الفراش لمدّة أسبوع، وإثرَ شفائها تحوّل خوفها عليّ إلى قلقٍ دائمٍ جعلها تضعني تحت مجهرها معظم الوقت وتَرقُب تصرّفاتي كمُعتقلٍ يُخشى فِرارُه..

لطالما تساءلتُ عن سبب عزلة منزلنا عن باقي البيوت، واستقراره على رأس التلّ في موقع مُشرفٍ على القرية بتفاصيلها من جهة، والصحراء بامتدادها المترامي وساكنيها من البدو من جهة ثانية.. إلى أن عرفتُ ومنذ فترةٍ وجيزة أنّ والدي قرّر ذلك ليكون مبيتُنا قريبًا من الزّريبة- مصدر رزقنا- ممّا يتيح لنا الاعتناء بالمواشي بصورة مستمرّة..

المكان مميّز، وأنا أحبّه وأجده ملائمًا لنسج حكايا الخيال. وهذا ما أفعله عادةً عندما أختلي بظلّي ونجلس لنرتاح بعد جولات من اللعب الشاق.

بيتنا يتكوّن من طابقٍ أرضيٍّ واحد.. صالةٌ واسعةٌ نستخدمها لاستقبال الضيوف، وتمضية الساعات الشتويّة الطويلة حين يتعذّر الخروج بسبب المطر.. أثّثَها والدي بمجموعةٍ من الوسائد الملوّنة الفاخرة التي ابتاعها من إحدى قبائل البدو المنتشرة في الصحراء، وافترش بها زوايا القاعة بشكلٍ دائريٍّ ممتع للنظر. وفي وسطها يمتدّ بساطٌ بلونٍ أحمر وخيوط ذهبية صنعته جدّتي لوالدتي بمهنيّةٍ كبيرة كهديّة زواجٍ لها. وفي تحسّبٍ لأيّ زيارةٍ مفاجئة،

وضعت أمّي على منضدةٍ صغيرةٍ إبريقَ شايٍ نحاسيّ مع مجموعةٍ من فناجين القهوة النحاسيّة أيضاً يقابلهم موقدٌ على الفحم في وضعيّة تأهّبٍ مستمرّ.. أمّا عن الجدران، فقد تمّ تزيينها ببعض الخناجر والسيوف التي حصل عليها والدي من بعض شيوخ القبائل كعربون احترام ومودّة. على يمين الصالة غرفة نومٍ كبيرة ولا يحجب محتواها المتواضع عن النظر إلّا ستارةٌ نُقشت عليها لوحةٌ تصوّر واحةَ نخيل وسط الصحراء. أمّا المطبخ فتراه قابعاً في نهاية الصالة ويطلّ على الباحة الخلفية للمنزل حيث قام والداي بغرس العديد من الأشجار المثمرة وأنواع مختلفة من الزهور التي أضفت على المكان رونقاً وبهجة. تستخدم أمّي هذا الفناء أيضاً للقيام بغسل الملابس داخل وعاء معدنيٍّ كبير مستقدمةً المياه من صنبورٍ في المطبخ بواسطة انبوبٍ جلديٍّ أسود.

الفناء الأماميّ للمنزل هو عبارة عن مساحةٍ واسعةٍ خالية من الأشجار العالية، لأن والدتي فضّلت أن تقوم بزرعها بأنواع مختلفة من الخضار كالخيار والخس والبصل والثوم بالإضافة إلى بعض النباتات التي لم أستطع أن أفهم الجدوى من غرسها كالخِبّيزة والكرّات والبابونج وغيرها من الحشائش الغريبة..

اعتمدت والدتي في غرس هذه النباتات أشكالاً هندسيّة جميلة تتراوح بين الشكل الدائريّ والمربع والبيضاوي، تاركةً مساحات بين كل مجموعةٍ

وأخرى لتتمكّن من الانتقال بسهولة من غير أن نصيبها بأيّ تلف، ممّا منحني فسحةَ حريّةٍ للّعب دون أن أتعرّض للتوبيخ في كلّ مرّة.

أمّا عن الزريبة فهي عبارة عن غرفة واسعة جداً من طينٍ مستقلّةٍ بذاتها، بناها أبي قرب المنزل بعد أن تيسّرت أحواله الماديّة وتوسّعت تجارته إثر ولادتي.

الزريبة بالنسبة لي مكانٌ يبعث على الرّيبة، لا أجرؤ على دخولها مطلقاً ولا حتى على المرور قربَها.. دائماً تصدر منها أصواتٌ تثير في نفسي التوتر وتبعث على الحيرة، لا أدري إن كانت حقيقيّة أو من نسج الخيال.

هي ليست أصوات ماشية.. فأنا أعرف ثغاء الخراف، مأمأة الماعز، خوار الأبقار وحتى رغاء الجمال.

معظم كوابيسي الليليّة تدور في محيط الزريبة.. تارّةً أراني داخلها في دهاليز مُعتمة بلا نهاية وأنفاسٌ حارّةٌ تصفع جبهتي دون أن أعرف لها سبباً. وتارّةً أخرى أجدني سجينَتَها، مع حضورٍ مريعٍ لأعدد هائلة من الجرذان.. وفي ليلةٍ شتويّةٍ باردةٍ عصف بي حلمٌ بائس تمكّن منّي فترةً طويلةً بقيتُ خلالها أعيش مأساةَ خوفٍ فلا أجرؤ على الحركة بعيداً عن أمّي رغم محاولاتها الكثيرة لتهدئتي.

وجدتُني ذات حلمٍ أفتح باب الزريبة المُظلمة وأَلِج إليها بحذرٍ شديد، وإذا بيدٍ كبيرةٍ تشبه حوافر الجمال تمسكني بشدّة وتشدّني إلى الداخل.. رحتُ أصرخ وأستغيث محاوِلةً التفلّت من قبضتها. فجأةً، شعرتُ بجسدي

يـرتطم بـالأرض، ومـا أن اعتـدتُ الظلمـة حتـى رأيـتُ وجوهـاً كثيـرةً لبقـرٍ وخـراف وجمـال تحـوّطني مـن كـلّ اتجـاه ثـم تـدنو مني مكشّـرةً عـن أسـنان ضخمة مع أزيزٍ حادٍّ ملأ المكـان.. صـحوت والعـرق يتصبّب مـن كـل حنايـا جسدي الصغير مع رعشةٍ شديدةٍ أمسكت بي حتى صرتُ أنتفض عن السرير دون أن تُفلح محاولات أمّي لبعث السكينة في روحي.

من أجل كلّ ذلك أحرص باستمرار على الابتعاد قدر الإمكان عن محيط الزريبة، وأظلّ في ترقّبٍ كلّما رأيت والدتي تدخل إليها فأشـغل نفسـي باللّعـب بعيداً في محاولةٍ لتخفيف وطأة التوتّر.. ولكن هيهات!

مسكينةٌ أمّي.. تتعب كثيراً في العمل طـوال النهـار داخـل المنـزل وخارجـه سواء في الزريبة أو في الأرض حيث تغرس وتسـقي وتقطـف وتعتني. وتـزداد مسؤولياتها عندما يرحل أبّي سعيـًا وراء تجارته، فتصبح امرأةً سريعة الغضـب وفي حال انفعالٍ دائم.. قلقها المستمرّ على والدي وخوفها الشديد عليَّ تركـا آثاراً واضحةً على ملامحها. وبالرغـم من عمرها الفَتيّ ظهرت التجاعيد علـى وجههـا في ترجمـةٍ لمـا يصـخب داخلهـا مـن هـواجس تقـضّ مضـجع شـبابها وتهزم سكينَتها.

***

اليوم سيعود أبي من رحلة عمله التي استغرقت عشرة أيّامٍ جاب خلالها عدّةَ قرى، وخاض غمار البادية متنقّلاً بين قبيلةٍ وأخرى.. باع واشترى، وسيرجع حتماً محمّلاً بالكثير من الهدايا.

كعادتي صحوتُ باكراً وخرجت إلى الفناء أترقّب حضورَه. هو لا يخبرنا بموعد وصوله، لذلك عليّ أن أبقى في حال ترصّدٍ مستمرّ حتى ألمح ظلاله من بعيد.

يكاد قلبي يتكسّر بين الضلوع من فرط الاتّقاد.. مشتاقةٌ لوالدي، ومتحمّسةٌ لفتح أكياس الهدايا والاستمتاع بما تحويه من مفاجآت.. لا بدّ وأن حصّتي منها كبيرة، فقد طال ارتحاله ممّا يعني أنّ ما ينتظرني يثير الدّهشة ويرفع مؤشّر البهجة..

صرتُ أروح وأجيء في الفناء.. أدخل المنزل لأعود وأخرج فوراً خوفاً من أن تباغتني عودة أبي، فيظنّني متقاعسة عن استقباله، وأنا لا أريد له الحزن أبداً..

انتصف النهار وأنا ما زلت على قيد الانتظار!

منهكة من طول الترقّب، ومعدتي تأبى أيّ نوعٍ من الطعام. بدأ القلق يتسلّل إلى قلبي الصغير، خصوصاً بعد أن لمحتُ علامات الخوف التي أحفظها وقد تملّكت من والدتي.. عبوسٌ بين العينين وخطوطٌ متعرّجة بالطول والعرض بدأت ترسم خرائط وسط جبهتها، جفنها الأيسر ينتفض بشدّة بين آونةٍ وأخرى، وأصابع يديها تتحرّك بسرعةٍ وعشوائيّةٍ دون أن تملك لتهدئتها وسيلة.

منذ فترة وأحوال أمّي غير مستقرّة.. الموضوع لا يرتبط بحَملها حتماً، فهي في عصبيّةٍ دائمة، وخوفها عليّ بات مستمرّاً وغير مرتبط بتواجدي فقط بعيداً عن ناظرَيها.. في أحيانٍ كثيرة ألمح دموعاً تلتمع داخل عينيها، ومرّات عديدة سمعتُها في خَلوتها تدعو بدوام الحال والأمان والسلامة لعائلتنا وللجميع..

حتى أبي بات بمزاجٍ غريب.. لم يعد كسابق عهدي به من البهجة، وصار كثير العبوس، قليل الكلام، وغالباً ما أراه منكفئاً على ذاته وشارداً في عوالم لا أعلم عنها شيئاً..

في محاولةٍ منّي لتخطّي هواجسي، حاولت أن ألتقي ظِلّي في الخارج علّ رؤيتَه تبعث في النفس السكينة، لكنّني شعرتُ بحاجزٍ يحولُ بيني وبين ملاطفته وخشيتُ أن أتسبّب في مضايقته وهو صديقي الوحيد! من أجل ذلك، جثوتُ قرب باب البيت على صخرةٍ صغيرة كان أبي قد نحتها لي ومهّدها لتصبح صالحةً للجلوس، وصارت نظراتي متعلّقةً بالطريق عساني ألمح خيالاتٍ تُنذر بقدوم من اشتقتُ حضوره.

لا أدري عدد الساعات التي أمضيتُها في إغفاءةٍ على الصخرة، لكنّي صحوت فجأةً على صخبٍ منسربٍ من مكانٍ بعيد.. تنبّهَت جميع الحواس عندي، ورحتُ أُصغي بنَهَم. نعم، هو صوت محرّك سيارةٍ تصعد التلّ: هناك أحدٌ قادم باتّجاه منزلنا.

رحت أصرخ بصوتٍ عالٍ وأنادي أمّي التي أقبلَت من الزريبة تعرج من وَهَنٍ.. وقفَت كلانا بعينين متصلّبين، نبضٍ ملتهبٍ، ورجاءٍ جَنين..

من بعيدٍ تراءت لناظرَينا سيارة بيضاء متهالكةٌ من فرط القِدَم، ترتجف في صعودها مُصدرةً هديراً غليظًا يبعث على الصّداع.

بضع لحظات استقرّت بعدها السيارة أمام المنزل.. ودون أن أنتظر تبّيُّنَ القادم أسرعتُ لأحتضن عودة أبي.. وكعهدي به، لم يُخيِّب أملي ورأيته يهبط بكامل لهفته ليفتح يديه ويحتويني بعد طول غياب.

ولكن.. ثمّة شعور غريب!

بدا رغم ابتسامته حزينًا، حتى احتضانُه لي لم يحمل إلى قلبي الدفء كما اعتدتُ معه.. لم يصرخ باسمي عند اللقاء، ولا حملني عاليًا لأشعر بنفسي فراشةً تحلّق في فضاء الأمنيات.. وعندما قبّلتُه، طبع بدَوره قبلةً على خدّي ولكن بملامح من جليد.

بعد أن تحدّث والدي مع السائق ونَقَدَه الأُجرة، سحب حقيبةً صغيرةً عن المقعد الخلفيّ للسيارة وأدار ظهره لنا متوجّهًا نحو الداخل.

يسافر أبي عادةً في رحلاته التجاريّة مستقلّاً شاحنةً صغيرةً اشتراها لتساعده في ارتحاله الدائم وحَمْل الماشية التي يرغب ببيعها..

إذاً أين هي الشاحنة!

لم نتجرّأ أنا وأمّي على التوجّه لأبي بأيّ سؤال، نظراً لحالته الغريبة التي أتانا بها، والتي توحي أنّ كارثةً على وشك الحدوث!

مضى النهارُ سريعًا، ووالدي لا يزال على حاله من الصمت والشرود.. حتى طعام الغداء لم يتناوله، وظلّ قابعًا في ركنه يحتسي فنجان قهوةٍ تلو الآخر، يقلّب أوراقًا، يُحصي أرقامًا ويُجري من آنٍ لآخر اتصالات من

هاتفه المحمول.. ولأوّل مرّةٍ أسمعه يُهاتف بصوتٍ مرتفع ويصرخ بشراسةٍ ثمّ يعود ليعتذر بصوت خفيض..

هي المرّة الأولى التي لا أحصل فيها على هدايا، والأكثر غرابة أنّ والدي لم يحدّثني مطلقاً ولا حاول تقديم مبررات لذلك، رغم خيبةٍ ارتسمَت فوق ملامحي، وأصابتني بارتباك!

أمّا عن أمّي، فالمسكينة تراءت في أسوأ حال.. بدَت متهالكةَ الرّوح وكادت جفونُها تفيض دمعاً لولا محاولاتها الشرسة لحَجب حزنها ولملمة عَبَراتها.

وما رفع مؤشّر مخاوفي، الحشد الكبير من رجال القرية الذي حضر إلى منزلنا في اليوم التالي.. اجتماعُهم مع أبي دام لساعاتٍ طويلة، بقيتُ خلالها حبيسةَ غرفة النوم، والأصوات في الخارج تعلو وتخفت.

كلمات مبعثرة وسط أحاديث طويلة تمكّنت من التسلل إلى مخدعي، فدكَّت هدأتي وأردَتني في هلع: عمليات سَّلب.. مسلحّون.. ارتحال!

من عليه أن يغادر؟ وأين هم أولئك المسلّحون؟ أتُراهم قريبين من بيتنا، أم أنهم يجوبون الصحراء بعيداً عنّ حضورنا؟

أسئلة كثيرة ظلّت تختال بغرورٍ في ذهني المنهك.. حاولتُ إقصاءها، لكن محاولاتي المتكرّرة أصيبت بفشلٍ ذريع.

عندما غادرَنا الضيوف، انسحَبتُ من الغرفة لأفاجَأ بأبي متجهّمَ الوجه، وأمّي بملامح حزينة تَرقُب النار في الموقد وقد بدأت تخبو. تربّعتُ بكامل صمتي قربَها ونظراتي المتسائلة ترتفع بخجلٍ نحو أبي لتعود سريعاً إلى

مدارها وهدأتها وحيرتها. وعلى حين بغتة، انتصبت أمّي مكانَها وبصوتٍ مضطربٍ صاحَت: «لا يمكننا الرحيل.. سأبقى هنا ولن أترك بيتي وأرضي.. سأختار الموت على الهروب».

فاجأتني أمّي بصخَبها بعد السكون، وبكلماتٍ ما عرفتُ لها معنى صدَحَت بها وكأنّها على أعتاب ثورةٍ أو انتفاضة..

شعرتُ بتشويشٍ ينسج غَزلَه داخل رأسي، وبغموضٍ يتراقص في الصالة مستهزئًا من بلاهتي.

لماذا لا يخبرني أحدٌ بما يحدث؟ تبدو المسألة شائكةً، وتتعلّق بأهالي القرية، جميعهم!

بدأ التوجّس يقتحم جوارحي بوحشيّة، وراح قلبي يخفق بنبضٍ عاصفٍ. شعرتُ بخوفٍ يشبه ذاك الذي صفعني ذات حلم وكابوس، فصرتُ أرتعش مكاني وأتصبّب عرقًا. لمحَت أمّي ما أنا فيه من سوء حال، فركضت نحوي لتحتضن ذعري وتواسي فزعي. أخذتُ أنتحب بشدّة، وراحت دموعي تنسكب سيلاً بين يديها..

أنا.. خائفةٌ من مجهول لا أعرفه ولكن أكاد أتلمسّ بشاعتَه.. مضطربةٌ من تعب أمّي وأبي وبؤسهما، وثمّة هواجس بدأت تسلك طريقها بين تلابيب الفكر. أنا أحبّ تلّنا الصغير حيث يجثو البيت، وسعيدة بمنزلنا الجميل.. حتى الزريبة التي أهابها، هي مصدر رزق أبي لذلك أجدني مستعدّةً لتجاوز مخاوفي إزاءها مقابل بقائها على ما هي عليه..

وفناء بيتنا الواسع، حيث وُلد ظلّي وكبر ليغدو صديقي الوحيد، لا يمكن أن أخونَه! أنا جزءٌ من ترابه وحجارته وزَرعه.. وهو مُستقَرُّ خيالي ومرتعُ سعادتي..

وذاك الفضاء الرَّحب من امتدادٍ رمليّ بلا حدود هو مسكن غرائبيّةٍ عشقتُها ونسجتُ حولها ألف قصّةٍ عن أميرات وفوانيس سحريّة وعصابات تجوب الصحراء بحثًا عن كنوزٍ دفينة..

كيف لي أن أفوتَ كلّ ذلك؟ بالتأكيد لن أفعل..

ربّما، بحكم سنوات عمري الضئيلة، أتت هواجسي لتتجاوز الواقع بمراحل، وهذا ما جعلني أعتنق الوساوس وأرتديها كوشاح.. فهل يُعقل أن أصحو غداً على أمنياتٍ محقّقة، وفزعٍ قد اندثر!

كم أتوق إلى ذلك، فقلبي صغيرٌ لا يملك أن يحتمل غربةً أو فراقًا أو فَقداً..

خلدتُ إلى النوم بعد نهارٍ حافلٍ بالشَتات، مُلتبسٍ ومُستعصٍ على الفهم. وبالطبع فإنّ ليلاً تلاه لن يكون أفضل حالاً، فقد تراقص فيه الأرق وتسربل النعاس في ثوب كابوسٍ بغيض.

«رأيتُني في صحراء بلا حدود والرمال حولي تتطاير حاجبةً عنّي الأفق.. أكاد أسمع صوت أبي ونداءَ أمّي دون أن أراهما.. فجأةً لمحتُني وسط مجموعةٍ من الخيم داكنة اللون وعُصبةٌ من البدو مجتمعة أمام موقدٍ من الحطب تتباحث في أمورها، وما لبثت الشجارات أن احتدمَت وارتفعت الأصوات وعلا الصراخ.. وإذا بأمّي تقف بينهم وفي يدها خنجرٌ من نحاسٍ

تلـوّح بـه يمنـةً ويسـرة، متوعّـدةً أيّ شـخصٍ يفكّـر في الارتحـال بـالموت المحَتَّم.. وعلى حين بغتة، اختفى الجميع دفعةً واحدة، وعثرتُ على نفسي في فزعٍ وسط ظلمةٍ وزمجرة ذئابٍ متوحّشة.. رحت أنادي أبي وأستغيث، حتى شعرتُ بلهاثٍ قريبٍ لفح جبهتي بسخونةٍ وبلُعابٍ بلّل خدّي وحمل إليّ شعورَ غثيانٍ مُريع».

صحوتُ باكراً مبلّلةً بالعرق من أعلى الرأس إلى أسفل القدمين. كنتُ وحيدةً في غرفة النوم، ولا أثر لأمّي وأبي.. عصف بي فزعٌ مُريع، وقفزتُ من سريري مُلتاعةً وعلى شفا نحيب!

عندما ولجتُ إلى الصالة، لمحتُ أمّي في مكانها المعتاد.. تراءت لي من البعيد في الفناء الخلفيّ للبيت تغسل الملابس في الوعاء المعدنيّ الكبير. سكنَت روحي قليلاً، فتوجّهت ببطءٍ إلى الخارج في سعيٍ للبحث عن أبي. وأمام باب الزريبة رأيته يسكب الماء من دَلوٍ كبيرٍ لإزالة الروث المتراكم، إفساحًا في المجال أمام خروج الماشية دون أن يؤدّي ذلك إلى التصاق هذه المخلّفات بالأرض بحيث يصبح من الصعب إزالتها.

برغم راحةٍ لفحَ نسيمُها روحي، إلّا أن اضطرابًا استمرّ يحفر بصماته على جدار القلب ويضعني في حالٍ من التشرذم الذي شوّه سكون ملامحي الطفوليّة.

لا أدري إن كان ما حصل مجرّد سحابةٍ عابرة، أم أنّ في الأيام خبيئة قد تعود لتطفو على السطح حاملةً بين ثناياها خوفًا وبؤسَ حال!

***

هـو صـباحٌ غريـبٌ طـرق بـاب غفـوتي وانتشـلني مـن حلمـي ليضـعني في مواجهة واقعٍ عسير القبول.

أتتني أمّي ذات توقيتٍ مُبكِّر وبين يدَيها ملابسي. كنت ما أزال بين صَحوٍ ونومٍ وغير قادرةٍ على فهم ما يجري. طاوعتُ والدتي مُكرَهةً على تغيير الثياب، وعندما حملَتني وجدتُني أضع رأسي على كتفها لأغرق في النوم من جديد.. لم أستيقظ سوى على صوت محرّك سيارةٍ يهدر بوحشيّة محطّمًا سكينةَ السبات! وأنا على كتف أمّي تسلّل نورٌ خافتٌ إلى عينيّ، وشيئًا فشيئًا بدأت الرؤية تتّضح أكثر لأفهم أنّنا على عتبة رحيلٍ، بعَودةٍ قد تتراءى مشَوّهةَ الاحتمال!

رأيتُ على الأرض حقيبة سفرٍ قديمةٍ لطالما لمحتُها منتصبةً بكامل اهترائها قرب خزانة الملابس في غرفة النوم. بدت منتفخةً من فرط ما تمّ حشوها بأغراض لا أعرف لها هويّة، حتى كادت تتمزّق نتفًا لولا أربطةٍ لُفّت حولها بطريقةٍ متشابكة في تحدٍّ لانفجارٍ محتملٍ قد يبعثر ما تمّ جَمعُه بداخلها.

صرختُ بملء رفضي واستيائي، ورحت أحاول التملُّص من حضن أمّي التي استجابت مستسلمةً ودموعُها تسيل فيضًا على وجنتيها.

عندما لامست قدماي الأرض عدَوتُ نحو أبي المنهمك في رَصف بعض الأغراض داخل السيارة. لم يُعِر ضجيجي بالاً واستمرّ في صراعه مع كراكيب تعاندُه وتأبى الاصطفاف.

صرتُ أشدّ سرواله بعنفٍ مصدرةً زمجرةً توحي بمقدار غضبي ونقمتي وعَجزي!

«لا أريد الرحيل.. فلنبقَ هنا.. أرجوكَ أبي لن أشتكي مطلقاً من الزريبة وما تثيره من مخاوف لديّ.. وأنتِ أمّي أعدك أن ألتزم بتعليماتك ولا أَقْرَب من البادية مطلقا».

حاولتُ بهذه الكلمات أن أُثني والديّ عن فكرة السفر.. أن أُقنعهما أنّ قراراً بالرحيل لن يُسعدني مطلقاً.. ومن فرط براءتي ظننتُ المسألة ببساطةِ كلماتي وعفويّتها. لم أدرك أن وضعاً كارثيّاً ألمّ بالجميع وأنّ وطناً بدأ المشيبُ يتغلغل بين ثناياه ويصيب أهله بعَجزٍ وتيه..

أنجز أبي مهمّته في توضيب الأغراض داخل السيارة، ثمّ استدار نحوي وبكلماتٍ مُقتضبة قال: «تَرَف.. لا وقت لدلَعٍ وأمنيات.. كلّنا نرغب البقاء في أرضٍ نحن منها وهي كلّ ما نملك، لكنّ المسألة أبعد بكثيرٍ من تصوّراتك الطفوليّة وأمنياتنا البائسة.. الكلّ سيغادر، ولن يبقى هنا سوى ظلالنا وأحلامنا المهشّمة».

يا إلهي..

كلمات أبي على قسوتها، أعادت إلى ذهني صورَ ظِلّي، صديقي الوحيد.. لقد نسيتُه وسط جنونٍ صحوتُ عليه. كيف سأبتعد عن مكانه، ولمن سأتركه وليس له سواي!

هو رفيقي في يومي، وشريكي في حكايا وانتظاراتٍ نعيشها معاً!

ظِلّي.. هذا الرائع الذي لم يخذلني قطّ ولم يُخلف لنا لقاءً.. كثيراً ما بُحتُ له بفزعي وأحلامي، ووحده من هوّن عليّ وَحدتي عندما غزَتني رمال الصحراء وغرقتُ في التيه.

رحتُ أصرخ بأعلى صوتي، وأركض نحو وجهةٍ لا أعرفها.. ناديتُه كثيراً رغم معرفتي باستحالة حضوره في هذا التوقيت الصباحيّ.. شعرتُ بقلبي كتلةً تضغط على صدري وبأنفاسي تضيق وتضيع وسط زفراتٍ وتنَهدات.

«سنركب السيّارة وستقِلُّنا قريبـًا من الحدود.. سنقطع مسافةً كبيرة، وهناك سنترجّل مع أغراضنا لنلتقي حشداً من أهالي القرية ممّن حسموا أمر رحيلهم أيضـًا.. وبعون الله سنجتاز الحدود بأقلّ الخسائر الممكنة».

عبارات قالها أبي موجّهـًا الحديث لأمي التي أسرعت نحوي ممسكةً يدي بشدّةٍ وضاغطةً على كفّي بقسوةٍ لم أعهدها بها من قبل.. وقبل أن أعترض، كانت قد بدأت بسحبي خلفها كشاةٍ مشاكسة تأبى الانصياع لراعيها.. وفي مقاومةٍ فاشلةٍ منّي، صارت يدي الطّليقة تتشبّث بالزرع الذي نما في فناء المنزل، والذي لم يحتمل حالة الشَّدّ والجذب تلك فأخذت أوراقُه تتناثر نتفـًا فوق التربة، ومعها لمحتُ بقايا طفولتي تتبعثر رذاذاً غير قابلٍ للالتئام..

تكوّمنا داخل السيّارة بين الكراكيب وعندما بدأ هديرها يضجّ في رأسي من جديد في إنذار للانطلاق، أخرجتُ جسدي الصغير من النافذة ورحت بملء حنجرتي أبكي وأنادي ظلّي حتى غاب صوتي بين صخبٍ وتعبٍ وأنين.

أصعب ما يمكن أن يحدث لنا هو العجز.. أن نقف مكاننا غير قادرين على توجيه دفّتنا كما نُحب. أن نكون مضطرّين على الانصياع لتيارٍ يجرف في مسيرته أحلامَنا دون أن نملك حتى رفاهية الاستنكار.

ساعةٌ من الزمن عبرَت، والسيارة في سيرها المتواصل ترتجّ حينـًا وتترنّح أحيانـًا أخرى.. شعورٌ بالغثيان جعلني ألتزم الصمت طوال الطريق مع رغبةٍ بالنحيب تملّكت منّي، لكنّها ظلّت مستعصيةً على التحقيق.

هي المرّة الأولى التي أبتعد فيها عن القرية ومحيطها، فلم يسبق لي أن تخطّيتُ عتبة منطقتنا سوى لزيارة إحدى القريبات مع أمّي في منطقةٍ مجاورة لا تستغرق أكثر من نصف ساعةٍ مشيـًا على الأقدام، أو للغوص قليلاً في رمال البادية برفقة أبي لإنجاز بعض الأعمال التجاريّة في أقرب «مضارب» للبدو.. تلك التي نلمحها من أعلى التلّ حيث (كان) يجثو بيتنا بأمان!

انتقلنا من قريةٍ إلى أخرى، وخُضنا مساحاتٍ جرداء تتكاثر فيها الصخور ولا يقطع رتابَةَ بياضها سوى الطريق الإسفلتيّ. صرنا ندخل في بساتين ونخرج في فراغٍ حتى كادت روحي تستغيث من فرط الضجر.

كانت أمّي شاردةً في مشاهد بعيدة عندما اجتاحتني التساؤلات: «أمّي.. ماذا سيحصل للماشية التي تركناها أسيرةَ الزريبة؟ كيف ستعيش ومن أين ستحصل على طعامها؟».

استدارت أمّي نحوي وفي عينَيها بريقُ دمعٍ لم يَخْبُ:

«لا تقلقي صغيرتي، بعض رجال القرية – ممّن قرّروا المكوث – سيقومون بنقل الماشية إلى زرائبهم في أقرب وقت».

جوابٌ مختصرٌ من أمّي، تلاه شرودٌ جديد..

«حسناً أمّي.. والخضار التي تعبتِ في زراعتها ماذا سيحصل لها؟».

في تضجّرٍ واضح مسحت أمّي جَفنَيها بأطراف أصابعها، وقالت دون أن تنظر نحوي: «لا أعرف.. ولا يهمّني ما سيحدث لها.. فلتذهب إلى الجحيم».

خشيتُ أن تكون أسئلتي هي من شوّهَت مزاج أمّي، ورغم ذلك لم أتمكّن من تخطّي أسئلةٍ ضجّ بها رأسي المنهك..

«متى سنعود إلى بيتنا؟».

وقع هذا السؤال على أمّي كالصاعقة.. وللمرّة الأولى ألمح في وجهها ملامح غريبة لم أعهدها بها من قبل: عينان جاحظتان، جبينٌ مقطّبٌ لدرجةٍ تُخفي معالمه، احمرارٌ شديدٌ في الوجنتين وثغرٌ شُرّعت شفتاه لتفسح المجال أمام صيحاتها البائسة..

«كفى.. فلتصمتي، وإيّاك أن تطرحي أيّ سؤالٍ مرّةً أخرى وإلّا ستنالين عقاباً شديداً».

صفعَني الجمود وتصلّب خفقي بين الضلوع. ومن فرط الدهشة انكمشتُ على نفسي وسرحتُ بناظري في المشاهد العابرة أمامي دون أن ألمح أيّاً منها.

لا أعلم مقدار الوقت الذي انقضى ونحن في ارتحالٍ، لكنّه بالتأكيد زمنٌ بلا روح.. وقتٌ لا طعم له سوى مذاق مرارةٍ وحنظل..

حتى السائق بدا في ذروة الحزن واليأس.. ربّما هي العدوى الانفعاليّة التي تجعل مشاعر فردٍ تستحيلُ حالةً عامّة فيحاكيها الجميع ويغرقون في تلابيبها.

من وقتٍ لآخر كنا نتوقّف في استراحةٍ صغيرة، نقضي فيها حاجةً بين الأعشاب أو خلف الصخور، ثمّ نكمل مسيرتنا على أمل الوصول إلى مُبتغانا دون عراقيل.

في الواقع، لم أفهم كلمة عراقيل التي تردّدت على مسمعي كثيراً طيلة سفرنا، ولم أدرك أيّ نوعٍ من المشاكل يمكنها أن تعترضنا وتمنع وصولنا إلى ما يُسمّى ب «الحدود» غير التعب أو عطلٍ مفاجئٍ في السيّارة القديمة التي نستقلّها!

لكنّني فيما بعد فهمتُ أنّ لُطفَ الإله وحده هو من حجَبَ عنا مخاطرَ ما كانت لتَرِدَ فكري البريء، كقصفٍ ينال منّا أو دوريّةٍ مسلّحةٍ تختطفنا أو حتى تقضي علينا..

كنتُ بريئةٍ بدرجة ساذجة.. وكانوا أشراراً بدرجة شياطين.

***

كان الليل قد انتصف عندما توقّفت السيّارة بشكلٍ مباغت!

قال السائق أنّ الوقود قد نفد، وأنّ مسافةً طويلةً قطعناها كانت كفيلةً بإيصالنا إلى هذه المأساة خصوصاً أنّه اضطر في أحيانٍ كثيرةٍ إلى الخروج عن الطريق العام والسير في طرقٍ وعرةٍ داخل البساتين لتفادي دوريّات محتملة، الأمر الذي جعلنا نتخطّى محطّات الوقود ونعجز عن التموين..

استشاط أبي غضباً وحيرة، وملأ الفضاءَ لعناتٍ وشتائم، حتى خِلتُني لمحتُ بعض النجوم يخفت بريقُها في احتجاجٍ على كلماتٍ شوّهَت هدأة المكان.

نظرتُ من نافذة السيارة، فلم أرَ سوى الكثير من أشجار الزيتون واللوز.. نحن وسط البساتين، ولا نعلم المسافة التي تفصلنا عن أقرب قرية. أمّا عن الحدود فقد أكّد السائق أنّه مازال يلزمنا ما لا يقلّ عن الساعتين في السيارة حتّى نصِلها، ممّا يعني أنّنا فعليّاً في وضعٍ كارثيٍّ..

عندما استعاد أبي شيئاً من سكونه، قام مع السائق بدَفع السيّارة داخل البستان إلى جانب الطريق، في محاولةٍ لإخفائها عن النظر تحسُّباً لأيّ طارئ قد يستجدّ في المنطقة.

الآن نحن بمفردنا، نمكث في ركننا داخل السيّارة وسط الكراكيب، وعواء ذئابٍ جائعة يتردّد صداه محطّماً صمت يأسنا..

وحدي من تجرّأتُ على كسر الخوف من مجهولٍ ينتظرنا، وبصوتٍ متردّد سألت: «إلى متى سنبقى هنا أبي؟».

كان لسؤالي وَقعُ دهشةٍ ويقظةٍ بعد غفوة! الجميع بدا مستغرباً فكأنّي أتحدّث عن أمرٍ لا يعنيهم ولا يرَون فيه أولويّة! ما بالهم، ولمَ كلّ هذا اللاحضور، بينما من المفترض أن نكون على أهبّة الاستعداد في سَعيٍ للعثور على حلٍّ يلائم ما نحن فيه من ضياع!

برهةٌ من الزمن تجلّت كافيةً ليحسم أبي قراره ويقول: «حسناً.. لا نستطيع الانتظار طويلاً فربّما تُقفل الحدود.. لا أحد يمكنه التنبّؤ بما سيكون.. لذا، علينا أن نمضي سريعاً وستكون الأقدام وسيلتَنا في العبور.. سنحمل من الأغراض ما نقدر عليه فقط، وسنترك ما تبقى هنا».

فتحت أمّي باب السيارة في حركةٍ احتجاجيّة واضحة، وبملء صوتها صرخت: «ألا يكفينا ما خلَّفناه وراءَنا من أحلام.. تريدنا أن نتخلّى أيضاً عن هذه الكراكيب التي لا تُغني ولا تُسمِنُ من راحة.. أليس هذا بالكثير؟».

بلامبالاةٍ مستفِزّةٍ فتح أبي كيساً ضخماً جاثياً على مقعد السيارة، وراح يقلّب فيه في محاولةٍ لانتقاء ما قد يَلزم. أنا أعرف والدي جيّداً وأفهم أنّ لامبالاته المصطنعة ما هي إلّا إشارة إلى بركانٍ متأجّج بداخله، يحاول إخماده بافتعال البرود.

ووالدتي أيضاً، أدرك تماماً أنّها مهما ثارت وأزبدت ستنصاع في النهاية لواجبٍ عليها أن تؤدّيه. وهذا ما حدث فعلاً، فقد فتحت حقيبة السفر بصمتٍ تامّ وأخذت تفرز الأغراض بين ضروريّ وأكثر ضرورة.. أمّا أنا فسرَحتُ في عَدّها حتى غرقتُ في سباتٍ ضَحل الأحلام.

صحوتُ فجأةً على صوت أمّي تناديني وتمسح بيدها على جبيني في سَعيٍ لحَثّي على الاستيقاظ السريع، وهكذا فتحتُ عينيّ على مشهد الرحيل من جديد. ولكن في هذه المرّة تجلّت الرؤية أكثر مأساويّة وأنا أُعاين أبي وقد حمل على ظهره وكتفيه أكياساً محشوةً.. وحقيبةُ الأغراض المهترئة ما تزال جاثيةً على الأرض في انتظار يد أمي لتنتشلَها رغم حَملها وبطنها المنتفخة وتعبها الفادح.

«هيا صغيرتي، علينا أن ننطلق.. ستكونين مضطرةً إلى السير، فليس بإمكاننا أن نحملَك وكل هذه الأغراض تُلقي بثِقَلها علينا».

وقفتُ بكامل نعاسي، وتدحرجتُ ناحيةَ أبي علَّه يُشفق على ضعفي ويُريحُني من عناء مسيرٍ لا أملك طاقةً لاحتماله، لكنّه لم يَعِرني انتباهاً وبصوته الخشن صاح بنا في دعوةٍ لبدء المسير. وقف السائق ملوّحاً بيديه، وصوتُه يعلو بالدّعاء لنا بالسلامة والأمان..

كنتُ حتى هذه اللحظة غير مدركةٍ لما يجري من أحداث ومدى خطورة الوضع الأمني في بلادنا التي تنبض خوفاً. وفجأةً أطلّ الرّحيل من نافذة الكلمات، وصار الكلّ يتغنّى به.. وعلى حين بغتةٍ بات واقعاً نعيشُه ويرسم خريطةَ حياتنا. لستُ بوارد طرح مزيدٍ من التساؤلات على والديَّ، فما نحن فيه لا يحتمل حتماً مزيداً من الإرباك النفسيّ.

وهكذا انطلقنا نمشي في سواد الليل: أميّ ببطنها المنتفخة مع حقيبةٍ تقارب وزنَها، وأبي بالعديد من الأكياس الممتلئة والتي تكاد تغطي جسده

بالكامل وتحجبه عن النظر، وأنا بكامل خَيبتي وحزني وشَتات ذاتي بين ما كان وما يمكن أن يكون!

المسيرةُ طويلةٌ، والتعبُ كبيرٌ ولا مجال لأيّ احتجاجٍ منّي، ذلك أنّ عذاباً واضح المعالم فرض سلطته على والديّ وأيّ محاولةٍ للتذمّر ستكون هزيلةَ المعنى مقارنةً بما يتكبّدانه. لذلك، آثرتُ الصمت، ورحتُ أتدحرج تارّةً بجانب أبي وتارّة أخرى قرب أمّي دون أدنى إشارةٍ منّي لألمٍ أو تعبٍ أو خوف، رغم أنّ حالي كان مزيجاً من كلّ ذلك.. وأكثر.

الساعة تقترب من الواحدة صباحاً، وأنا بفائض نعاسي أترنّح في المسير حتى أتت اللحظة التي قرّر فيها أبي أن نستريح قليلاً. كانت دعوتُه بمثابة طَوق نجاة فارتميتُ فوراً على الأرض وأخذَتني الإغفاءة دون أيّ مقدمات.

صحوتُ بعد وقتٍ قصير على ألمٍ في معدتي، التي أخذت تُصدر أصواتاً في إشارةٍ إلى جوعٍ ضرب ثناياها. منذ البارحة لم نتذوّق شيئاً سوى الماء. انشغلنا في استعدادات الرحيل، وبؤسُ الطريق شَوَّشَ أيّ اهتمامٍ آخر.

«أمّي.. أنا جائعة».

تبادلَت والدتي نظراتٍ مُربَكَة مع والدي، ثمّ دنَت منّي برقّتها المعهودة، وقالت: «حسناً صغيرتي.. ولكن لن أتمكّن من إعطائك كميّةً كبيرة، علينا أن نقتصد في الزّاد تحسّباً لقادمٍ مجهول».

ثمّ فتحت كيساً مربوطاً على خصرها وناولَتني قطعة خبزٍ محشوة بجُبنٍ صنعَته بيدَيها، عندما كنّا هناك في بيتنا قبل الرّحيل..

أمّي سيّدةٌ ماهرةٌ في كلّ شيء، حتى الأطعمة تتفنّن فيها وتبتكر أنواعًا جديدة لطالما وضعَتني في حال انبهار.. وعندما يتعلّق الأمر باللبن والجبن، فالكلّ يخرج من المنافسة وتظلّ والدتي متربّعةً على العرش. براعتُها في هذا المجال سببُها اقتناؤنا لمختلف أنواع الماشية، وبالتالي حصولنا على كميّات من الحليب كنّا نبيع بعضها، وتتولّى أمّي صناعة الجبن واللبن ممّا تبقّى لدينا.

أيّامٌ جميلةٌ تلك التي انقضَت، كنتُ خلالها طفلةً من مرَح، أعيش طفولتي ب تَرَفٍ وألتقي أحلامي كلّ يومٍ متجسّدةً في تفاصيل بسيطة وفي أمنياتٍ مُحقَّقة..

أخذتُ قطعة الخبز وتناوَلتُها بشَرَه. لم أشعر بالشّبع إلّا أنّ انقباضًا أصاب معدتي فجأةً وأنا أرى أمّي وأبي يتقاسمان قطعةً صغيرةً جداً من الخبز الجافّ رغم أنّ تعبَهما يتجاوز حتمًا ما أنا فيه بعشرات المرّات. ربع ساعةٍ من الرّاحة جثَونا خلالها على العشب المبتلّ وأصواتُ حيواناتٍ تصدح من كلّ اتّجاه. كان القمر شبهَ مكتملٍ، فراح نوره يُضفي شيئًا من الدّفء على أفئدتنا مخفّفًا وطأةَ خوفنا من عتمةٍ أنشبَت مخالبها في الروح.

ما إن انتهينا من وجبتنا البائسة حتى أعلن أبي ضرورةَ إكمال المسير، خوفًا من مخاطرَ بدأت تسيطر على تفكيره حتى استحالَت هواجس غير قابلةٍ للإغفال.

مُكرَهةً وقفتُ ورحتُ أجرّ جسدي بعُسرٍ.. في هذه المرّة قرّر أبي أن نخرج عن الطريق الإسفلتيّ ونتقدّم داخل البساتين حيث التربة والحجارة والنباتات الشائكة والحشرات التي أهابُها..

تغلغلنا داحل الحقل وصرنا نتقدّم ببطءٍ شديدٍ بسبب وعورة المكان، وتحت وطأة نعاسٍ اجتاحت سحابتُه فضاءَنا وأفرغَت علينا كامل جنونها..

أمّي مسكينة جداً.. إنّها الأكثر إنهاكًا بيننا، فهي على وشك الدخول في شهرها السابع لذلك تبدو حركتها ثقيلةً جداً، ورغم ذلك تحمل الحقيبة الكبيرة وتلُّف كيسًا للطعام حول خصرها وتسير دون أن تنطق بكلمة احتجاج أو تُصدر تأوّهًا أو أنينًا. لها طاقة احتمال عظيمة وصبرٌ غير قابلٍ للنفاذ.. وجدّتي قبل وفاتها حدّثَتني كثيراً عن أيام سوداء عاشتها أمّي نوف في بداية زواجها من أبي صقر وقَبِلَتها برضا تام قبل أن تتحسّن أحواله عقب انبعاثي للحياة. لم تعرف استقراراً في المكان، فتنقّلت بين منزل والدها حينًا ومنزل والد صقرحينًا آخر وعملت بالخياطة لتساعد زوجها ولا تكون عبئًا على من يستضيفها.. حتى بعد استقرارها في منزلنا الذي ودّعناه، استمرّت في حياةٍ لا تسكنُها الرّاحة، من مساعدة أبي في حرث الأرض وزراعتها، إلى الاهتمام بالزريبة والمواشي والتفرُّد بهذه المهمّة في فترات سفره، إضافة إلى عملها في المنزل والاعتناء بي، أنا الطفلة الشّقية جدّاً..

سِرنا باحتراسٍ شديد، فالعتمة لم تكن قد انقشعَت والتربة المبلّلة جعلت خطواتنا تفقد ثَباتها. فجأةً بدأت الأرض تفقد استواءها وتتّجه نحو الانحدار شيئًا فشيئًا. تشبَّثتُ بسروال أبي الذي كاد يتمزّق من فَرط الشّد والجَذب. شعرتُ به مُشفِقًا على حالي ومتعاطفًا مع تعَبي دون أن يملك وسيلةً لتخفيف وَطأته. جلّ ما استطاعَه هو الالتفات نحوي كلّ حينٍ مع ابتسامةٍ مُفتعَلَةٍ تحمل بين ثناياها عظمةَ العطف الأبويّ..

كم أنا محظوظةٌ بوالدَيّ.. بهما أستقوي وأفيض أمانًا، ومعهما لا أخشى أيّ خَطبٍ، وأستشعر نوراً يتوهّج به قلبي الصغير..

***

مشهدٌ بديعٌ تجلّى أمامنا مع بزوغ الشمس. فجأةً عثرنا على ذاتنا في مكانٍ جمع روعة العالم بين حناياه. كنا نقف أعلى منحدرٍ تسوّرُه بكثافة أشجار السرو والشربين بشكلٍ دائريّ. وفي الأسفل تلتمع مياهُ بحيرةٍ نبتت على ضفافها زهورٌ ملوّنةٌ لم يسبق أن شاهدتُ بجمالها. طبيعةٌ صافيةٌ لم تشوّهها يد إنسان.

وقفتُ بكامل تعبي وانبهاري أرقُب الوادي وأصغي لصوت الطبيعة بخشوع.. فترةٌ وجيزةٌ من الهدوء الروحيّ، دعانا أبي بعدها إلى نزول المنحدر بهدف اختلاس استراحة قرب البحيرة، نتناول خلالها طعامنا، ونغتسل من عناء طريقٍ أنهكَت أجسادنا.

النزول لم يكن بالسهولة التي قدّرناها، فالطريق منحدرة كثيراً والتربة مبتلةٌ تزيد من احتمالات التزحلق. لكن وجود أشجار مختلفة بين سنديانٍ وبطمٍ ساعدنا على التشبّث بجذوعها وحال دون حدوث كارثة لأحدنا..

البائسةُ أمّي، هي من عانت وتألّمت من ثِقَلٍ تَحمِله في جوفها وعلى كتفها.. صارت تلهث كثيراً كلّما تقدّمنا نحو البحيرة، وتئنُّ بصمتٍ حتى لا تثير انتباهنا. لمحتُها أكثر من مرّةٍ تضع يدها على ظهرها وتضغط بأسنانها على شفتها السُّفلى قي محاولةٍ لكبت الوجع، وما إن وصلنا إلى مقصدنا حتى ارتمَت على الأرض في وضعيّةٍ شبه جنينيّة وراحت تتأوّه بصوتٍ منخفض. أسرعتُ إليها أحتضنُها، بينما أتى أبي بوعاءٍ ملأَه من مياه البحيرة وأخذ يرشه رذاذاً ويمسح به وجهها من عرقٍ ملأ جبهتها، واستمرّ في ذلك حتى بدأت ملامحُها تستكين شيئًا فشيئًا.

جلسنا ثلاثتنا في صمتٍ جنائزيّ، لم يشوّه امتدادَه سوى تنهيداتٍ لفَظَتها أرواحُنا بين حينٍ وآخر. لو أنّ وجودي في هذا المكان جاء في توقيتٍ مختلف، كنت استَحَلتُ فراشةً وجمَعت زَهوَ المكان بين الضلوع وثنايا الروح. وظِلّي الذي اشتَقتُه، لم أكُن لأَسعد إلّا وهو معي يُلاعبُني فلا نترك بقعةً إلّا وننثر حكايانا بين جنباتها.. ولكن، لا نحن في أوانٍ ملائم لذلك، ولا ظِلّي بات رفيقًا لي.. هجرتُه مُكرَهةً، وتركتُه في أرض أحببناها ولهونا فوق تربتها معًا، وتبادلنا فيها حوارات طفوليّة وتأمّلاتٍ عن مستقبلٍ وفرحٍ وأمنيات..

مُحقٌّ أبي فيما أسَرّه قبيل رحيلنا.. لا وقتَ للأحلام هنا..

ربّما أبدو صغيرةً على استيعاب هذا الكلام، لكنّي فعلاً بدأتُ أستشعر معناه، وأعيش حالةَ قلقٍ من مجهولٍ ينتظرنا خلف حدودٍ تفصل أرضنا عن عالمٍ آخر، ربّما يصبح مرتعًا للأمنيات..

هكذا أخبرني أبي عندما سألتُه ونحن ما زلنا في بداية الطريق. حاولت أن أعرف سببَ اختلاف الأرض الجديدة – خلف الحدود – عن أرضنا، فأجاب بغَصّةٍ وحيرة: «الاختلاف كبير.. هناك يجثو الجَمال في كل الزوايا وعلى الطرقات، في المدن والقرى، وفي أدقّ التفاصيل وأبسطها.. هناك سنعثر على الاستقرار في مكانٍ سيحتضن غُربتنا ويعطينا ما عجزت أرضنا عن فعله.. ربّما سنعيش نمطَ حياةٍ مختلف عمّا اعتدنا عليه، لكنّه سيقدّم لنا الأمل بدل أن يقدّمنا قرابين على مذبحة الوطن.. مكانٌ ستورِقُنا ظلالُه، يحتوي أحلامنا، ويترك أمامنا فرصةً لإعادة هيكلة أرواحنا».

وقتـذاك صـفَرَت أمّـي طـويلاً، وضـحكت باسـتهزاءٍ فاضـحٍ وقالـت: «فلتذهب الغُربة إلى الجحيم.. لا حضن كأرض الوطن ولا إمكانيّة للحلم إلّا فوق تُربته.. فمن سيلتفت لغُرباء لا يملكون سوى حزنٍ وبؤسٍ وأوهام! عزيزتي تَرَف لا تصدّقي أنّ هناك ظلّاً بديلاً قد يحتويكِ ويورِف يأسك غير الوطن.. لاوجود لظلّ بديل مطلقاً، صدّقيني.. لا ظلالَ بديلة!».

قبَعنا مكاننا ما يقارب الساعة، أراد والدي خلالها أن يمنح والدتي فرصةَ استرخاءٍ تُبعد عنها شبح وَهَنٍ يكاد ينال منها ومن الجنين، رغم توجّسٍ من تأخير قد يُفقدنا الفرصة الوحيدة للفرار من جائحةٍ اجتاحت الوطن بمن فيه.. تناولنا قليلاً من الطعام ظفرتُ فيه بقطعة جبنٍ بينما اكتفى أبي وأمي ببضع كسرات من الخبز..

عندما بدأت الشمس تنسج خيوطها وشاحاً يُدفئ القلوب، لملمنا أجسادنا وما انتثر منّا من كراكيب، وعُدنا لمسيرتنا التي لا ندرك لها نهاية. وبحسب توصيات أبي، سنستمرّ في المشي داخل البساتين ضماناً لحريّتنا في التنقّل، وستكون البحيرة دليلاً مؤقتاً نستهدي بضفافها حتى لا نضلّ الطريق، فالغابة صارت أكثر كثافة والوجهة باتت ضبابيّة..

تقدّمنا بخطوات مرتابةٍ فلا يقين عند مغادرة الوطن ولا أمان. بدت أجسادنا مكبّلةً بسلاسل من حيرةٍ ومكابدة ونعاس، ورحنا نترنّح في سَعينا دون أن نمتلك جرأةَ النّوم وسط ما نعيشه من قلق المكان والطريق والمجهول الآتي..

«أبي.. أريد أن أنام، ما عدتُ قادرةً على المتابعة».

عبارةٌ لم أكد أنطقها حتى شعرتُ بدوارٍ خفيفٍ. صرَخت أمّي من فزعٍ، وعندما التفَتَ أبي نحونا كنت على وشك أن أهوي على الأرض لولا تدخلّه السريع. بدأ انتباهي يتلاشى شيئًا فشيئًا، وقبل أن أغيب تمامًا عن الوعي تيقّظتُ إلى وجودي مسترخيةً على كتف والدي الذي حملني وأكمل المسير..

استيقظتُ على صوت أمّي تصرخ.. لا أعلم مقدار الوقت الذي انقضى وأنا في إغفاءةٍ تشبه الغيبوبة، ولكن يبدو أنها مدّةٌ طويلةٌ فالشمس توسّطت السماء وغدا حرّها شديداً.. أنزلني أبي سريعًا عن كتفيه وأرسى الأكياس جانبًا، ثمّ عدا باتّجاه أمّي التي سقطت على الأرض بعشوائيّة. رأيتها في وضعٍ بائسٍ لم أعرفها به من قبل.! إنها في قمّة الإجهاد وربّما المرض. وجنتاها محمرّتان وعيناها غائرتان، واستحال وجهها بلونٍ بالغ الشحوب. أخذت تتأوّه بصوتٍ عالٍ وتضغط على بطنها تارّةً وعلى ظهرها تارّة أخرى.

«حرارتها مرتفعة جداً.. ولا نملك شيئًا يساعدنا على إسعافها.. يا إلهي ماذا نفعل!».

ما إن لفظ أبي هذه الكلمات حتى اجتاحتني عاصفة بكاءٍ هوجاء، وراحت دموعي تنساب بغزارةٍ مخلّفةً فوق وجنتَيّ وشمًا من خطوطٍ سوداء، هي مزيجُ عَبَراتٍ وترابٍ وغبارٍ التصق على وجهي وكامل الجسد..

«لا يمكننا إغفال تعبها.. علينا أن نعثر على مكانٍ مناسبٍ تستريح فيه أمّك يا تَرَف وتستردّ بعضًا من عافيتها».

لا أعرف كيف يمكن أن نعثر على هذا «المكان المناسب» وسط هذه الغابة، وفي غياب جميع مقوّمات الحياة البشريّة!

لم أَقوَ على النقاش من شدّة القلق، فجثوتُ قرب أمّي في انتظار عودة أبي الذي غادرنا في محاولةٍ لتقصّي المكان وإيجاد ركنٍ يصلح لإيوائنا بعيداً عن أيّ خطر.

خوفٌ كبيرٌ استحكم منّي، واستحالَت وحدتي وَحشاً ينهش روحي ويسخر من ضعفي. استشعرتُ يُتماً مُريباً وأنا أُجالس أمّي التّعبة في غياب أبي الذي أجهل توقيتَ رجوعه.. ماذا لو طال غيابه وحلّ المساء؟ ماذا لو تعبت أمّي أكثر واحتاجَت تدخّلاً طبيّاً؟ هل أملك حسن التصرّف إزاء ما يمكن أن يعترضني من مشكلات؟

صرتُ أنشج في صمت، وأمّي بين أحضاني طفلةً من ياسمين.. شعرتُ بمسؤوليّتي تجاهها، هي التي طالما أحاطتني برعايتها العظيمة.. تذكّرت أيّاماً خَلَت خفّفت فيها أوجاعاً عصفت بي وداوَت مرضي مراراً وتكراراً. كانت تستمرّ لساعات متواصلة في وضع كمادات المياه الباردة على جبيني دون كللٍ منها، حتى تطمئنّ لانخفاض حرارتي، فتهدأ وتستكين.

لماذا لا أفعل مثلها إذاً؟ ها هي المياه قريبة، وحقيبة الملابس فيها الكثير من قطع القماش التي قد تصلح لمهمّتي.. إذاً فلأمضِ في عملي سريعاً..

انقَضَت ساعةٌ من الزمن، وأنا أرفع كمّامةً عن جبين أمّي لأضع أُخرى. دأبتُ على القيام بذلك حتى صارت تتنفسّ بعمق وتتقلّب في إغفاءتها. ولم

يمضِ وقتٌ طويل إلّا وتمكَّنَت من فتح عينَيها وراحت تتأمّلني مع ابتسامةٍ منهَكةً على ثغرها.

«فخورةٌ بكِ صغيرتي».

عندما همست أمّي بهذه الكلمات، شعرتُ بحبورٍ ينسلّ كالدّم في شراييني ويعيد إلى نبضي الحياة. انتفَضتُ من مكاني ورحتُ أتراقص وأدور وأضحك بصوتٍ مرتفعٍ، ثمّ ارتميتُ بين أحضانها وغرقتُ في الدموع.

عندما رجع أبي من جولته الاستكشافيّة وقف مشدوهاً بثغرٍ مفتوحٍ وعينين جاحظتين.. صار يتأملّني وأنا أجثو في حضن أمّي أصغي لغنائها وهي تُمشّط شعري بأطراف أصابعها.

هل أنتِ بخير عزيزتي؟!

هذه المرّة تهادى صوت أمّي رقيقاً رغم تعبه، مؤكّدةً لأبي مقدار دهشتها من إرادتي وذكائي، ووصفتني بالفتاةٌ المميّزة والابنة الرّائعة.

سعيدةٌ أنا بوالدَيّ، وفخورةٌ بانتمائي لهما.. لكنّي في خشيةٍ من الآتي، وقلقةٌ من مجهولٍ ينتظرُنا خلف عتبة الوطن.. لا أعرف كيف يمكن لغُربةٍ أن تسلبنا ظلالاً تورفنا كما قالت أمّي، لكن، ومنذ تلك الكلمات، وأنا في توجّسٍ من فقدان ظلّي إلى الأبد.. عندما تركته في فناء المنزل، أكّدت والدتي أنّني لا بدّ وسألتقيه مجدّداً في مكانٍ ما، لكنّ اليقين لم يتسلّل إلى قلبي آنذاك. ليتني انتظرتُ حضورَه ليرافقَني في الارتحال، ليتني أملك سحراً يُرجع إلينا حياتنا بتفاصيلها التي أحببتُها وحتى تلك التي حملت إليّ وجعاً أو تمرّدا.. وليتنا نعود!

أثناء جولته الاستكشافيّة عثر أبي على شجرة سنديانٍ مُعمِّرة تصلح للاستظلال بغصونها العتيقة الممتدّة فوق مساحةٍ واسعة. وبالرغم من تحسّنٍ في وضع أمّي، إلّا أنّ استراحةً بدت ضروريّةً للجميع من أجل إعادة ترميم الذّات وما انتثَر من يقينها فوق أرضٍ وعرةٍ قطعناها، وتُربةٍ شوّهَت ملامحنا وأخفَت معالمَ كانت لنا قبل أن ننوي الرحيل.

في جلوسنا، حدّثنا أبي عن وجود غابة صنوبرٍ كبيرة على مسافةٍ غير بعيدة، وعن نهر صغير يتفرّع عن البحيرة عند حدودها الشمالية، وأنّ ضفّته على الأغلب سترسم طريقنا وتحدّد معالمها.

ووفقًا لحسابات أبي، فإنّ وقتًا قصيراً يفصلنا عن وجهتنا نحو الحدود الشماليّة التي كان يفترض بنا أن نجتازها منذ الصباح الباكر، لو أنّ السيارة لم تخذلنا في توقيت حاجة.

ما زال لدينا قليلٌ من الطعام، وكثيرٌ من الأمل قبل أن نبلغ الحلم. كلّما ظلّلَتنا غيمة الهواجس، يبدأ أبي بسرد حكاياتٍ عمّا ينتظرنا هناك، من أمنيات محقّقة لا محالة، فترتدينا حماسةُ المواجهة..

هي إغفاءةٌ قصيرةٌ سلبَت من زماننا القليل، لكنّها أعادتنا إلى وضعيّة الاتّقاد والتحدّي، فانطلَقنا بخطواتنا شبه الثابتة وبكامل الإصرار.

***

انطلقَت قافلتنا الصغيرة بمحاذاة مجرى النهر. وشيئاً فشيئاً بدأت الأرض تنبسط أكثر والأشجار تغدو أقلّ كثافة، حتى وصلنا إلى منطقة مكشوفةٍ للشمس يمتدّ فيها بساطٌ من الحشائش شديدة الخضرة. صوت خرير المياه زاد من بهاء المكان وألهب اشتهائي للّعب بعيداً عن منطقٍ يفرض من طفلةٍ مثلي أن تتخطّى عمرَها بأعوام وتتعاطى بجديّةِ أمّ وحكمةِ جدَّة. ركضتُ بكامل طفولتي ولهفتي، رغم تعبٍ سلَب من طاقتي الكثير. دنوتُ من النهر ورحتُ أسابق المياه في تدفقها، وشعرتُ بي فراشةً ربيعيّةً..

«فردتُ جناحَيّ وطرتُ عاليّاً جداً. لمحتُ غابة الصنوبر البعيدة، ومياه البحيرة بلونها الفضيّ الملتمع تحت أشعة الشمس. وهناك على الضفّة الأخرى للنهر ثمّة قطيع من المواشي يرافقه راعٍ يكاد يقاربني في السنّ.. كم أحب الماشية، وكم اشتقتُ زريبتَنا ومواشينا! حاولتُ في تحليقي الاقتراب من أحد الخرفان وهو يمدّ رأسه في محاولةٍ للشرب من النّهر، وإذا بنسيمٍ يهبّ على حين بَغتةٍ دافعاً بي نحو الأسفل لأجدني وسط المياه في شبه وضعية غرق».

صراخ أمّي وأبي تراءى لي بعيداً ورأسي يكاد يكون مغموراً بالمياه. شعرتُ بقوّةٍ تشدّني نحو الأسفل دون أن أقوى على مُغالبتِها، فأحجَمتُ عن المقاومة وأودَعتُ جسدي المياهَ في استسلامٍ تام.

أتاني صوت أمّي هذه المرّة عميقاً وهي تنشج، تندب، وتلطُم. كنتُ واعيةً لما يجري حولي دون أن أملك طاقةً للحركة أو الكلام. أردتُ أن

أواسي أمّي، أن أخبرها أنّني بخير، لكنّ جسدي بدا غريباً عنّي، وفقد صوتي النبض. شيءٌ ما ارتطم فجأةً بوجهي وحمَلَ جسدي على الثورة ضد السكون. أخذتُ بالتقلّب، وصارت جفوني تنتفض بعفويّةٍ حتى تمكّنتُ من فتح عينَيّ. رأيتُ وجهين أحدهما لأمّي وهي مفزوعة والآخر لأبي وهو في ذروة الحزن، وأحسستُ بالتراب ملتصقاً بجسدي من جَرّاء بللٍ ضرب أصقاعه مرّةً عند انزلاقي في النهر، وأُخرى عند انسكاب وعاءٍ من المياه فوق غفوتي في محاولةٍ من أبي لإحيائي من جديد. اجتاحني البرد وبدأتُ بالارتعاش، وعندما حاولتُ التقوقع على نفسي في محاولةٍ لاستدعاء شيءٍ من الدّفء تصاعدت هتافات من والديّ تنمّ عن بهجتهما بعودتي إلى الحياة.

عندما تيقّظت جميع جوارحي، عاتبَتني أمّي كثيراً على طَيشي وقامت باستبدال ملابسي بأخرى، وأمّا عن حذائي المسكين فاحتفظتُ به في قدميّ لأنّنا لا نملك أيّ بديلٍ بعد أن تركنا معظم أغراضنا في السيّارة التي خذلتنا ذات حاجة.

يا إلهي كم هي بعيدةٌ هذه الحدود، وكم هو كبيرٌ ذلك الحلم المعلّق خلف عتباتها.. هناك، سنستعيد ذاتَنا التي كانت، سنرمّم أمنياتنا، ونسترجع ما فقدناه فوق أرضنا وأكثر.. هكذا وعدني أبي، وأنا أثق به، فلطالما كان وفيّاً لعهوده معنا، ولم يضعنا مطلقاً في مواجهةٍ مع خيباتنا.

«أبي.. متى سنصل؟ تعبتُ كثيراً وفقدتُ صبري».

انتظرتُ ردّاً يُثلج قلبي، لكن أبي احتفظ بصمته، واستمرّت أمّي في سياسة الحياد حتى لا تُقحم نفسها في جدلٍ عقيمٍ حول وجوب ارتحالنا من عدمه. وأنا بينهما صرتُ حائرةً، أتأرجح بين سعادةٍ أرتجيها من السفر وحزنٍ يتملّكني من فَقدٍ لأرضنا ورزقنا وانتمائنا!

أشعر أنّ كلاهما على صواب.. فأبي محقٌّ بآماله العريضة وانتظاراته الربيعيّة، بعد أن بات الخوف جليسَنا، كما أنّ مقصدنا أرضٌ طيبٍ يعشقها الجميع ويرسمون حولها هالةً من دَهشةٍ وانبهار.. وأمّي أيضاً محقّة، فبيتنا وأرضنا وزرعنا وحتى زريبة مواشينا هي اختصارٌ لأحلامها التي تحقّقت بعد شقاءٍ طويل، وهي كلّ ما أرادَته من خبيئات هذا العالم الواسع.

عقباتٌ كثيرةٌ تعثّرنا بها في يومنا حالت دون بلوغنا الحدود في توقيتٍ نهاريّ. ها هو الغروب قد غشيَنا وما زالت أقدامنا تطأ التربة في طريقٍ موازيةٍ لمجرى النهر الذي استحال كساقية الرَّي التي كنا نتخطّاها أنا وأمّي عند زيارتنا لإحدى القريبات في القرية المجاورة.

«أنا تَعبة.. ولا أستطيع الاستمرار».

بهذه الكلمات حسمتُ أمري وتوقّفتُ عن السير في حركةٍ احتجاجيّةٍ.

«أبي.. لماذا لم نستعِض عن السيّارة المعطّلة بأخرى؟ كان بإمكاننا انتظار أيّ سائقٍ لنكمل معه الطريق».

تنهيدةٌ عميقةٌ نفَثَ بها والدي قبل أن يجيبني بحزم: «تقصّدتُ أن نرحل بصمت، ومن أقلّنا بسيارته صديقٌ لي وموضع ثقةٍ منّي. أمّا عن

سائقي الأجرة فأنا لا أستطيع أن أُودِع سرَّ رحيلنا لدى أيٍّ منهم، فربّما كلّفنا ذلك ما لا يُحمَد عُقباه.. نحن في أزمةٍ يا صغيرتي، وكثرٌ هم من سيحاولون استغلال الظروف لتحقيق مكاسب شخصيّة على حساب الآخرين.. لن تستطيعي أن تفهمّي مقصدي، ولكن عليكِ أن تكوني أكثر ثقة بخياراتي يا تَرَف».

مُحقٌّ والدي في كلامه، فأنا وحتى هذه اللحظة لم أتمكّن من إدراك ماهيّة الخطر الداهم الذي حملنا على هذا التيه..

مسلّحون، عمليّات خَطف واعتقال، منازل مدمّرة، كلمات سمعتها تتردّد مفادها أنّ ثمّة مارد مجهول الهويّة يتربّص بالأهالي في كلّ مكان من أرض الوطن، ولا وسيلة لصَرفه أو التخلّص منه سوى بالفرار السريع..

ولكن، كيف ظهر؟ ولماذا اختار أرضَنا دون سواها؟ وإلى متى سيستمرّ في إغراق تربتنا بالدّماء؟ أسئلةٌ صخب بها رأسي الصغير، وعجز الجميع عن تقديم إجابات تُرضي براءتي.

عندما قرّر أبي أن يمنحنا استراحةً صغيرةً رأفةً بحالي وبوضع أمّي التي أُنهكت من ثقل جنينٍ تحمله بين أحشائها، حطّينا الرّحال. كان القمر بدراً، فتراءى المشهد أمامنا واضحًا.. جثوتُ قرب مجرى المياه ورحتُ أرقب ضفدعةً صغيرة تتقافز مصدرةً نقيقًا كسر رتابةَ السكون. وذات شرودٍ منّي راودَ سمعي صوتُ أزيزٍ ما لبث أن تلاشى. تيقّظت حواسي من سكونها ورحت أصغي لهدأة الليل، فجاءني الصوت مجدّداً ولكن بوضوح أكبر..

«أبي.. ثمّة صوتٌ غريب!».

تنبّهت جوارح والدي في محاولةٍ لالتقاط أيّ صخب، وجال ببصره في المكان في حركةٍ استكشافيّة سريعة.. لكنّه سرعان ما استعاد هدأته وبدا مطمئنّـاً للحال: «لا تخشَي شيئـًا صغيرتي.. ربّما هي حيواناتُ الغابة البعيدة».

صريرٌ جديدٌ أشدّ وطأةً شتّت انتباهي وحملني على الوقوف في محاولةٍ لتقصّي مصدر الصوت. لمحتُ في البعيد ظلالاً بأشكال غريبة، حاولتُ التقدّم باتّجاهها لتبَيّن كُنهِها وما إن وقفت حتى شعرتُ بجسدي ينسحب إلى الخلف بقوّةٍ. لم أتمكّن من الصراخ فأصابع يدٍ التفَّت حول فمي وسلَبَتني طاقة الكلام. فجأةً، عثرتُ على جسدي الصغير مرميّـًا على الأرض وسط شجيرات سنديانٍ صغيرة، وأمّي تجلس القرفصاء قرب أبي وكلاهما بظهرٍ مَحنيّ يرقبان شيئـًا من بين أغصانٍ متشابكةٍ تحجب الرؤية.

«ماذا جرى أبي؟».

التفت والدي نحوي واضعـًا يده على فمه في محاولـةٍ لإسكاتي: «ششش الصمت يا تَرَف، إيّاكِ أن تنطقي بحرف.. ثمّة مسلّحون هنا. ثلاث شاحنات محشوّة بأجسادهم النتنة. لم أتبيّن ملابسَهم لأدرك إلى أيّ جهـةٍ ينتمون فالمسافة بعيدة بعض الشيء.. رجاءً، اثبتي مكانك، وإيّاك والكلام».

ارتعش بدني بشدّة، وأحسستُ بانقباضٍ شديدٍ في معدتي، ثمّ تقيّأتُ كلّ ما في جوفي فوق التراب. احتضنتني أمّي بدفء، وراحت تهمس بعض الكلمات في أذني.. وشوشَت، دنـدَنت، وطبعت قبلاتها على جبيني، فانسحب خوفي تدريجيًّا ورحتُ في إغفاءةٍ باغتت جسدي ذات حاجة.

في هذه المرّة جاء نومي مَشوبًا بخيالات مرعبة أقضّت غفوتي، فصحوتُ بعدها مفزوعة. وعندما استعدتُ كامل وَعيي، لمحتُ أبي يتنفسّ بعمقٍ ويَصفر في إشارةٍ إلى هَمٍّ ثقيلٍ انسحب من رئتيه وروحه.

«الحمدلله، نجونا هذه المرّة، ولكن بات التقاعس ممنوعـًا.. علينا أن نغادر هذه الأرض بالسرعة القصوى.. وجود هؤلاء المسلّحين إشارةٌ إلى أنّنا بِتنا قاب قوسين من الحدود الشماليّة، ويبدو أنّهم يمشّطون المنطقة بين حينٍ وآخر.. سنتعثّر بالكثير منهم هنا، فعلينا بالحذر الشديد».

بهذه الكلمات لخصّ والدي واقع الحال، ودعانا للمُضيّ مجدّداً في طريقنا.. لملَمنا أجسادنا المُنتشرة، وخطَونا وفي جعبتنا ما زال يرتع قليلٌ من الأمل. تراءت أمّي في غاية الإجهاد، ولمحتُها تجرّ جسدها بعناءٍ شديد. كانت قطرات العرق تتصبّب من جبينها، ومن كامل مسامات جسدها المتثاقِل. هالات سوداء بدت واضحةَ المعالم ورسمَت مداراً ثابتـًا حول عينيها. أمّا عن شحوبها فقد تخطّى المعتاد وباتت ملامحها أقرب إلى هيكلٍ عظميٍّ.

«أمّي.. هاتي عنكِ هذه الحقيبة، يكفيكِ ما أنتِ فيه من إعياء.. صدّقيني، بإمكاني حملها دون أن أتعرّض لسوء».

بنظرات شبه تائهة، تطلّعَت أمّي نحوي مُرسلةً ابتسامتها التي تنضح رقّة، وبهدوئها المعتاد قالت: «لا تخشي شيئاً عزيزتي، هي عوارض طبيعيّة للإجهاد في فترة الحمل.. ما زلتُ قويّةً بما يكفي لأتمكّن من السَّير آلاف الكيلومترات».

ورغم ابتسامةٍ امتدّت على ثغرها ورسمت خطوطاً حول فمها، إلّا أنّ وهجاً كان قد تلاشى عن ملامحها وارتدى وجهُها قناع الشقاء.

كنّا كلّنا في وضعيّة المتشبّث بخشبة الخلاص وسط موجٍ هادرٍ وظلمةٍ لا يبدو لها نهاية. لا نملك حلّاً بديلاً، وعلينا التقدّم نحو مجهولٍ يتربّص بنا وينهش بعضاً من تفاؤلٍ يرتدينا. سِرنا بحذرٍ كبير، كما أوصانا أبي، ورحنا نخطو بمحاذاة الشجر بدلاً من المنطقة المكشوفة التي باتت أشدّ خطورةً كلّما اقتربنا من الهدف.

حتى هذه اللحظة لم يكن أبي قد أبدى أيّ إشارةٍ فعليّة توحي بقرب وصولنا إلى الحدود. كان الشك يقطر من نظراته، ورغم ذلك ظلّ يحثّنا على التقدّم ويبعث فينا تفاؤلاً، تشبّثنا فيه طواعيّةً حتى لا نمنح اليأس ذريعةً كي ينمو بين ثنايا الفكر والوجدان.

***

«الحدود.. نعم هي الحدود».

فجأةً، صَدَح أبي بهذه الكلمات متناسياً حذَرَنا وما نحن فيه من وضعيّة تخَفٍّ وإرباك. بدت السعادة وقد تناسَلَت من بين تجاعيد وجهه، فتوهّجَت ملامحه بعد خمودٍ طويل.

«ها هو التَّل الفاصل بين أرضنا والأرض الجديدة، لقد أصابَت توقّعاتي ولم نضل طريقنا».

لحظات قليلة بدت كافيةً حتى أستعيد انتباهي وألملم شتات روحي، رحتُ بعدها أتقافز كما اعتدتُ أن أفعل في كلّ مرّةٍ تلقَّيتُ فيها الهدايا من أبي، بعد عودته من سفرياته المتكرّرة. شعرتُ أنّي أمسكتُ طرف الحبل المؤدّي إلى السعادة التي وُعدنا بها، وأنّ ما كان حلماً ضبابيّاً بات قريباً من التحقُّق.

«هذا التّل الصغير بات جسرَ عبورنا الوحيد نحو وجهتنا بعيداً عن أيّ وجودٍ مسلّح.. لكنّ المرور به كما أرى يحتاج مزيداً من الجهد».

بعد كلمات أبي التي أعادت النبض إلى أمنياتنا، وقفنا أمام التلّ في وضعيّة اندهاش.. تحت ضوء القمر، تراءت المنطقةُ مهجورةً لم تطَأها قدمٌ منذ دهر.. نباتاتٌ شائكة سطت عليها بالكامل، ونتوءاتٌ صخريّةٌ لا تترك مكاناً لقدَمٍ كي تتخطّاها. كما أن صعوده ليس بالسهولة المتوقّعة، وإمكانيّة الانزلاق متاحةٌ وبرفاهيّةٍ كبيرة.

«غريبةٌ هي هذه الحدود أبي! كيف يمكن أن تكون مَعبراً للغادي والعائد كما أخبَرتَني وهي بهذا العُسر.. أنكون قد أخطأنا وجهتنا؟!».

سؤالٌ ظلّ يستفزّني حتى توّجَهتُ به لأبي بكامل توجّسي وحيرتي.. لكنّ ابتسامةً ارتسمت فوق ثغره أعادت إليّ شيئًا من اليقين..

«اسمعي يا تَرَف.. الحدود واسعة وهناك منافذ كثيرة شرعيّةٌ نستطيع أن نمرّ من خلالها، لكنّني، وكما فعل آخرون قبلي، أريد وبقدر المستطاع عبوراً صامتًا بعيداً عن عيونٍ ترقب وألسنةٍ تتحدّث. لذلك قد تبدو هذه المنطقة المهجورة الأفضل لنتخفّى خلف ستائرها ونحظى بعبورٍ آمنٍ دون أن يعترض طريقنا أحد.. سمعتُ عن أشخاص تعرّضوا للاعتقال أثناء محاولتهم اجتيازاً شرعيًّا للحدود وآخرون كانوا هدفًا لتحرّكاتٍ مسلّحة نالَت منهم، وبعضهم أُعيدوا إلى أرضهم عُنوةً ولم يُسمح لهم بالمغادرة.. قصصٌ كثيرةٌ سمعتُ بها، وسواء حملَت بين طيّاتها شيئًا من الصّحة أو كثيراً من الأكاذيب، فالأفضل هو تجنّب هذه المخاطر».

أبي رجلٌ يحمل من الحكمة ما يكفي لاحتوائنا بعيداً عن شرور الكون.. هكذا أراه، وهكذا يُثبتُ لي دائمًا.. ولو لم يكن معنا لما تجرّأنا بالتأكيد على المغامرة والارتحال.

بدَت والدتي غارقةً في صمتها وبريق عَبَراتٍ يلتمع داخل مقلتَيها. إنّها حزينة، وأراها تنظر حولها وتَرقُب تفاصيل المكان وكأنّها تحاول التقاط صورٍ تحفظها في الذاكرة عن أرضٍ عشقَتها وظلّت حتى آخر خطوةٍ تأمل البقاءَ فيها.

أمّي لا تريد الرّحيل بتاتًا، ومنذ البداية أظهرت رفضها لفكرة الفرار. سمعتُها وفي أكثر من مرّة تحاول إقناع أبي بالبقاء والصمود. من وجهة نظرها،

الوطن هو الملجأ الوحيد، ومهما قسَت ظروفه واكفهرّت الغيوم فوق أرضه يبقى حِصنًا دافئًا وسَتراً لأبنائه. إنّها ترفض استرجاع مشاعر التيه التي اجتاحَتها مع بداية زواجها، عندما وجدت نفسها مضطرّة إلى مشاركة الآخرين أماكن سكنهم. وقتها فقدَت هدأةَ الاستقرار وتلبّد الحزن في أعماقها.. خسرَت دفء الانتماء إلى المكان وضرب الصقيع أصقاع روحها. حالُها لم تتبدّل إلّا في بيتٍ صار لها بتفاصيله وأركانه وأرضٍ ملكَتها وغدَت مرتعًا لأحلامها.

هي لم تحتمل شَتاتًا عاشته على أرض الوطن، فكيف ستكون حالها عندما تعيش التيه خارج حدوده!

أمّي وأبي متشابهان كثيراً في حكمَتهما، غير أنّ والدتي تنثر نَبضَها فوق روحها وبين جنبات الأمكنة. عقلها مزدانٌ بوردٍ وياسمين، وقلبُها خَيِّرٌ ينثر عشقَه بين الزوايا فتُبعَث فيها الحياة. لذلك عشقَت أرضَنا وزَرعنا ومواشينا، وحملَت بطاقة انتماءٍ روحيٍّ إلى بيتنا بكل ما يحتويه، من أبسط الأشياء إلى أكثرها أهميّة.

وضعت أمّي الحقيبة الكبيرة على الأرض، وراحت تتنهّد بعمقٍ وتضغط بيدَيها على رئتيها وكأنها تسعى لضَخّ الهواء فيهما. وبعد شرودٍ طويلٍ عادت للتشبّث بالحقيبة وكأنها تستجدي دفئًا أو تخشى فقدانًا، وخَطَت إلى الأمام في حزم وهي تتمتم: «فلنقطع هذا المكان بسرعة، لا أطيق البقاء فيه..».

ودون أن تلتفت إلى أحدٍ منّا، تقدّمت تجرّ قدمَيها بمَشقّةٍ وكأنّها على أعتاب خوض معركةٍ أو إعلان هزيمة.. رأيتُ دموعاً تفيض من جفنَيها الذَين صُبغا باحمرارٍ فاضحٍ لوجعها الكبير.

بصمت جنائزيّ قطعنا مسافةً مُنبسطةً صغيرةً تفصلنا عن بداية الصعود. المشكلة الكبيرة تجلّت في عدم إمكانيّة أمّي سلوكَ طريقٍ صاعدٍ وهي تحمل بين أحشائها جنيناً يشدّها ثِقَله نحو الأسفل عند كلّ محاولة. اختبَرَت أكثر من طريقةٍ تُعينُها على التقدّم دون أن تحرز أدنى انتصار. احتار أبي في أمره وشعرتُ بغصّةٍ ترتادُه وهو يرى عذاباتها ومحاولاتها المتكرّرة، مُغفِلةً تعَبَها وإحباطاً استحكم منها. تناول الحقيبة عنها، وفي سَعيٍ لمساعدتها استقرّ في وقوفه خلفها وأخذ يدفعها برَويّةٍ ليُعينها على الصعود، ويكون سنداً لها إذا ما زلّت قدمها على حين بغتة.

وفي كلّ ذلك، وجدتُني مضطرّةً إلى تقديم يد العَون لذاتي الصغيرة. يكفيها أمّي كمّ المعاناة التي تستحوذ عليها، وأبي المسكين بات يحمل لوحده جميع أمتعتنا وفي الوقت عينه يعمل على مؤازرة أمّي في ضعفها. ولكن، لا بأس، المسألة لا تبدو مستحيلة، كما أنّني والطبيعة متآلفتان.. أحبّ أن أحيا بين جنباتها، وأشعر بها تحتويني وتلملم انتثاري عند الحاجة. حتى في صحرائها كانت حنونةً معي، احتضنَت ضياعي فما شعرتُ بخوفٍ ولا أصابني مكروه. هي بعض النباتات الشائكة والصخور البارزة التي لن تعترض طريقي بالتأكيد، وسأثبت لوالديّ أنّني لم أعد تَرَف الصغيرة، بل

أصبحتُ صبيّةً قادرةً على الاهتمام بشؤوني ورَفع عبء مسؤوليّتي عن كاهلهما.. سعِدتُ بهذا القرار، وبكامل ثقتي التحَقتُ بهما، وبدأتُ عمليّة تسلّقٍ كنت أظنّها أسهل بكثير ففوجئتُ بقدميّ تفقدان ثباتهما.. الصخور البارزة شكّلت سدّاً منيعاً حال دون قدرتي على إرساء خطوتي فصرت أترنّح يمنة ويسرة، من غير أن أهوي. أمّا عن النباتات الشائكة فبدت بشراسةٍ غريبة، لم تترك فرصةً تُفلتُ منها دون أن تنشب أنيابها في جلدي وتصيبني بخدوشٍ بعضها سطحيّ وبعضها الآخر عميقٌ لدرجة الإدماء. تشوّهات وخرائط راحت ترتسم على رجليّ كلّما تقدّمتُ أكثر حتى شعرتُ بألمٍ فاق قدرتي على السكوت، فأخذتُ أصرخ وأتقافز في محاولةٍ لإقصاء نفسي عن الأشواك التي باتت كإبرٍ تخيط قماشاً وتنقش عليه رسوماً وزخارف.

«صغيرتي تَرَف.. هوّني عليكِ حبيبتي، لن يطول الشقاء كثيراً. كوني حذرةً ومع قليلٍ من الصبر سنصل مُبتغانا، وأعدك بأن تنتهي هذه المعاناة قريباً».

تحدّث أبي بنبرةٍ مكتومة. بدا في ذروة الإنهاك وهو يحمل الأمتعة التي أخذت من ثقَلها تضغط على أعصابه وكتفَيه، وتحمل شرايينَ رقبته على النفور. ورغم ذلك ظلّ يكِدّ في صعوده وجميع حواسّه في وضعيّة استنفار وترقّبٍ لأيّ أمر قد يستجدّ مع أمّي أو يُربك صعودَها.

بدأت قطرات الدّم تنسلّ من بين مساماتي وتنساب فوق الجلد راسمةً خطوطاً غير متوازية. توقّفتُ مكاني بعد أن تخطّيتُ عتبة الوجع الاعتيادي، وبتوجّسٍ كبير رحتُ أقتلع الأشواك العالقة في فستاني وتلك التي تسلّلت إلى

جسدي، وأمسح بكفّي قطرات الدّماء. خانَتني عيناي وشعرتُ بالعبَرات تفيض من مقلتَيّ، لكنّ قوّةً غريبةً انبعثت من أعماقي ذات تصميم، وبطرف ثوبي أزَلتُ بقايا دمعٍ شاردٍ ومحوتُ أثر ضعفٍ كاد يُطبق على الأنفاس.

عندما يتملّك الخوف منّا، ترتدينا قناعةٌ بالعجز حتى عن الابتسام. وتصير أرواحنا مكبّلةً تغشاها اللامبالاة ونضعف أمام أيّ تحدٍّ لدرجة الاستسلام. لذلك، لن أترك مكانًا للخوف كي يتغلغل ويتكاثر، رغم أنّه بات يعتصر بدني ويحمل إليّ شعور غثيانٍ قميء.

بعد أن قطعنا مسافةً لا بأس بها، صارت أنفاس والدتي أكثر عمقًا، ثمّ ما لبثت أن استحالَت إلى لهاثٍ مثيرٍ للشفقة.. أخذ العرق يسيل من بين مساماتها بغزارة، وغدا شحوبها واضح الأثر.. رغم كل ذلك لم أسمع لها تأوّهًا، ولا حاولت التوقّف لأخذ استراحة بسيطة. بل على العكس، بدَت مُصرّةً أكثر من السابق على استكمال المسير..

***

صعودُ التلّ لم يكن بالسهولة التي افترضناها بناء على تصوّرات حسابيّة بَحتة. لم نُقم وزنـاً لِوَهنٍ نالَ منّا، ولا لأثقال جعلت من جاذبيّة الأرض عميلاً مشاركاً في عرقلتنا، ولا حتى منَحنا الصخور والأشواك حقّها في التوجّس من شرورها. عوامل كثيرة تضافرَت وجعَلتنا نخسر ثَباتنا ويقينَنا بفرَجٍ قريب.

والأخطر في كلّ ذلك صحّة أمّي التي تعرّضَت لانتكاسةٍ فجائيّة، وراحت تتباطأ في حركتها شيئاً فشيئاً. التهب وجهها احمراراً، حتى شفتاها استحالتا بلونٍ ناريّ. من المؤكّد أنّ حرارةً ضربت أصقاع جسدها كما حدث منذ ساعات، لكنّ حالَها تراءت أكثر بؤساً. وما زاد من صعوبة الموقف عجزُنا الكامل إزاء ضعفها.

نظرات أبّي استَحالَت مُربَكَة مُرتابة! يبدو أنّه يتبصّر بشيءٍ على جانبٍ عظيمٍ من الخطورة. الخوف تجلّى واضحاً هذه المرّة فوق ملامحه وعلى جبينه الذي تصبّب هلعاً، وحتى في حركته المتردّدة التي عَبَقَت ريبة. بالتأكيد هو لا يفكّر حاليّاً في كيفيّة تحقيق وصولنا الآمن إلى الأرض الجديدة، فثمّة أمر مستجدّ يسيطر على انشغالاته.

«لا بأس عليك عزيزتي.. خطوات قليلة ونجتاز هذا التلّ. تماسكي بعض الوقت، ولا تُعيري بالاً لأيّ أمر. كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام بإذن الله».

أبي المسكين حاول بَثّ النور في نبض أمّي، واستحضار التفاؤل من غياهب الفراغ. كلماتُه لم تعطِ دَفعاً لها فقط، بل حفَّزَت جوارحي وشدّت

من أَزري ذات مشقَّة. أحسستُ بنسمةٍ لطيفةٍ تعبُر ملامحي وتتغلغل بين خصلات شعري المتهدّل. أغمضتُ عينَيّ واستنشقتُ الهواء بملء رئتَيّ. حماسٌ جارفٌ استحكم منّي، وحجب سحابةً سوداء كانت قد بدأت تُظلِّل روحي وتُمطرني انهزاماً.

عندما باشَرنا النزول إثرَ صعودٍ وَعرٍ وخطير، رحنا نهبط بسلاسةٍ بعد أن اعتادت أرجلُنا وَخزَ الأشواك، وغدَت النتوءات الصخريّة المُدبّبة قواعد نستند إليها كي تمنع عنّا سقوطاً جسيماً. كان الفجر قد أوشك على البزوغ، وخيوط نورٍ باهتٍ أخذت تتسلّل وتكشف لنا عُسرَ طريقٍ قطعناها، وبؤسَ حالٍ آلت إليه ملابسنا وأرجلنا بعد تعرّضها لعمليات مداهمةٍ «شوكيّة».

تخطّينا ما تبقى لنا من مسافةٍ قبل أن نحطّ رحالنا فوق الأرض المنبسطة بعيداً عن التلّ وحكاياه الموجعة. وصلنا في حالٍ من الإنهاك الجسيم، وارتمَينا جثثاً فوق التراب. وأمّا عن أمّي، فوضعها المأساويّ ازداد سوءاً حتى أنفاسُها خفتت وصار نبضها أقرب لوَقعٍ رتيبٍ بائس. وما إن جثونا على الأرض، حتى مالَت بجسدها واضعةً رأسها على صخرةٍ صغيرة بجوارها، وصدحت بالأنين..

تأوّهاتها الخفيفة استحالت صراخاً خافتاً فقويّاً وحادّاً. مشاعر غريبة رمت بثقلها على أنفاسي، فدنوتُ منها بارتياع ورحتُ أناديها وأمسح وجهها بأصابعي دون أيّ استجابةٍ منها. أصابني الجمود، وتصلّب لساني فاقداً القدرة

على النطق. صرتُ أنتحب وأنوح، وأحسستُ بقلبي قطعةَ حجرٍ تُطبق على الأنفاس.

زحف أبي على ركبتيه، وأخذ يضغط برَويّةٍ على صدر أمّي في سَعيٍ لمساعدتها على التنفّس بشكلٍ اعتياديّ. كان في ذروة الفزع وهو ينصت لدقّات قلبها التي بدأت تتلاشى شيئًا فشيئًا. ثمّ اقترب بأذنيه من بطنها المنتفخ، وراح يتحسّسه بأصابعه بشكلٍ دائريّ. كلّ ذلك وأمّي غارقةٌ في شبه غيبوبةٍ مع أنّات تنبعث منها بين حينٍ وآخر..

«عزيزتي تَرَف.. يبدو أن والدتك على وشَك الوضع رغم أنها في شهرها السابع.. المسكينة أجهدتها الطريق كثيراً. سأقوم بحملها، بينما عليكِ أن تسحبي الحقيبة خلفك».

فاضت عيناي بالدموع وبكيت بغزارة. لوَّحتُ برأسي إلى الأسفل في إشارةٍ مني إلى القبول ووقفتُ في استعدادٍ لإنجاز مهمّتي وقلبي يضجّ من رهبةٍ وارتياع.

المنطقة التي وُجدنا فيها تراءت واسعةً منبسطةً ومليئةً بشجر الزيتون، بعضها معمّر وبعضها الآخر لا يزال غضاً طريّاً ويوحي بنشاطٍ زراعيّ بشريّ. يبدو أنّنا بتنا قريبين من المناطق المأهولة، رغم أنّ السكون تجلّى مريباً وسيّد المكان، حتى العصافير شاركت في مؤامرة الصمت، واندثَرت زقزقتها في هذا التوقيت الصباحيّ.

قطعنا مسافةً وجيزة، ورحنا نتسلّل بين الأشجار ونجرّ أحلامنا المنهكة وأرواحنا المُربَكة.. يتآكلنا الفزع وتنهش صبرنا وساوس حول مصير أمّي المسكينة. بقينا على هذه الحال إلى أن تعاطف مع بؤسنا القدَر، وإذا بنا ذات استسلامٍ نتعثّر بتجويفٍ صخريٍّ رابضٍ على طرف بستان ليمونٍ، لاح أمامنا على حين دَهم.

رأيتُ ملامح أبي وقد غزاها شبه ارتياح، فراح يكدّ في سعيه باتّجاه الكهف. وبحرصٍ شديدٍ أنزل أمّي من بين ذراعيه قبل أن يُسقط الحمولة عن كاهله. ثمّ سارع ليتناول الحقيبة من يدي، فتحها بعَجَلةٍ من خوفه وعاث فيها خرابًا حتى عثر على غطاءٍ كبير. سحبه سريعًا وافترش به الأرض، ثمّ عاد إلى أمّي ليقوم بتمديدها عليه، ثمّ جمع بعضًا من ملابسنا لرصفها تحت رأسها في وضعيّة وسادة.

«كيف أستطيع المساعدة أبي؟».

ودون أن يعيرَني بالاً ولو بنظرةٍ خاطفةٍ، أشار إليّ بطرف إصبعه في أمرٍ واضحٍ للخروج فوراً من الكهف. غادرت سريعًا، وتحت شجرة ليمون جثوت. صرتُ أرقب النمل في تنقّله من مكانٍ لآخر. وشيئًا فشيئًا شرَدتُ في الخيال. لم ينتشلني من ارتحالي سوى صراخٍ عميقٍ صدحت به أمّي وتراءى كجوقةٍ كاملة بسبب أصداء تردّدت داخل الكهف وانسربت إلى الخارج أضعافًا مُضاعفة. تيقّظت مخاوفي وابتدأت نبضاتي تعزف سمفونيّة كئيبة المَلمَح.

صرخةٌ جديدةُ ثمّ تلَتها أخرى حتى شعرتُ بجسدي يُطبق على روحي، وبمعدتي تنكمش على نفسها وتعتصر نبضي. صرتُ أرتعش من بردٍ غَشيَني ذات ذُعرٍ، ومن ارتيابٍ ضرب أصقاعي دون أن يُهمل منها أيّ جزء.

ثرثرةٌ غير مفهومة داهمت سمعي.. أصوات رجالٍ ونساء حاصرَت خوفي وأردتني في مهب الهذيان.

ما هذا الصخب! الحقل واسعٌ ولا ألمح أيّ حركةٍ أو حتى شبه حياة.

أغمضتُ عينيّ وأخذتُ أُحصي عدد الزهور التي غرسَتها أمّي في الفناء الخلفيّ لمنزلنا. هكذا اعتدتُ أن أفعل سابقًا في كلّ مرّةٍ داهمني فيها الخوف ليلاً وعجزت عن النوم. وعندما فتحتُ الجفون غزتني دهشةٌ عقَدَت لساني وجسدي وحتى أنفاسي. وجدتُني محاطةً بجمعٍ غفيرٍ من رجالٍ ونساء!

لم أكن وحدي من اجتاحتها الحيرة، فكلّ الحاضرين تجلّوا في قمّة الذهول.. لحظات جمودٍ عبرَت، رأيتُ بعدها الجَمع يتبادل نظرات استفهام، ثمّ تقدّم بعضهم نحوي بطريقةٍ فاجأت ضعفي فارتميتُ على الأرض وأجهشتُ بالبكاء.

«لا تخافي يا صغيرة.. لا نريد بكِ شرّاً.. سمعنا صراخ امرأةٍ فأتينا نستقصي الأخبار، وإذا بنا نتعثّر بحضوركِ الغريب، من أنتِ؟ وأين هي المرأة المُتعبة؟».

عبارةٌ قالتها امرأةٌ عجوزٌ بصوتها المرتجف.. تعجّبتُ من غرابة لهجتها التي لم أسمع لها مثيلاً من قبل. ومن فرط الدهشة، رحتُ أتأمل الوجوه

وأُمعن النظر في ثيابهم التي لا تُحاكي ما أعرفه من ملابس في قريتنا وحتى لقرى المجاورة.

امرأةٌ شابّةٌ تقدّمت نحوي ببطء، وبصوتها الهادئ الرقيق قالت: لا تخشَي شيئًا صغيرتي، نحن أصدقاء ونودّ المساعدة فقط.. هل أمّكِ هي المريضة؟ أين نجدها؟

فكرةُ إغاثة أمّي أعادت الحياة إلى ذهني المرتبك، وبحركةٍ عفويّةٍ أشَرتُ إلى الكهف. إثر ذلك تجمّع الرجال في وقفةٍ شبه دائريّة، وتوجّهت النساء إلى المكان المقصود.. ثوانٍ قليلة، لمحتُ بعدها أبي يطلّ من العتمة تعِبًا متوتراً. أسرعتُ إليه والدموع تفيض من مُقلَتَيّ، فاحتضن احتياجي وراح يهدّئ من روعي مُطَمئنًا فزعي بكلماتٍ من سكينةٍ ولمسةٍ من نبض.

انقضت بضع دقائق خرجت إثرَها امرأةٌ في مقتبل العمر وتقدّمت منّا موجّهةً حديثها لأبي: «السيّدة على وشك الوَضع.. كنّا نفكّر في نقلها إلى أقرب منزلٍ في القرية لكنّنا نخشى أن نُلحق بها أو بالجنين سوءاً.. لذلك أرسلنا صبيّةً لتحضر «دايَةَ» القرية وسنُنجز الولادة من هنا بإذن الله».

وبإيماءةٍ من رأسه، أبدى والدي انصياعه للأمر الواقع.. فلا خيارات أخرى ولا حلول بديلة..

مرّ الوقت متثاقلاً ونحن نترصّد وصول «الدّاية».. كم يبدو الزمن صَعبًا وسَمجًا عندما نصبح أَسرى خَفقِه، وكم نحتاج من سِحرٍ حتى

نملك قُدرة اعتصاره فيمضي كرَفّة هدبٍ حاملاً في جعبته ارتياعنا ومآسينا!

وعلى حين انتظارٍ موجع، لمحنا من البعيد عجوزاً تكدّ في مَشيتها، وتبدو في عَرَجها وانحناءة ظهرها وقد تجاوزت الثمانين من العمر.. وما إن اقتربت من الكهف حتى تبيّنا شيئاً من ملامحها المُريبة.. شعرت أنّني صادفتها مسبقاً في إحدى القصص.. نعم، هي تماثل في تجاعيد وجهها وتعرُّج أنفها وحتى في قِصَر قامتها وثوبها القاتم الفضفاف، ساحرةَ الحكايا الشرّيرة.. تلك المشعوذة التي تأتي دائماً في لحظات الوحدة لتبثّ سمومَها وتحقّق مآربها..

التفتت نحونا والشرر يتطاير من عينيها الغائرتين، وصرخَت بصوتٍ أجشّ لا يُناسب ما هي فيه من انكماشٍ في الحجم وترهّلٍ في السنّ..

«فليبتعد الجميع عن الكهف.. لا أريد أن أسشعر أيَّ حضورٍ قريب.. الهمهمات والثرثرات وحتى الأنفاس تُصيبُني بعصبيّةٍ وتكبّل حركتي».

ثمّ، وبخفَّةٍ مُريبة، انسربَت إلى الداخل، وتلاشت تماماً حين التأم سوادُ ثوبها مع عتمة المكان..

***

ثلاث ساعات انقضَت، كنت فيها مع أبي في وضعيّة تيهٍ نفسيّ وجسديّ. سمعنا تأوّهات أمّي وأنينَها بين حينٍ وآخر، وشاهدنا النساء في حال غليانٍ وفوضى.. واحدة تدخل الكهف مهرولة، وأخرى تخرج والعرق يتسلّل من بين مساماتها ليُغرق جسدها في بللٍ كمن باغته الهَطل وانقضّ عليه المطر على حين غَفلة.

ما بالهُنّ! هل أمّي بخير أم أنّ سوءاً قد نالَ منها!

التقط أبي سريعًا ترددات حيرتي فأخذ يمسح بيده على شعري ويهمس لي بكلمات أضفَت على ملامحي شيئًا من السكينة. شبهُ ابتسامةٍ عبرَت بغصّةٍ فوق ثغري، بينما ظلّت نظراتي حائرةً في انتظار خبرٍ يعيد إليها نشوةَ اليقين.

وعندما طال زمن الترقّب، لم أجد وسيلةً أغالب فيها وعكتي النفسيّة سوى باللجوء إلى إحصاء أشجار الليمون، ثمَّ السحب العابرة والحصى المنتشرة في كلّ مكان من البستان الواسع. أردتُ، في كلّ ذلك، أن أواجه خفقًا بدأ يدكّ ما تبقى من هدأتي ويغرس أشواكًا في صدري. صرت أتنقّل بفكري من مشهدٍ إلى آخر، وأختال بين ذكرياتي لألتقط منها مشاهد تُنعش قلبي الصغير. شعرتُ بالزمن كجلّادٍ يهوي بسَوطه، ويفتّت بقايا صبري البائس.

دنا مجموعةٌ من الرجال من أبي، وراحوا يتبادلون معه أطراف الأحاديث والتساؤلات.. ظهروا في ذروة الذهول وهم يتلقّفون أخبار فرارنا من قريتنا البعيدة، وغرقوا في دهشتهم أكثر وهم يسمعون حكاية

مسافات قطعناها سيراً على الأقدام.. وبعد أن امتلأوا تعَجَبًا، راحوا يرحبّون بنا ويباركون سلامتنا بعد أن تخطّينا الحدود وما خلفها من جنونٍ وخراب.

ما إن سمعتُ كلمة «حدود» حتى انتفضَت جوارحي وتوهّجَت روحي. شعرتُ بانتعاشٍ في الحلم، وكأنّ سحابةً مطيرةً انسابت بعد جَدبٍ طويل. حتى النسمات العابرة سمعتُ وشوشاتها وضحكاتها وهمساتها العابقة بأناشيد الفرح والحياة.

إذاً، هي الأرض الجديدة.. وهؤلاء هم أبناؤها..

غريبون نعم في لون بشرتهم وملامحهم عن أهل قريتنا والبادية، متباينون في لهجتهم التي لم أسمع لها مثيلاً من قبل.. لكنّهم طيّبون جدّاً، ويشبهون في دماثتهم من عرفتهم من جيرةٍ وأقرباء وأصدقاء..

ملأتني رغبةٌ في القفز والضحك واحتضان أشجار الليمون وتراب الأرض.. وارتداني يقينٌ لا يحتمل الشكّ أبداً أن أمّي ستكون بخير وستبتهج معنا بالأرض الجديدة والحلم الذي غدا واقعًا..

من فرط لهفتي احتجب عن بالي انتظارُنا قارس التوتّر، وما إن تآلفتُ مع فرحتي وركَنَ نبضي بين الضلوع، حتى عدتُ لأمارس طقوس الخوف وأعيش تردّداته وعذاباته.

فجأةً، صدحت في الأجواء أصداءُ زغاريد، وتردّدت في البستان لتُهشّم جليدَ السكون. انتفضتُ من مكاني كما فعل أبي، وأسرعتُ خلفه باتّجاه الكهف. وما إن بلَغناه حتى برزت تلك الشابّة وفوق ثغرها ترتع ابتسامةٌ

من ياسمين، وبأعلى صوتها قالت: «ألف مبروك.. إنّه ولد، جاء بعد ولادةٍ عسيرة ويبدو أنها مبكّرة جداً فحجم الطفل صغير.. لكنّه والسيّدة بألف خير».

تهلّل وجه أبي، وفاض الدمع من عينيه.. بلغ به الفرح حدّ السجود على الأرض وتقبيل التراب. أثناء ذلك خرجت «الداية» من الكهف وفَيضُ عرقٍ يسيل منها ويُغرق وجهها، ورغم ذلك ابتسمت للمرّة الأولى منذ قدومها فبرزت أسنانُها المتعرّجة والمتآكلة. ثمّ، وبنفس النبرة الخشنة، باركَت لأبي بالمولود وطلبت منه الاهتمام بأمّي في هذه الفترة وبنوعيّة غذائها لأنها فقدت الكثير من الدّماء أثناء الولادة. لفتتني كثيراً ردّة فعل أبي إزاء كلامها، فقد توجّه إليها صادحًا بكلمات الشكر والتقدير، وقبّل جبينها ثمّ راح يمسح عرق وجهها بيدَيه داعيًا لها بكل الخير والصحة والراحة لها ولعائلتها.. إثر ذلك وضع يده في جيب عباءته وأخرج مالاً لا أعرف مقداره محاولاً دسّه في يدها، فما كان منها إلا أن تدحرجَت إلى الخلف بحِدّة، وبلمح البصر استعادت ملامحُها قسوةَ البداية وبصوتٍ غليظٍ قالت: «لم أحضر إلى هنا من أجل المال.. احتفظ بما تملكه في جيبك فأمامك مصاريف كثيرة.. أنصحك أن لا تغادر القرية في الوقت الحالي، فزوجتك بحاجةٍ إلى الرّاحة بعد النزيف الشديد الذي تعرّضت له».

تفوّهَت بكلماتها، ثمّ استدارت مغادِرة واختفت بين الظّلال كطيفٍ عابرٍ أو ربّما كوهمٍ وسراب..

عندما خرجت النساء من الكهف مباركات ومهنِّئات، ولَجتُ مع أبي إلى الداخل.. بدت أمّي في ذروة الإجهاد، وبقربها استقرّ أخي الصغير ملتحفاً بقماشٍ أبيض بطريقةٍ احترافيّة.

دنوتُ من أمّي، تغلغلتُ في ثيابها ورحت أبكي بنَهمِ جائع. ولأوّل مرّة أسمع صوتها منذ أن اجتاحتها الحمّى ونحن أعلى التلّ..

«حبيبتي تَرَف.. كلّ شيءٍ باتَ على ما يرام.. أنظري إلى أخيكِ كم يبدو لطيفاً».

توجّهتُ بنظرات متوجّسة ناحيّة الطفل، كان غارقاً في إغفاءةٍ ملائكيّة.. لم أتجرّأ على لمسه لصغر حجمه، لكنّ شعوراً جميلاً دغدغ روحي ودفعني للابتسام. عندها رأيت أبي يرفعه عن الأرض ويضمّه إلى صدره..

«أهلاً بصغيري الجميل، والحمد لله على سلامتكِ عزيزتي.. آسف جداً على كلّ التعب الذي تسبّبتُ به لكِ.. لكنّ جُهدنا لم يذهب هباءً، وها نحن وقد أمسينا على الأرض الجديدة».

ابتسامةٌ باهتةٌ ارتسمَت على وجه أمّي، رغم حزنٍ تجلّى واضحاً في بريق عينيها.. لم تُجب بأيّ كلمة وأغمضت جفنَيها وكأنّها على أبواب إغفاءةٍ مباغتة، لكنّها سرعان ما قاومت رغبتها في النوم وبصوتها المنهَك قالت: «عابِر، سأسمّيه عابِر.. مع ولادته عَبَرنا الحدود وانتهت مرحلةٌ من حياتنا بِحُلوِها ومُرّها».

إثر عبارات أمّي، تهلّل وجه أبي الذي تراءى سعيداً بما سمعه، وأخذ يوشوش أخي الصغير هامسًا باسمه بمتعةٍ مبالغة..

صار لي أخٌ صغيرٌ يُدعى عابِر، وأصبحت الأخت الكبرى.. لا أعرف كيف ستجري الأمور لاحقًا، لكنّ حياةً جديدةً ستكون حتمًا بانتظاري فوق هذه الأرض الجديدة..

حدثٌ ربّما يتجلّى اعتياديًّا، قد يُحدث كثيراً من التغيير ويبدّل الأحوال.. وهكذا هي ولادة أخي عابِر التي لا تتجاوز كونها واحدة من آلاف الولادات التي تتكرّر يوميًّا، ورغم ذلك نقشَت على روحي وشمًا من فرحٍ غير قابلٍ للإتلاف.. لا أخفي شعوراً بالغيرة صفعني وأنا ألمس بهجةً تشع من ملامح والدَيّ رغم التعب، إلّا أنّ حضورَ عابِر جعلني سريعًا أتخطّى عتبة الطفولة بنقلّباتها المزاجيّة، لأختبِرَ مشاعر أمومةٍ استجَدّت على قلبي الصغير.

***

انتقلنا للمبيت مؤقتاً في «مَضافة الضيعة»، بدعوةٍ من مُختار القرية بعد أن خَبِر بقصّتنا. استضافنا على الغداء في بيته ورحّب بوجودنا بكلّ لَباقةٍ، متمنّياً لنا إقامةً مريحة. سنمكث هنا لمدّة ثلاثة أيّامٍ ريثما تتحسّن حال والدتي. وخلال هذه الفترة، سيتولى أهل القرية تأمين جميع مستلزماتنا من مأكل ومنامة وحتى رعايةٍ صحيّةٍ لأمّي وأخي عابِر.

الناس هنا طيّبون جدّاً وكريمون أيضاً.. لم يحاولوا إقحام حشريّتهم في خصوصيّاتنا، واكتفوا بما حدّثهم أبي عنه. ورغم بؤس حالِنا إثر سفرٍ مُضنٍ وهجرةٍ ولجوء، لم يُظهروا تعالياً وتعاملوا مع ضعفنا بلطفٍ كبير. كلّ ذلك حملني على بناء تصوّرات زمرّديّةٍ عن حياتنا المقبلة، وأحلامنا المعلّقة بين الممكن والمستحيل.

تقع القرية على الطرف الجنوبيّ لبستان الليمون حيث ولد عابِر. ما إن وصلنا إليها حتى فاض بي الشوق لمنزلنا الجميل الذي بات كسرابٍ توهّج واندثر.. تكاد البيوت في هذا المكان تُقارب بيوت قريتنا في المظهر مع بعض الاختلافات. فبعضها مكلّلٌ بقرميد وبعضها الآخر بأسطح واسعة امتدّت عليها «عرائش» متمايزة في الحجم والكَرَم. الكثير من المنازل من طرازٍ هندسيٍّ قديم تضمّ قناطر و«مشربيّات» وتمّ بناؤها من حجارةٍ صخريّةٍ بارزة المعالم. الطرقات هنا في معظمها ضيّقة، وتنسرب بين المساكن في شكلٍ حلزونيٍّ مثيرٍ للدّهشة.

جميع البيوت تبدو متراصّةً قرب بعضها البعض، وتحيط بها البساتين من كل صَوبٍ وحَدب.. المنطقة غنيّة بأشجار الزيتون والليمون واللوز

والرّمان وعرائش العنب، كما لفتني اهتمام الأهالي بغرس الورود في كلّ مكان.. أمام البيوت وعلى الشرفات والنوافذ، وحتى على مداخل المحلّات التجاريّة القليلة المتناثرة هنا وهناك.

أمّا عن «المضافة» حيث سنقيم مؤقتاً، فهي عبارة عن غرفة واسعة تقع في ساحة الضيعة، بالقرب من شجرة سنديان عملاقة تنتمي حتماً إلى زمنٍ غائرٍ في القدم. فرِحتُ بوجود نبع مياهٍ على مقربةٍ من مُستقرّنا، واسترجعتُ أياماً خَلَت مارستُ فيها شقاوتي بالقرب من «الساقيّة» التي تنسرب على أطراف قريتنا لتصبَّ في النهاية داخل تجويفٍ صخريٍّ صغير. وجودُ النّبع أعاد إلى ذاكرتي حادثةً غريبةً مرّت بي وما زالت آثارُها محفورةً في البال.

يومها، كنت ألهو مع ظلّي، صديقي الوفّيّ الذي غدَرتُه ساعةَ رحيل، وإذا بدميتي تقع في المجرى وتنسحب بسرعةٍ مع المياه. رحتُ ألهث وراءها عَلّي أتمكّن من التقاطها. لمحتها تعلق بغصن شجرةٍ سقط ذات يباسٍ، فانحنيتُ في محاولةٍ لإحضارها، وسبقني ظِلّي في ذلك وهوى بدوره في السّاقية. رحتُ أصرخ وأحاول التشبّث به لإنقاذه وإذا بي أراني وقد انزلقتُ خلفه وصرتُ في مهب الغرق. كنتُ بمفردي في المكان، ولم يلمح أحدٌ تعثُّري في المياه، وأنا على هَزالي عجزت عن المقاومة واستسلمتُ لقدرٍ محتوم.

وعلى بُعد مسافةٍ صغيرةٍ من التجويف الصخري شعرتُ بيدٍ تُحكم قبضتها على ذراعي وتشدّني إلى الأعلى بقوّةٍ كادت معها عظامي أن

تستغيث من وجع. أغمضتُ عينيّ هربـًا من دَفق المياه الجارف، وما هي إلّا بضع لحظات حتى شعرتُ بحرارة الشمس تلامس أوتار روحي.

بحذرٍ كبير فتحت جَفنيّ وإذا بأشعة الشمس تصيبني بوهجٍ جعل رؤيتي ضبابيّة. ورغم ذلك لمحت رجلاً بلحيةٍ طويلة جداً وعينين غائرتين في الوجه وأنف يكاد لا يبين. أمعنت النظر لأرى كثيراً من الخدوش على وجهه وذراعيه العاريتين. كان يرتدي بنطالاً عليه رقعٌ بألوان مختلفة ويلف جسده الأعلى بقطعة قماش بلونٍ زمرديّ. بيده القاسية راح يمسح وجهي ليزيل آثار مياهٍ تشبّثت بثناياه، وحتى لا أصطدم بغرابة مشهده من جديد أحكمت إغلاق عينيّ بينما جسدي غارقٌ في ارتعاشه. وعندما عدتُ لأُمعن النظر، كان الغريب قد تلاشى بعد أن وضع دميتي بين ذراعَي، ولم يظهر بعدها أبداً.

حين سرَدتُ على والدتي الحادثة، صارت تضحك وأخبرتني أنّ كلّ ذلك مجرّد حلمٍ عَبَرني أثناء إغفاءةٍ أكيدةٍ لي في الحقل، فلا بلل في ثيابي ولا وجود لأي آثار خدوشٍ نتيجة السقوط. وصفتُ لأمّي رجل البستان غريب الشكل والأطوار وصفًا دقيقًا، فما كان منها إلّا أن ازدادت قهقهات حتى كادت الدموع تفيض من عينيها.. لم أُظهر أيّ اعتراضٍ وآثرتُ الصمت رغم يقيني بما رأيت، لأنّ قراراً بعدم التصديق كان قد اتُّخذ من قِبَل أمّي وبالتالي لن يجدي معها أيّ إقناع!

إذاً، هنا في «المَضافة» سنبيت لبعض الوقت.. عندما دخلنا إليها ذهلتُ من فيض ألوانٍ تطغى على المكان. فوق الأرض يمتدّ بساطٌ كبيرٌ بألوان

قوس قزح.. وعلى الجدران لوحاتٌ متنوعة ملأت فراغها في ترتيبٍ بديعٍ. وحتى الأثاث جمع ألوانـاً ربيعيّةً ورسوماتٍ أخّاذة لطبيعةٍ كتلك التي تعبر في الحلم.. كم أنا في حماسٍ للإقامة هنا، لقد أحببتُ المكان وأتمنّى لو أنّنا نستمر في الحياة بين ثناياه. لكن، لأبي حسابات مختلفة لا أملك إزاءَها فهماً، غير أنّ ثقتي بخياراته لا حدّ لها.

الأمر الذي يُربكني فعليّاً هو دخول كائنٍ جديدٍ إلى عائلتنا، ولا أعرف وسيلةً أفضل للتعامل مع هذا الوضع سوى بإغفال وجوده.. لا أريده أن يأخذ مكاني فيستحوذ على مشاعر المحبّة، وأرغب في الاحتفاظ بمكانتي كفتاةٍ مدلّلة ومحطَّ اهتمامِ من أُحب.. فهل سأتمكّن من ذلك؟!

ثلاثة أيّام مرَّت ببطءٍ كنتُ خلالها أسيرةَ «المضافة».. لم يسمح لي والدي بالخروج مطلقاً، خوفاً من أن أتسبّب بأيّ أذى أو إزعاج لأهالي القرية الذين احتضنوا ضياعنا ذات ضعف، وقدّموا لنا ما يستدعي انحناءةَ تقدير.

واليوم حان موعد الرحيل.. سنكمل طريقَ اغترابنا إلى مجهولٍ قصدناه منذ البداية، وكلّنا أملٌ في أن يضم بين جنباته خيراً وهدأةً وسلاماً، فنستعيض به عن خسارةٍ كبيرةٍ لاستقرارٍ كنّا فيه ولأرضٍ انتمينا إليها وعشنا فيها هزائمنا وانتصاراتنا.

حزمنا روحَنا مع أمتعتنا القليلة، ووضَعنا عابِر في عربة أطفال مستعملة أهدتها لأمّي إحدى نساء القرية، وانطلَقنا إلى الطريق العام في سَعيٍ لركوب حافلةٍ تُقلّنا إلى المدينة. المخطّط الذي رسم معالمَه أبي يقضي

بأن نلتقي صديقاً له سبقنا في النزوح، وسيتكفّل بمساعدتنا على تأمين إقامتنا ومعيشتنا..

لم يطُل انتظارنا فقد مرّ باصٌ صغيرٌ يحمل عدداً من الرّكاب أقلّنا معه إلى وجهتنا. استمرّت رحلتنا ما يقارب الساعتين كنت خلالها متيقّظة تماماً وفي حال استنفار لكل الجوارح حتى أتمكّن من تنفيذ رقابةٍ مشدّدة على جميع القرى والبلدات والطرقات، ولأُمعن النظر في أدقّ التفاصيل.

كلّ شيءٍ تجلّى مختلفاً عمّا عرفتُه في حياتي السابقة التي كنتُ فيها حبيسةَ قريتنا والمناطق المجاورة لها. المشاهد حيث قضيتُ طفولتي تشابهَت في طبيعتها وبيوتها البسيطة وطرقاتها الملتويّة. أمّا هنا، فتمّة اختلاف وتنوّع. قطعنا قرى صغيرة بسيطة، وبلدات واسعة خاضعة لتصميمٍ هندسيّ بديع.. بعض الشوارع التي عبرناها تجلّت ضيّقةً تكاد جدران المنازل تطبق عليها، وبعضها الآخر كان بامتدادٍ مريحٍ للنظر مع رسوماتٍ تتقاطع عليه لتساعد السائق على تحديد وجهته وتضفي على الطريق جماليّة فريدة.. أمّا عن البساتين التي أَلِفتُ الحياة وسط خضرتها، فقد بهرني تنوّع أشجارها المثمرة التي لم أعرف لها وجوداً من قبل.

عندما شارفنا على الوصول إلى المدينة، بدأ المشهد يأخذ مساراً مختلفاً، فالمباني صارت أكثر علوّاً وتنظيماً والطرقات برحابةٍ مُلفتة. باتت السيارات أكثر ازدحاماً، حتى البشر ازدادت أعدادهم بشكلٍ ملفت. أنا لم أزُر مدينةً من قبل، ولا سبق لي أن تخطّيتُ عالم القرية بجمالياته الفريدة. لذلك، غرقتُ في سحر المكان وتراءى لي عجائبيّاً.

رحتُ أُمَنّي نفسي بالسكن في إحدى هذه العمارات الشاهقة وأتصورني ألهو على إحدى شرفاتها بديعة الرؤية.. أصابتني الدّهشة في الصميم ولم أستيقظ من شرودي إلا مع وقوف الباص وخلوّه من الرّكاب.

وقفت مع عائلتي على الرصيف، وسط ازدحامٍ وصخبٍ كبيرين.. الثرثرة في كلّ مكان والباعة المتجوّلون يعرضون بضاعتهم المتنوّعة بين ساعات ومناديل ورقيّة وغيرها.. وينادون عليها بأصواتهم الخشنة.. سيّارات تمرّ مسرعة، وأخرى بطيئة في سيرها وتصدح منها الموسيقى بأعلى صوت.

مع هذا الضجيج، دخل عابِر حالةَ صراخٍ هستيريّ ليزيد من جنون المكان ويرفع مؤشّر البؤس في انتظارنا القابع «على ناصيّة الحلم».

غادرنا الرصيف بعد مكالمةٍ هاتفيّة مع صديقٍ أجراها أبي من هاتفه المحمول.

في تقدّمنا أثار تعجّبي التمايز الكبير بيننا وبين العابرين. الرجال هنا لا يضعون «الشماغ» مثل أبي بل يسيرون برؤوس عارية، حتى العباءة لا وجود لها على أجسادهم حيث تمّ استبدالُها بقمصان وسراويل متعدّدة الألوان. أمّا عن السيّدات فالتماثل كبير بينهنّ وبين الدّمى في أدقّ التفاصيل: الملامح، لون الشعر وتسريحته، والفساتين المزركشة بألوان قوس قزح.. النساء عندنا مختلفات، وجميعهنّ كأمّي يتنقّلن ب«الدفّة» وهي عبارةٌ عن عباءةٍ سوداء ومعها «الشيلة» كغطاء يوضع على الرأس.. حتى ملابسي لا تشبه ما عاينتُه في الفتيات الصغيرات. فستاني طويل بلون

أسود وعليه خطوطٌ حمراء تقطعه من الأعلى إلى الأسفل ويحيط بخصري حزام من قماش أحمر يعتصر بدني ويُحكم قبضته على أردافي.. أمّا عن لون البشرة، فلا أحد هنا يُشبهنا مطلقاً.. نحن كسوانا من أهل قريتنا، ببشرةٍ سمراء مع احمرارٍ يزيد من قتامتها، أمّا عن ساكني هذه الأرض الجديدة، فتتلوّن بشراتهم بين بيضاء وقمحية وسمراء.. فعلاً نحن مختلفون!

في سيرنا شعرتُ بكثيرٍ من العيون تَرقُبُني، ولمستُ اشمئزازاً في النظرات والحركات.

ربّما يزعجهم الاختلاف! أو ربّما يكون المبرّرُ في مسافاتٍ قطعناها وأصابتنا بتعبٍ وتعرّقٍ دون أن نتمكّن من الاستحمام.! مهما كان السبب، فإنّ سلوكاً معادياً كهذا أصابني بخيبةٍ، حاولتُ قدر الإمكان أن لا أُذعنَ لها، وأحافظ على تصوّراتي الورديّة وأحلامي التي شرَعتُ ببنائها في الخيال.

***

عند مفترقٍ متعدّد الاتّجاهات توقّف أبي، راح يتطلّع يمنةً ويُسرةً في محاولةٍ لاستقصاء المكان والتأكّد من سلامة وجهتنا، أو ربّما بحثًا عن شخصٍ ما. تراءى على ملامحه القلق وكأنّه ضلَ الخُطى. أمسك هاتفه وكرّر محاولاته للاتّصال دون جدوى.

بدت عليه الحيرة، غير أنّه سرعان ما استجمع صلابته ودعانا للجلوس على مقعدٍ حجريّ مستقرٍّ وسط الرصيف. شدّتني السيارات العابرة البالغة الفخامة، ورُحت أرقُب من بداخلها لأتعرّف إلى طبيعة من يملكون تلك العجائب الساحرة. لمحتُ في واحدةٍ منها فتاةً صغيرة بشعرٍ أشقر طويل تجلس خلف السائق وتطلّ من الشباك مع كلبٍ يدلي بلسانه وكأنه على وشك الشروع في عمليّة اللَعق.. سيّارةٌ أخرى رباعيّة الدّفع أبصرتُ صاحبها بشعره الطويل المتطاير مع الهواء، وقد أخرج ساعده العاري الموشوم بعشرات الرسوم، من نافذة السيّارة وثمّة غليونٌ أسود قابع بين أنامله.

سيّارةٌ حمراء صغيرةٌ ركنَت قرب الرصيف، وأمام المقود جلست فتاةٌ فائقة التبرُّج.. فاحت رائحة عطرها لتخترق شعيرات أنفي وتسبّب لي عطاسًا قويّـًا.. صارت تنظر في ساعة يدها وتتأفّف، وعندما حانَت منها التفاتةٌ إلينا أصابتها دهشةٌ ما لبثت أن تحوّلَت إلى تقزّزٍ أغرق ملامحها بتعابير تنمّ عن قرفٍ وغثيان. وفجأةً تناست وجودنا عندما أقبل شابٌ وسيمٌ ألقى عليها التحيّة وركب السيارة التي انطلقت بهما، وصوت الموسيقى المنبعث منها يدُكّ الأرض تحتنا ويسبّب ارتجافًا للعربة التي يغفو بداخلها عابِر

غريبون أولئك البشر! أو ربّما قد نكون نحن من يحمل راية الغرابة في هذا الحيّز المكاني!

أشعر وكأنّي اثنتان متصارعتان.. أرغب بأن أكون جزءاً من عالمٍ سحريٍّ بهرني بحيثيّاته وغرائبيّته، وفي توقيتٍ موازٍ أحسّ بي أنتمي إلى مكانٍ مختلفٍ تسود فيه البساطة بعيداً عن تعقيدات أراها هنا في كلّ الملامح والوجوه.

جلسنا طويلاً على المقعد الحجريّ، وطال المكوث.. لم يأتِ أحدهم إلينا، ولا جاءنا صوتٌ عبر الهاتف ليحمل إلينا تأشيرة عبورٍ نحو السكينة!

بدأت الشمس تميل نحو الاحمرار، وخفت ضوؤها بينما عبَرَت نسمةٌ ارتعش معها جسدي الهزيل. تطلّعتُ نحو أبي وبين نظراتي يرتع ألف سؤال.. فجميعنا بحاجةٍ إلى الراحة بعد نهارٍ حافلٍ باللاشيء والجمود، ونحن هنا لا نملك سوى الانغماس بمزيد من الرّيبة والالتباس.. ارتباك والدي تراءى جليّاً في حركات أنامله واهتزازٍ هيمن على رجليه. أمسك هاتفه ومجدّداً بدأ محاولاته المتكرّرة للاتصال بصديقه. وفي هذه المرّة جاءنا الخذلان من الهاتف الذي توقّف، على حين حاجة، بعد أن نفذت «البطارية» فأمسينا في مهب الضياع..

يا إلهي.. ما كلّ هذا التّيه!

لم أتجرّأ على التوجّه لأبي بأيّ حديث، فهو يغدو شرس الطّباع عندما يستحوذ عليه التوجّس، وفي هذا الحين يبدو غارقاً في قلقٍ لا حدود له.. لكنّني في غاية التعب والتضجّر، ولم أعد أطيق المكوث في هذا المكان الذي حفظت أدقّ تفاصيله وبات تكرار المشاهد فيه ثقيلاً على النظر.

شيءٌ وحيد استمرّ في اجتذاب انتباهي، وأمضيتُ كثيراً من الوقت في تأمّله دون أن يصفعني الملل.. منزلٌ في الطابق الثالث من عمارةٍ ضخمةٍ تطلّ من ناحيةٍ على الطريق العام الصاخب بمحّلاته وسياراته وعابريه، ومن ناحية أخرى تبدو رؤيته مكشوفةً على حديقةٍ عامةٍ كثيفة الأشجار.. ما لفتني في شقّة الطابق الثالث، شرفتُها التي تراءت أشبه ببستان ورد مختلف الأشكال والألوان. ووسط هذا التنوّع استقرّت أرجوحةٌ تشبه تلك التي طالما رأيتني في أحلامي أجلس عليها وأطير فوق البادية لألمح امتدادَها والكثبان الرمليّة التي تقطع انسياب الفراغ، ثمّ ترتفع بي لأصير ملاصقةً لسحابٍ أبيض شبيه بالقطن المحشو داخل مخدّتي الصغيرة..

كم أشتاق إلى بيتي وأغراضي وحديقتي حيث نما ظلّي.. وكم أحلم باستقرارنا في شقّةٍ تملك ذات الشرفة الغنّاء.. سأطلب من أبي أن يبتاع لي أرجوحةً أيضاً.

فعلاً.. أنا في غاية الحماس للتعرّف على المنزل الذي سنقيم فيه.. تُرى في أيّ مبنى سيكون!

كم أرغب في الوقوف على شرفةٍ مرتفعة لأرقب المدينة من فوق.. عسانا نقطن في الطابق العاشر، عندها ستكون الرؤية مبهرةً بالتأكيد..

إثر هذه الأفكار انبعثت من رئتَيّ تنهدات عفويّة تلقاها أبي بالتفاتةٍ نحوي، ثمّ وباستسلام قال: «لا أعرف متى سيحضر صديقي الذي أوصاني بانتظاره.. لا أملك وسيلةً للتواصل معه، وبالتأكيد لن نتمكّن من المغادرة قبل أن يأتي، الأفضل أن نبيت مكاننا، تفادياً لأيّ مخاطرة قد تكون سيّئة العواقب»

يا إلهي.. كيف سنبيت هنا على الطريق؟ أين سنستلقي؟ لم يحدث أن فعلنا شيئاً مشابهاً من قبل!

أريد أن أعترض.. أن أمارس تمرّداً واضح المعالم.. أن أبكي وأعبّر عن يأسٍ أخذ يُنشب مخالبه في قلبي، غير أنّني آثرت الكتمان فوَضعُنا لا يحتمل مزيداً من بؤس المشاعر.

من طول الجلوس، شعرت بآلامٍ في ظهري ومفاصلي وأكتافي وفي كلّ جزءٍ من جسدي الواهن. لكن الظلمة التي بدأت تتغلغل بين ثنايا الضوء، حالَت دون حركتي، فلزمتُ مقعدي بينما استمرّ الوجع بالتمدّد فوق خارطة جسدي راسماً تشنّجات وتقلّصات في أكثر من زاويةٍ ومفصل..

لو أن صديق أبي يأتي ويُنجدنا من أزمةٍ بدأت تستنفذ تفاؤلنا، فسأحمل له في قلبي كل محبّةٍ وتقدير، لكنّه تلاشى كومض برق.. كرفّة هدب.. كسراب.. وأودَعَنا في مهب الضياع.

اشتدّت الظلمة فوق رؤوسنا، وأغلقت جميع المحلّات التجاريّة أبوابها.. نسمةٌ باردةٌ بعض الشيء لفحت وجهي فتقوقعتُ على ذاتي وأسدلتُ أهدابي في محاولةٍ لتفادي وَحشةٍ تسلّلَت مع العتمة إلى أعماقي.. وعلى غفلةٍ من ريبتي، انغمستُ في إغفاءةٍ عميقةٍ أبعدتني عن سطوة الخوف ووجع الترقُّب.

«كنت أمشي على رصيفٍ واسعٍ في توقيتٍ مسائيّ، وأنوار الأعمدة الكهربائيّة تملأ المكان. العديد من المحلّات التجاريّة الضخمة أضافت بأضوائها إبهاراً وسحراً.. بعضها هذه يعرض سيارات باذخة الرفاهة، وبعضها الآخر تمتلئ واجهاته بفساتين تحاكي الفراشات بألوانها وأشكالها،

وبعضها يحتوي دمى لطالما راود خيالي حلم اقتنائها.. وعلى حين بغتة، ركنَت قربي سيّارةٌ حمراء صغيرة وانسكب منها جسدٌ طريّ لفتاةٍ قائقة التبرّج وشابٌ بشعرٍ طويلٍ وأوشامٍ تملأ جسده وذراعيه.. توقّفتُ برهة لأرقبهما، فإذا بهما يقتربان منّي وتبدأ الفتاة بتوجيه السباب واللعنات لي وتطلب منّي المغادرة فوراً، فالمكان لا يليق بأمثالي.. لم تكتفِ بذلك بل أمسكت فستاني وشدّته بعنفٍ ممّا أدّى إلى تمزّقه في أكثر من مكان، ثمّ راحت تقهقه باستهزاء.. أصابني الفزع بالجمود.. وفجأةً تبدّلت ملامح المكان، فالأضواء تلاشت والمحلّات التجاريّة غدت خرابات ممتدّة على مدّ النظر. انطلقتُ أعدو دون أن أدرك مقصدي، والعرق يتصبّب من جسدي الذي أخذ بالتخاذل شيئًا فشيئًا، حتى وجدتُني أهوي في عمقٍ معتمٍ سحيقٍ.. رحت أصرخ بملء فزعي الذي استشرس كما لم يفعل من قبل».

انتفض بدني بقوّةٍ واستفَقتُ مع يد أمّي وهي تمسح على شعري وتوشوني بكلماتها الطيّبة لتهدّئ من رعشة بدني. كنت أضع رأسي في حِجرها وأمدّد ما تبقى من جسدي على المقعد الحجري. تطلّعت حولي باستغراب وشعرتُ بي بدون ذاكرةٍ ولا حاضر، وضربني الهلع.. لمسات أمّي ازدادت حُنوّاً مع ارتعاش جسدي، واستحال حضنها وطنًا امتصّ غربتي ولملم انتشار روحي حتى التأمتُ مع ذاتي وواقعي من جديد.

«ألم يأتِ صديقك أبي؟».

سألتُه وأنا على يقينٍ من إجابةٍ لن تحمل إلّا مزيداً من الحسرة والترقّب.. أشار أبي برأسه علامة النفي، ثمّ عاد إلى إحصاء المال الذي بين يديه، وإجراء عمليّةٍ حسابيّةٍ على ورقةٍ أخرجها من جيب عباءته.

نحن بالتأكيد لا نملك المال الكافي للمبيت في فندق، فالمدينة هنا تبدو باهظة التكاليف، وما بحوذتنا لا يكفي إلا لتغطية مصاريفنا الضروريّة خلال فترةٍ قد تطول، ريثما يعثر أبي على عملٍ ملائمٍ يوفّر لعائلتنا دخلاً واستقراراً وأمانًا..

كانت أمي قد التزمَت صمتها منذ ساعات، ولم أسمع لها كلامًا إلّا لتجيب باقتضابٍ عن سؤالٍ محدّد. ملامحُها توحي بالسّخط والنّقمة، وبين عينيها ترتع حسرةٌ عمرُها ارتحالٌ ولجوء..

منذ البداية، عارضَت أمي فكرة الرّحيل، ووجدَت في فَقدنا لبيتنا وأرضنا إندثاراً لأحلامنا، والتباسًا في انتمائنا وهويّتنا.. قاومَت كثيراً فكرة الهروب من وطنٍ اعتدنا جنونَه وتآلفنا مع جَدبِه وخصوبته، لكنّ الخيبةَ انتظرَتها خلف عتبة كلّ محاولة.. والآن، أشعر بها على شفا انفجار.. لكنّها ما زالت تكابر كعادتها وتُمعن في احتضان صبرها.

تُرى هل سنعثر على استقرارنا في هذا المكان النابض غربةً، أم أنّنا سنتعثّر بيأسنا ونفقد ذاتَنا الحالمة ونمسي أغرابًا بدون ظلال تورف أرواحنا المنهكة؟!

***

قضينا ليلةً بطعم التشرّد ونكهة الضياع.. لم يُغمَض فيها لأبي جَفنٌ وهو يتولّى حراستنا من أيّ متطفّلٍ قد يقتحم خَلوتنا المُباحة..

مع إشراقة الشمس، صحوتُ على أوركسترا من ضجيجِ وجعٍ وأسئلةٍ، راحت تعزف سمفونيّتها في رأسي. كان الناس قد بدأوا يعودون لصخبهم ويزرعون الطرقات بخطواتهم وهدير أحلامهم. شعرتُ في معدتي بوخز إبَرٍ صار يزداد شيئًا فشيئًا حتى استحكم منّي واستحال قَرعًا منتظمًا كاد يقطّع أحشائي. ودون أن أتمكّن من النهوض عن المقعد الحجريّ، صرختُ من وَهَنٍ وأخذ أنيني يعلو ممّا لفت انتباه المارّة الذين صاروا يتجمهرون حولي وارتفع عددهم حتى أوشك صدري أن يُطبق على الأنفاس.. بدت أمّي في ذروة الذعر وهي تمسح على رأسي، أمّا أبي فوقف حائراً لا يدرك لحلٍّ طريق..

من فرط الوجع فقدتُ قدرتي على التركيز، وصار الأفراد مجرّد ظلالٍ بلا ملامح.. تراءى إلى سمعي صوتٌ يطلب إنهاء التجمهر، إفساحًا في المجال أمامه لمُعاينتي..

القَدَر وإن بدا قاسيًا في بعض الأحيان، لكنّه حتمًا سيحمل بين ثناياه لُطفًا وتيسيراً لعُقدٍ نظنّ بها أوغَلَت في العناد.. هكذا، ومن الفراغ أتاني طبيبٌ ليعاين ذبولي لحظةَ تشرّد.

لا أدرك زمنًا لغيابي وغيبوبتي، لكن مع يَقظتي كان المشهد قد تبدّل، فلا جمهور يَرقُبني ولا طبيب يُعاينُني.. وأنا، غارقةٌ في دفء أمّي التي أَبَت إلّا أن تحتضن وجعي، رغم طمأنة الطبيب لها أنّ ليلةً باردةً سبّبت بؤسَ حالي، وقليلٌ من الدّفء سيقدّم الحلول..

كلّ ذلك، وذاك الصديقُ المنقذُ لم يكن قد أتى بَعد!

لو أنّه حضر في موعده، لكنتُ الآن في أحضان سريري أهنأ بإغفاءةٍ ناعمة، أو ربّما أقف على الشرفة وأطلّ على المدينة بامتدادها الجميل وأُعاين تفاصيلها وخباياها.. أمّا لو صادف وجثا منزلنا في طابقٍ أرضيّ، ربّما كنتُ في هذا التوقيت ألعب في حديقته مع ظلّي، وأقيم في عودَته ولقائه احتفالاً مهيباً.

الاحتمالات في الخيال كثيرة وكلّها بطعم السكّر وعطر الياسمين، أمّا الواقع فكئيبٌ ولا ينتمي إلى الجمال في شيء.

لقد سئمتُ من هذا الرصيف، وتلك المحلّات فادحة الغلاء.. ومن ذلك العجوز العبوس الجاثي على الرصيف المقابل، أمام محلّه التجاريّ.. مللتُ مراقبة السيّارات الفاخرة وراكبيها، وحتى تلك الشّرفة الغنّاء بأرجوحتها الأسطوريّة باتت مبعثًا للتضجُّر.. أشعر بحقدٍ على مقعدنا الحجريّ، رغم معروفٍ قدّمه لنا، فلولا وجودُه لافترشنا حجر الرّصيف حيث داست الأقدام والنِّعال.. لكنّه في المقابل، خُذلاننا الأوّل الذي منحنا تأشيرة عبورٍ نحو عذابٍ قد يغدو رفيق لجوئنا!

كانت الشمس قد توسّطَت السماء، ويات الحرّ شديداً، ونحن ما زلنا على مقعدنا حاضن لجوئنا وشتاتنا! وعابِر الصغير، هذا المسكين الذي أصرّ على دخول عالمنا بلهفةٍ رغم شظف الظروف، لم يهنأ حتى الآن ولو بلحظة أمان..

وجودنا على الرّصيف قوّض خصوصيّاتنا جميعاً، لكنّ عابِر بدا الأكثر معاناةً بيننا.. فبينما استخدمنا في قضاء حاجتنا دورة مياه تابعة لمطعم صغير،

اضطرّت أمّي أن تلجأ إلى تغيير حفّاضة عابرٍ في الطريق، في كلّ مرّةٍ لجأ فيها إلى قضاء حاجته.. وما أكثرها من مرّات!

منذ أن خطونا خلف حدود الوطن ووطَأنا الأرض الجديدة خوفًا من فَقدٍ وبحثًا عن انعتاقٍ لأرواحنا قبل الجسد، أخذت حرّيتنا تخسر بريقَها شيئًا فشيئًا وبِتنا أسرى مجهولٍ وانتظارٍ مَقيت..

ما أقبح أن يكون الفرد معطوبًا دون إعاقة، وبروحٍ متلَفةٍ رغم عشقه للحياة.. العجزُ شرس.. والأصعب هو الشعور بالتيه والشَّتات، والفَقد لأبجديات الحلم..

كنت على وشك أن أطلب من أبي الانتقال إلى أيّ مكانٍ آخر نمارس فيه طقوسَ انتظارنا البائس، لكنّ شروده العميق دفعني إلى ابتلاع كلماتي، والاكتفاء بتوجيه نظراتٍ فيها من السأَم والتعب ما يفيض عن سطور رواية.

وأخيراً بعد ترقّبٍ وانتظارٍ وسأمٍ وسخط!

انتصب أمامنا رجلٌ بسَمارٍ شديد وعينين واسعتين وشعر متهدلٍ يصل لحدّ الكتفين. بدا فائق الهَزال وتجلّى بملامحه أقربَ إلى هيكلٍ عظميٍّ.. كنتُ ما أزال غارقةً في تأمّله، عندما صدح صوت أبي عاليًا وأجفَلَ دهشتي وشرودي.

«أسعد.. أين أنتَ يا رجل؟ تأخّرتَ كثيراً عن موعدك حتى أنهكَنا الانتظار.. سأنتقم منك أشدّ انتقام».

ثمّ، وبحماسٍ شديدٍ، احتضَنا بعضهما بقوّةٍ، وراح أبي يُرَبّت على كتف العمّ أسعد وكأنّه يحصي كنزاً عثر عليه بعد طول بحثٍ وتنقيب.. وبعد لقاءٍ شهيّ التحيّات والأحضان، التفت أبي إلينا مقدّمًا صديقه الذي غدا جسرَ

عبورنا نحو الأمان.. ولأوّل مرّةٍ منذ ارتحالنا، تهلّل وجه أمّي، وراحت بسرعةٍ تلملم أغراضنا وتدكّها في الحقيبة بعشوائيّة متمتمةً بكلماتٍ غير مفهومة.

اعتذر العمّ أسعد كثيراً عن تأخيره، مؤكّداً أنّ حادثة وفاة زميله في العمل إثر سقوطه من الطابق السابع كانت سبباً في ذلك، فقد احتجزَت الشرطة جميع من كان حاضراً لإجراء تحقيقات ريثما يتمّ التأكّد من قدريّة الحادث وعدم وجود أيّ شبهةٍ جنائية..

وأخيراً.. ستنتهي رحلة شَقائِنا، وسنخطو نحو تربةٍ خَصبةٍ وُعدنا بها، وأقبلنا إليها بكامل لهفتنا ورَهافة أحلامنا.. ومنذ هذا التوقيت سنُودِع خوفَنا حقيبةَ سفرنا المهترئة كوطنٍ ينزفُ وأرضٍ تَبور..

سيُقِلّنا العم أسعد في سيّارته إلى مكان إقامتنا الجديد. يكاد الحماس يرفعني عن الأرض ويُحيلُني سحابةً تَعبُر وتُحلِّق دون أن تُعيقَها حدود.

سِرنا مسافةً طويلةً بعض الشيء، باعتبار أنّ العمّ أسعد ركن سيّارته بعيداً، ثمّ توقّفنا بالقرب من محلٍّ يبيع الملابس النسائيّة الفاخرة. تراءى ذلك جليّاً من ضخامة الواجهات ونوعيّة الملابس المعروضة.. تُرى، هل حياتُنا هنا ستفرض علينا تغيير ما نرتديه واقتناء ملابس كتلك المعروضة في الواجهات أو تلك التي أراها على أجساد العابرين؟!

رحتُ ألتفتُ في سَعيٍ لاقتناص السيّارة. لم يكن في المكان سوى «فولز» صغيرة ومتهالكة كتلك التي امتلكها جارنا في القرية، واستخدمها في نقل الخضار إلى السوق.

تقدّم العمّ أسعد من «الفولز» وبمفتاحٍ صغيرٍ راح يمارس طقوساً غريبةً وعنيفةً بعض الشيء، حتى استجاب له الباب وفُتح مصدراً صريراً ينمّ عن صدأ استحكم من مفاصلها، ثمّ تقوقعنا مع أغراضنا فيما يشبه علبةَ سردين.

الطريق تراءت طويلةً.. عبرنا بدايةً في شوارع واسعة حيث العمارات الضخمة والحدائق العامّة المزروعة بين المباني.. وشيئاً فشيئاً بدأت الطرقات تضيق والأبنية تفقد فخامَتَها، حتى ولَجنا إلى منطقةٍ صناعيّةٍ بعماراتها القديمة التي أصابها الزمن بعَطَبٍ هنا وتآكلٍ هناك.. استمرّت سيّارة العمّ أسعد بالتقدّم مع ارتجافٍ وصريرٍ، حتى استحالَت المشاهد أكثر بؤساً وغابت كل مظاهر الرّفاهيّة والجمال.

خلال ما يقارب السّاعة، والسيّارة تَجوب بنا الطرقات وتنتقل من مكانٍ بائسٍ إلى آخرَ أكثرَ شقاءً.. أين تلاشَت مظاهر الترَف! وأين هي المدينة التي سطرَت بزَهوِها علامات انبهار!

شعرتُ بانقباضٍ في معدتي وأنا أرى السيّارة تنحرف بنا عن الطريق العام، وتدخل طريقاً ترابيّاً ملتوياً داخل بستان ليمون. اشتدّ تقلّص أمعائي عندما تجلّى أمامنا، في البعيد، مشهدُ أكواخٍ من تنكٍ متراصفة جنباً إلى جنب وفوق بعضها البعض في عشوائيّةٍ قبيحةٍ مؤذيةٍ للنظر والخيال..

فجأةً، راحت السيّارة ترتجّ بنا وتهتزّ، محدثةً اضطراباً في أمتعتنا التي وقع بعضها من الحقيبة المهترئة دون أن نتمكّن من لملمتها. الطريق التّرابيّ غدا أكثر ضيقاً وغزَته الحفر كما لو أنّ حرباً اشتدَّت طقوسُها في هذا الحيّز المكاني. نظرتُ إلى أمّي بتوسّلٍ وكأني أدعوها لتمنحني أماناً، وتُطَمئِن قلبي الصغير.. لكنّها لم تفعل!

ملامحُها بدت متصلّبةً متوتّرةً ناقمةً ومشبعةً بكلّ مآسي الكون وشَظَفِه..

وحتى لا أسترسل في الفزغ أشَحتُ نظري باتّجاه البساتين التي تراءت مُوحِشةً تبعث على ارتعاش الروح.. قشعريرةٌ سَرَت في كامل بدني وتسبّبَت في رجفةٍ لم أتمكّن من السيطرة عليها، فأخذ المقعد تحتي يرتجف بشدّة. في هذه المرّة لم تمتدّ يد أمّي لتحتوي ارتباكي، بل استمرّت باردةً يعتريها شحوبٌ في المشاعر، فلا هي مسحَت شعري ولا ربّتَت على كتفي!

توغّلت السيّارة أكثر داخل البساتين حتى أصبحت خارطةُ طريقنا واضحةَ المعالم.. فها هي بيوت الصفيح قد باتت قاب قوسين من مرمى أنظارنا.. حتماً، نحن متوجّهون إلى هناك!

«ها هو المخيّم يا صقر.. بعيدٌ بعض الشيء عن قلب المدينة، لكن أعتقد أنّ مختلف احتياجاتكم متوفّرةٌ هنا.. الحمد لله على سلامتكم».

ما إن تفوّه العمّ أسعد بهذه العبارة، حتى فقدتُ اتّزاناً كنت أعمل جاهدةً على ارتدائه.. وبكلماتٍ عشوائيّةٍ وصراخٍ مباغتٍ رحت أمارس اعتراضاً وتمرّداً قبل أن أغرق في بكاءٍ مرير. احتضنتني أمّي بحرارةٍ، ويدُها التي ضربها الصقيع استعادت بعضاً من دفئها، فتغلغلت بين خصلاتي وبأناملها الرقيقة أخمدَت سيلاً من حِمَم بركاني.

توقفّت «الفولز» قرب كشكٍ صغير يرقد على عتبة المخيّم، وأمامه يغفو عجوز سبعينيّ.. «حَجّي.. علبة سجائري المعهودة، لو سمحت».

فتح العجوز عينيه، ودون أن يتحرّك مدّ يده إلى كرتونة بسكويت مستقرّة على رفٍّ قريب، وسحب منها علبة سجائر منحها للعمّ أسعد الذي نَقَدَه المال.

الكشك صغيرٌ جداً ولا يمكنه أن يجمع شخصين في آنٍ واحد. هو عبارة عن علبة صفيح رابضةٍ قرب شجرة ليمون معمّرة، وكلّ من يرغب دخولَ المخيّم لا بدّ وأن يعبر أمامَه ويحرّك عجلة اقتصاده، حتى لا ينال حظّه من الشتائم واللعنات من ثغر العجوز.

يحتوي الكشك عدداً قليلاً من الرفوف التي تتراصف عليها بضائع متنوعة بين معلبات وأدوات تنظيف وأطعمة مختلفة.. والحَجّي ليس مضطرّاً إلى التنقُّل، فمن مكان جلوسه وبحركةٍ صغيرةٍ من جسده، يستطيع أن يمسك معظم الأغراض ويقدِّمها للزبائن.

فجأةً، تململ العجوز، تثاءب، وصوّب تجاهنا نظراتٍ حادّة المظهر، متجعّدة الرّؤية، ثمّ وبصوتٍ مرتجفٍ ضربه الجفاف قال: «إذاً هؤلاء هم اللاجئون الجدد! أهلا وسهلاً بكم في مخيّمنا الصيفيّ، أتمنى أن تقضوا أوقاتًا هنيئة».

وصدح بضحكةٍ مجلجلةٍ هازئةٍ، لم أتوقّع أن تصدر عن حنجرةٍ مُعمِّرَةٍ كالتي تخصّه.. وبعدها عاد إلى وضعيّته السابقة، واستغرق في إغفاءةٍ عميقةٍ وكأنّ شيئًا لم يكن.

تقدّمت بنا السيّارة داخل شوارع المخيّم الترابيّة.. دهليزٌ وراء آخر وبيوتٌ من صفائح معدنيّة متكدّسة بجوار بعضها البعض على يمين الطريق ويساره، حتى يشعر العابر وكأنّها على وشك أن تعتصر بدنه وتُطبق على أنفاسه. رائحةُ نفاياتٍ عبقَت في المكان فاهتاجت جيوبي الأنفيّة ودخلتُ حالة عُطاسٍ متواصلٍ.

حبالٌ ممتدّةٌ من منزلٍ إلى آخر، تتقاطع فوق الطريق الترابيّ، ويتدلّى منها الغسيل مشكّلاً حواجز وهميّة لا تلبث أن تتلاشى بمجرّد مرور السيارات تحتها.. بعضُها يحتفظ بمكانه وبعضها الآخر يَعلق في واجهة السيارات إثر عبورها ويرافق أصحابها في رحلتهم التي قد تقصر أو تطول..

وما أثارني حضور أعدادٍ كبيرةٍ من الأفراد، كباراً وصغاراً، كانوا منتشرين في أرجاء المخيّم، والكلّ بدا على طبيعته وغير مبالٍ أو منزعجٍ من أيّ مظهرٍ سلبيّ.. وما رفع مؤشر امتعاضي ذلك الضجيج الذي ملأ فضاء المكان.. خليطٌ من صراخ أولاد يتخلّله شتائم ولعنات، وأنين آلاتٍ حادّة بعضها يهدر وبعضها الآخر يصدر زئيراً يصمّ الآذان..

هو عالمٌ مُريبٌ أثار استيائي، وجرّدني من رواسب هدأةٍ احتفظتُ بها بين تلابيب الوجدان..

يا إلهي، ما كلّ هذا الشظف وهذه البشاعة!

فجأةً، توقّفت بنا السيّارة أمام منزلٍ من صفيح يماثل سواه في البؤس، وأشار العمّ أسعد إليه قائلاً: «هذا هو منزلكم الجديد.. أتمنّى أن تجدوا فيه قدراً من الرّاحة، ريثما يأذن الله بعودةٍ إلى أرضنا في أمان».

ومنذ ذلك التوقيت انتهت سطور الخرافة، وصرنا نترنّح بين هامشٍ وآخر، في محاولةٍ لجمع ما انتثَر من روحنا، وسعياً للاحتفاظ ببعضٍ من ذاتنا التي كانت قبل أن نخطو خارج الحدود ونخرج عن مدارنا في حادث وطنٍ مأساويّ.

اللّجوء

مواطنون دون وطن
مُطارَدون كالعصافير
على خرائط الزمن
مسافرون دون أوراق
وموتى دونما كَفَن

نزار قبّاني

اليوم أنا على وشك أن أمضي في قرارٍ مصيريّ..

تعبتُ لدرجة الاستسلام من يومياتٍ بائسة تنهش زمني، ويتآكل معها صبري وطاقتي للحياة.. التعامل مع الأفراد -هنا- صغاراً وكباراً، مُرهِقٌ رغم أنّني عشتُ بينهم ما يقارب التسع سنوات إلّا أنّهم ما زلوا غرباء عنّي.. لا أقصد بالتأكيد سكّان المخيّم، فهؤلاء يعيشون حرمانهم في صمتٍ، ويلتحفون بأمل العودة، مثلي تماماً.. منذ أن استقرَرنا في هذا التجمُّع اللا إنسانيّ، ونحن نرتشف عودتنا كلّ صباحٍ قهوةً مرّةَ المذاق.. لذلك كلّنا سواء في التعب والترقّب وحتى في الرزوح تحت خنجر «التنمُّر».

نعم.. أكثر ما يؤرق راحتي هم أولئك الذين يتقاطع وجودهم مع حضوري كلّ يومٍ سواء في الشارع أو المدرسة، ويُمطرون حقدَهم على ضعفي سخريةً واستهزاءً.. يكفي بنظرهم أن أكون لاجئةً لأصبح في درجةٍ إنسانيّةٍ أدنى، فما بالكم إن ترافق ذلك مع فقرٍ واضح الشظَف فيما أرتديه وحتى في تلك الدراجة الناريّة اللعينة التي وضعَتني تحت مجهر المتطفلّين وحشريّتهم دون أن أملك حقَّ التنازل عنها، لأنّها في تصنيف عائلتي تأتي في مرتبةٍ متقدّمة وبأهميّة أيّ فردٍ فيها!

وبالطبع فإنّ تمايز ملامحي الريفيّة ولهجتي البدويّة التي لم أتمكّن من التخلّص منها، كلّ ذلك ساهم في بناء حاجز نفسيّ حالَ دون تقبّل الآخرين لاختلافي، ولجوئهم إلى استغلال أيّ فرصةٍ ممكنةٍ لازدرائي وإهانتي بشتّى الطرق.

عندما كنا في أرضنا أقنعتني أمّي أنّني من أجمل الفتيات، حتى اعتنق تفكيري كلامَها وصرتُ أراني جميلة.. ولكن، بمجرّد أن قطعنا الحدود صار بيني وبين الحُسن دربٌ شائكٌ، أصعب من طريق اللجوء..

في البداية، لم أُعِر التفاتةً إلى تمايزي، بل استمتعتُ بحضوري المختلف دون أن أُنكر إعجابي بالآخرين، إلى أن وقعتُ أسيرة قُبح نفوسهم.

واليوم، بعد عمرٍ من الخيبات الروحيّة، وبعد أن تخطّيتُ عتبةَ طفولتي الكئيبة وتقدّمتُ بخجلٍ نحو عالم الصبا، صرتُ ذاتاً منهَكة. بات اختلافي وجعًا يؤرق أنوثتي، ويدفعني للتقوقع داخل شرنقة الوحدة والانشغال بفكّ عُقَدٍ أحكمَت قبضتها على تفاصيل أيّامنا، فغدَت ثقيلةً كامدة.

ومع ارتفاع منسوب فقرنا إثر حادثة أبي التي أودَت بحركته منذ عامين، انخفض مستوى أدائي الدراسيّ الذي كان يترنّح صعوداً وهبوطاً إلى أن استقرّ في أدنى المستويات. عجزُ والدي وضعني في مواجهة مسؤولياتٍ تراكمت على أكتافي باعتباري الأخت الكبرى في عائلةٍ مكوّنةٍ من أبٍ مشلول وأمٍّ تقضي معظم وقتها في خياطة الملابس النسائيّة وأربعة أولاد أنا أكبَرهم يليني مباشرةً عابِر طفلُ الحدود، ثمّ بَيدَر الذي ولد بعد استقرارنا في المخيّم بأربع سنوات وحمل اسم ساحةٍ في قريتنا البَيدَر والتي غدَت من ذكريات الزمن الجميل، وأخيراً العَنود الصغيرة التي عانَدَت ظروف أمّي الصحيّة وتعبَها وضنكَ معيشتنا وأبَت إلا أن تأتي وتضيفَ إلى عَوَزِنا طابعَ المُدقِع.. فجاء اسمها تتويجاً لإصرارها العنيد..

مسؤولياتي التي تكاثرَت وتشعَّبَت داخل المنزل وخارجه، بالإضافة إلى نفوري من محيطٍ اجتماعيٍّ رافضٍ لحضوري وخاصّةً في المدرسة.. كلّ ذلك حملني على اتخاذ القرار: لن أتابع الدّراسة.

بالتأكيد لم يأتِ قراري عشوائيّاً وعلى حين صُدفة، بل استنزف كثيراً من وقتي وتفكيري ومشاعري التي احتارَت، فتأرّقَت الجُفون.. وفي النهاية، كان خياري حاسماً وهو اعتزال التعلُّم.

نعم أنا فتاةٌ لا تليق بها الرّفاهيّة بأدنى مؤشّراتها..

مسؤولةٌ أنا عن المنزل بكل ما يحتاجه من تنظيف وغسيل وإعداد الطعام ورعاية الأولاد، بالإضافة إلى معاونة أمّي في عملها من خلال زيارة النساء وأخذ المقاسات وتوصيل الملابس الجاهزة، أضف إلى ذلك الدروس الخصوصيّة التي أعطيها من وقتٍ لآخر لأولاد المخيّم العاجزين عن الالتحاق بالمدرسة لأسباب مأساويّة.. وما أكثرها..

أمّا المهمّة الجديدة التي أضيفت إلى شقائي في الآونة الأخيرة تتمثّل بعمليّة توزيع إنتاجنا من الجُبن، والذي تولّت أمّي صناعته بحِرَفيّةٍ اكتسبَتها في قريتنا قبل أن تلتصق بنا صفّة اللجوء. جاء ذلك بعد ابتياعنا لعَنزةٍ استضَافتها أمّي لتقيم معنا في أحد أركان منزلنا العشوائيّ. وكلُّ ذلك تحت شعار ابتكار مصدر دخلٍ إضافيّ.

عمليّة توزيع الإنتاج اقتصرَت على عددٍ من البيوت، بعضُها قريبٌ من المخيّم وبعضُها الآخر كثير البُعد، ممّا يحتّم عليّ التغلغل داخل المدينة الصاخبة ثراءً وغُربة.

إزاء هذا الوضع الضاغط كان لا بدّ من قرارٍ عقلانيٍّ يأخذ بعين الاعتبار مصيرَ أُسرةٍ بالكامل.. وبالطبع بدَت التضحية حتميّةً في سبيل الاستمراريّة.

لستُ بوارد الاستعطاف، أو التجلّي بمظهر الفتاة المثاليّة التي تبذُل في سبيل الغير، لكنّ واقعًا فرض نفسه ولم يترك أمامي فسحةَ الاختيار.

هكذا إذاً، سأغدو الفتاة العاطلة عن العلم والفرح والحياة، وسأمضي في قراري دون الالتفات إلى الخلف. ستعارضني أمّي طبعًا وهي التي نسجَت مستقبلي بخيوطٍ من ذهب، وأصابها الكَمَد خوفًا عليّ منذ أن خَطَونا داخل المخيّم في ذلك اليوم الحزين، وتراكمنا داخلَه كالبضاعة في علبٍ من الصفيح الصّدئ.

أمّي هي الوحيدة التي عارضَت لجوءَنا منذ البداية، وعانَدَت وبَكَت، حتّى أنّها أصيبت بالحمّى واستمرَّت طريحةَ الفراش لمدّةٍ طويلة، غير أنّها في النهاية لم تملك سوى الإذعان لرغبة أبي والانسحاب من أحلامها التي خاطَتها بشغفٍ كفستان عروسٍ أبيض.

أمّي المسكينة دائمًا ما تقع أسيرةَ المرض إثر تعرّضها لأيّ ضغطٍ نفسيّ.. إنها وسيلتها الوحيدة للفرار من واقعٍ متسلّطٍ يغرز أشواكه في كلّ مرّةٍ بين ثنايا نبضها، ويستمرّ في التجريح حتى تعلن الاستسلام.

إذاً.. وأمام هذا الوضع، عثرتُ على ذاتي تائهةً وعاجزةً عن التصريح والبَوح. لا أريد أن أكون سببًا إضافيًّا في تعبها ووجع روحها المنهَكة، وفي توقيتٍ موازٍ لا أملك سوى المضيّ في التنفيذ حتى أتفرّغ كليًّا للعمل، دون إهدارٍ للجهد وبعثرةٍ للزمن.

أمّا عن أبي.. فالمسألة ما عادت تعني له الكثير!

منذ أن غدا مشلولاً صِرنا بالنسبة إليه كجسده المتيبِّس.. حاضرون ولكن كظلالٍ وخيالات. بات يقضي معظم وقته أمام باب البيت يَرقب المُقبِل والغادي، على كرسيّه شبه المتحرّك والذي تعثَّرنا به في نفايات إحدى مستشفيات المدينة. ولولا حركةُ عينيه لَظَنّه العابرون تمثالاً أو قطعةَ أثاث. هو لم يفقد قدرته على التركيز ولا حتى أضاع الأبجديّة، لكنّه آثر الصمت والنَّأيَ بنفسه عن كلّ ما يحيط به، حتى عن أسرته بعد أن كنّا بالنسبة إليه نبضَ حياة.

ما عاد يتحدّث مع أمّي، ولا يسألها عن أحوالنا ودراستنا ومتطلّباتنا وعن مدى كفاية المصروف.. يراها مُجهَدة فيُشيح بوجهه بعيداً عنها، وكأّنه بذلك يمحي صورة تعبها من ذاكرته في محاولةٍ للعيش بسلام.. حتى العَنود صغيرتُه المحبَّبة تناسى أمر وجودها، وصار شحيحاً عليها حتى بابتسامةٍ عابرة.

وبالطبع أنا تَرَف التي عشتُ جزءاً من طفولتي في كنفه كأميرة الحكايا، تدنَّت مرتبتي لديه إلى وصيفةٍ وربّما.. جارية!

صار يراني بعين الحاجة لا بعين العطف والحنان، واستَحَلتُ في نظره يداً عاملة، وعَونًا في الدَّخل، وسنداً في تحمّل المسؤوليات وإنجاز المهمّات.

لذلك أدرك أنّ قراري لن يؤثّر على مسيرة هَدأته، وربّما سيرى فيه صوابًا كان يُفترض به أن يحدث منذ زمن.. وبأسوأ الأحوال، سيغمض عينيه لدقائق ثمّ يعود بعد ذلك إلى شروده والتأمّل في فراغ الروح.

***

استيقظتُ باكراً، كعادتي حتى في أيّام العطلة المدرسيّة، لأتمكّن من التقاط طرف النهار والبدء بنسج أعمالي المنزليّة التي تستغرق وقتاً. اليوم هو بداية الأسبوع، والساعة لم تتجاوز الخامسة صباحاً.. لا أشعر برغبةٍ في إنجاز أيّ عمل، فقراري بات يتراقص في البال ويمنعني من التركيز، حتى في الفراغ.

ما زلتُ أُضمر نيّتي، وأخفي عن الجميع رغبتي في التنازل عن رفاهيّة التعليم، رغم أنّها ساعة الصفر.. وسأبدأ من اليوم نمطاً جديداً في العيش واللا حياة..

في مثل هذا التوقيت من كلّ يوم، كنتُ أنتفض من مَرقدي لأبدأَ العملَ دون أن ألتفت إلى أيّ تفصيل، حتى أتمكّن من إنجاز المطلوب قبل موعد المغادرة إلى المدرسة مع أخويّ.. أمّا اليوم، فذاتي مُحبَطة وتأبى أيّ عملٍ.

وقفتُ بكامل شَتاتي الروحيّ أرصد مكاناً احتضن لجوءَنا لسنواتٍ رغم خشونته وقسوة نَبضه. ورأيتُني ذات التفاتةٍ أرقب أفراد عائلتي في إغفاءتهم، ولأوّل مرّةٍ ألحظ فعليّاً مقدار بؤس المشهد!

أبي المُقعد يغفو على مقعده «شِبه المتحرِّك» سانداً رأسه على خزانةٍ خشبيةٍ لا يفصله عنها سوى مخدّةٍ رفيعةٍ لا تُسمن ولا تُغني من راحة.. وأمّي متقوقعةٌ على ذاتها في مساحةٍ صغيرةٍ جداً بين «كنبتين» مهترئتين على بساطٍ من «كتّان» وتشخر بصوتٍ مرتفع، في إشارةٍ إلى رفض جسدها ورئتيها لهذه الوضعيّة الجنينية. وغير بعيد عنها تتمدّد الصغيرة العَنود في سريرٍ صنعته أمّي من وعاءٍ معدنيٍّ كبير غطّته ببقايا أقمشةٍ ما عادت تستخدمها في خياطة الملابس. أما عن عابِر وبَيدَر فممدّدان في وضعيّةٍ متعاكسة على فراشٍ يكاد

لا يتّسع لحيوانٍ صغير، بحيث أنّ أيّ حركةٍ من أحدهما ستنتهي حتماً باستقراره على الأرض الاسمنتيّة المتشقّقة.

إذاً اليوم لن أنجز أيّ عمل في انتظار الموعد المناسب لإيقاظ عابِر وبَيدَروسَوقهما عُنوةً إلى المدرسة، كما جرَت العادة.. لديَّ متّسعٌ من الزمن، وهي المرّة الأولى منذ سنوات، التي أعثر فيها على وقتٍ متخمٍ باللاشيء، وأقف ممتلئةً بالفراغ. قرّرتُ الخروج من علبة الصفيح، والتجوّل في أحياء مخيّمنا الباذخة الحرمان. هي فرصةٌ للتمرّد على رتابةٍ نهشت حياتي وأفقدتني بهجة الاحتفاء بالمواسم والفصول.

نحن على أبواب الخريف، والطقس صباحاً بات يحمل بين ثناياه نسماتٍ باردة، فالتحَفتُ بشالي الصّوفي وخرجت لتصفعني عتمةٌ ممتدّةٌ بين السماء وقلبي الواهِن. وقفتُ حائرةً على عتبة القرار بدون هدفٍ أسعى إليه..

إلى أين ستكون وجهتي؟!

الشوارع هنا متشابهة في ضيقها وبؤسها وقذارتها، وأيّ طريقٍ سأسلكه سيَفي حتماً بالغرض. تغلغلتُ في الشال الصوفيّ ورحتُ أسير بعشوائيّةٍ مترنّحةً يمنةً ويُسرة، دون أن أرقُب أيّ شيءٍ حولي، فالبشاعة لا تحتاج إلى عين تَرصُد، بقدر ما هي بحاجة لإرادةٍ صلبةٍ تتقبّل حضورَها وذاكرةٍ هزيلةٍ تقذف بها في عمق النسيان..

كم أتمنّى أن لا أصادف أيّ كائنٍ بشريّ، أحتاج فعلاً أن أبقى وحيدة، أن أُجالس روحي، وأُغدقَ عليها وجعي ومخاوفي، لكنّ ذلك قد يبدو مستحيلاً في مكانٍ صاخبٍ بأعداد مفزعةٍ من المنكوبين الذين يسعون في توقيتٍ باكرٍ إلى التقاط رزقٍ من هنا وكَسبٍ من هناك. فالحياة باتت فاحشة البؤس،

وجميع سكان المخيم صاروا على شفا ضياع.. لا أحد يبالي بحالنا أو يُعيرنا التفاتةَ تعاطف مع أنّ الجميع يتحدثون عن مأساتنا الإنسانيّة، وتكاد وسائل الإعلام أن تغدو الناطق الرسميّ باسمنا، وحتى حكومات الدول المجاورة والبعيدة ومنظمات حقوق الإنسان تستهلك- مشكورةً- الكثير من وقتها في سبيل الاستنكار وعقد المؤتمرات الإقليميّة والدوليّة والتباحث والاتّفاق والاختلاف وإصدار التوصيات.. ولا شيء يتغيّر!

كل يومٍ جديدٍ يحمل إلينا مزيداً من الخوف والتقلّبات الروحيّة ويهدّد بانقراض «فصيلتنا» تحت وَقع المرض والجوع والحرمان، وحتى الموت على عتبات موجٍ غادرٍ أثناء محاولةٍ هزيلةٍ لالتقاط الحياة..

نحن لسنا بشراً من درجةٍ دنيا، ولا كائناتٍ طفيليّة، ولكن للقدَر أحكامُه!

هذا ما لم يتمكّن الآخرون من استيعابه، أو ربّما يشعرون بلذّة وجودهم عندما تلتقط ذاكرتهم صورَ بؤسنا وشَتاتنا، بينما هم ينعمون باستقرارٍ ورفاهية!

كانت شواع المخيّم مزدحمةً بأكياس النفايات التي عمل الجميع على ركنِها أمام بيوتهم قبل الخلود إلى النوم، في انتظار شاحنة البلدية أن تأتي وتخلّص المكان من عنصر تشويهٍ إضافيّ. في كلّ ليلةٍ تقوم النساء بهذا الإجراء رغم علمهنّ أن الشاحنة قد لا تعبُر مخيّمنا صباحاً وربّما يتأخّر حضورَها لأكثر من يوم، ممّا يؤدّي إلى تراكم النفايات وتخميرها وتصاعد أبخرتها لتملأ فضاء المخيّم.

استخدمتُ شالي الصوفيّ لأحجب عنّي الروائح والأبخرة الفاسدة. حتماً لا أستطيع الاستمرار في السير بهذه الطريقة وإلّا ستصيبني النتانةُ

بإغماءةٍ أكيدة. أسرعتُ الخُطى، وفي هذه المرّة انحرفتُ قليلاً عن الطريق لأتغلغل بين بيوت الصفيح في محاولةٍ منّي لتفادي قُبح المشهد، واختصاراً للمسافة بيني وبين وجهتي التي باتت واضحة المعالم: كوخ الصفيح الذي أستخدمه في الدروس الخصوصيّة، والمستقِرّ على طرف المخيّم بين أشجار الليمون.

رعشةُ خوفٍ اقتحمت جسدي، فالبستان بدا شديد العتمة وخاليّـًا إلّا من ترددات أصوات حيوانات منبعثة من اللامكان. وصلتُ إلى الكوخ وانسرَبتُ سريعـًا داخلَه من فجوةٍ في الصفيح، نحتتها عوامل الطقس والزمن بحيث بات الدخول إليه لا يحتاج مجهوداً لدفع الباب الخشبيّ الكبير.. لطالما تأمّلتُ هذا الباب، وتساءلتُ عن سبب وجوده، والكوخ تكاد صفائحه تتهاوى من هشاشتها، لماذا تكبّد أحدٌ ما عناءَ وضعه، والكوخُ فارغٌ إلا من بعض الحصر المهترئة، ولوحٍ يشبه في تشققاته ومنحنياته خريطة الوطن المنكوب!

ربّما تقصّد أن يُضفي على المكان دفئـًا وشعورَ أمانٍ يستعيض به عن قلق الشتات، ويوحي لذاته اللاجئة أنّ ثمّة خصوصيّة لم تُنتهَك، وأنّ سلامـًا داخليّـًا قد نجح في ارتدائه رغم فَقدٍ لأبجدييات السكينة والاستقرار..

مسكينٌ هذا الغريب، كأبي الذي عاش وهمَ اللجوء، وبنى أحلامه على أنقاض الوطن، راسمـًا خلف الحدود أرضـًا من مرمر وحياةً من ياسمين.. لكنّه، ورغم محاولات عديدة، لم يُفلح في حَمل أمّي على معانقة حُلمِه وارتداء لباس الرضا والسرور. وحدها أيقنت أنّنا سنفتقد مع الرّحيل لذّةَ

الحياة، وأنّنا مهما بحثنا فلن نعثر خارج الوطن على ظلالٍ وارفةٍ تَقينا حَرَّ اللجوء.

سبق وأخبرَتني أنّ ظلّاً تركتُه خلفي لن أعود لألتقيه، وما سأتعثّر به لن يكون سوى ظلٍّ بديلٍ فاقدٍ لأبجديّة الاحتواء.. وفعلاً بدت محقّقةً في الكلام، فمنذ أن أضَعنا انتماءَنا وهوية المكان، تلاشى ظلّي إلى غير رجعة. أمّا ذاك الذي رافقني فيما بعد تراءى غريبـًا عنّي وبلا امتدادٍ ولا حضورٍ متوهّجٍ، وصرتُ كلّما التقيتُه لأفضفض بعضـًا من وجعٍ، أشعر به مبتوراً وبلا حياة.. ربّما هي الأرض الجديدة التي استقبلتنا على مَضَض صارت متخَمةً، وباتت عاجزةً عن احتواء ظلالنا معنا! أو ربّما هي الظلال نفسُها التي تجلّت وفيّةً أكثر منّا، وأَبَت أن تترك مكانها، فظلّت صامدةً في أرضنا في انتظار رَجعتنا لتعود وتلتئم معنا من جديد!

داخل الكوخ جثوتُ القرفصاء قرب اللوح الكئيب، ورحت أتطلّع حولي.. منذ ما يقارب الشهر لم تُتَح لي فرصة إعطاء أيّ درسٍ خصوصيّ، بسبب انشغالي بمهمّتي المستجدّة في توزيع الجُبن خلال أوقات فراغي الهزيلة..

شعرتُ بانقباضٍ في معدتي، وبأنفاسي تنسحب في شكل تنهّدات. أنا لستُ بأحسن حال وعندي رغبةٌ بالانهمار سيلاً من عَبَرات.. أمسكتُ قطعة فحم مركونة على الأرض، وأخذتُ أنسج خربشات على اللوح. رسمتُ منزلاً على تلٍّ صغير وزريبةً للماشية، ثمّ خيمـًا كثيرةً وسط امتدادٍ صحراويّ كبير. ومن الجهة الأخرى جعلتُ فتاةً صغيرةً بظِلٍّ طويلٍ تلهو وسط مزروعات وورود. كم أشتاق حياتي السابقة وبهجةَ طفولتي ولهفةَ طفولتي،

كم ينقصني من رفاهيةٍ لأستعيد تَرَف التي كُنتُها ذات زمن! وكم أنا حزينةٌ على أحلام شرَدَت منّي بعد أن ظنَنتُها واقعًا أكيداً.. يا لخيبتي!

وحتى لا أستسلم لوجع الروح، مسحتُ دموعًا بدأت تنسج على وجنَتَيَّ خطوطًا، ووقفتُ بحزمٍ من ينوي إنجاز مهمّة. ثمّ تسلّلتُ من الفجوة وأسرعتُ مهرولةً. تخطّيتُ بستان الليمون وتغلغلتُ مجدّداً بين بيوت الصفيح. ولكن في هذه المرّة لم أكن الوحيدة في محاولاتي اليائسة للفرار من الروائح الكريهة، فثمّة عديدٌ من الأشخاص الذين بدأوا سَعيَ يومهم وانتشروا ملثّمين في كلّ مكان من المخيّم الموبوء.

لم ألتفت إلى أحد، ولا حتى أعَرتُ بالاً لآطفال تسلّلوا من منازلهم شبه عراة، ولجأوا إلى قذفي بالحصى في سلوكٍ غير حضاريّ.

ومن أين لهم الحضارة، هؤلاء المساكين!

ولدوا في خرابةٍ، واقتاتوا حرمانًا وخوفًا.. ما عرفوا أرضًا طيّبةً تكون لهم احتواءً، ولا تذوّقوا طعم الوطن ونكهة الانتماء..

من أين لهم الحضارة ولا أجداد هنا يتفاخرون بهم وبإنجازاتهم! إنّهم بلا تاريخِ انتصارات أو هزائم، ولا يملكون سوى تراثٍ عريقٍ للقلق والبؤس!

مع تقدّم الوقت، خسرت النسمات شيئًا من برودتها، فرفعتُ الشال الصوفيّ عن كتفَيّ وعلّقتُه على باب محل السمانة الذي أرتاده دائمًا للتبضّع. صاحبتُه أرملةٌ طيّبةٌ جدّاً وأمينة، وبمجرّد أن تلمح الشال ستحتفظ به حتى يظهر صاحبُه.. ثمّ خطَوتُ مسرعةً، فلا مزيدَ من الوقت لأخسره في «اللاشيء».

***

وجهتي هذه المرّة تمثّلَت في كشك الحَجّي القابع على باب المخيّم، والذي يفتح أبوابه للعابرين في توقيتٍ مبكّرٍ. هذا العجوز الذي كان أوّل من استقبل حضورَنا بنظراته الثاقبة وضحكته المجلجلة، وتراءى لي أقرب إلى شخصيّةٍ كاريكاتوريّة رغم خشونةٍ ألقَت بحمولتها عليه.

جميع تفاصيل وجهه تبدو جاثيةً في محطة انتظار ريثما يحين موعد الرحيل. فكأنّ ملامحَه تشاطرُه اللّجوء وشعور الاغتراب المرير. إنها المرّة الأولى التي أقابل فيها شخصاً يحمل فوق وَجنتَيه عينين طافيتين بعيداً عن أيّ تجويفٍ قد يشوّه جحوظهما، والناظر إليهما يظن بهما ملصقتين بغراءٍ فاسد الصلاحيَة جعل من ثباتهما غير واضح اليقين. أنفه الكرويّ أشبه بدائرةٍ تكاد تتهاوى على الأرض كلما ردّدَت أنفاسُه شهيقاً أو زفيراً.. ولـ الحَجّي ثغرٌ واسع الامتداد بشفاه غليظة، عندما يُطبِقُهما يبدو في حال اشمئزازٍ، وكأنّه على استعدادٍ لِلَفظِهما بعيداً في سَعيٍّ للتمرّد على واقعٍ مُرّ المذاق.

هو ليس بالرجل السمين، لكن في جلوسه على كرسيّ القشّ الصغير يفيض جسده المتجعّد عن الجوانب ويتدلّى كقطع قماشٍ مهترئ، في مشهدٍ دراماتيكيّ.

الحجّي يعرف أدقّ تفاصيل المكان، ويستطيع أن يسمّي كلّ لاجئ باسمه، ويحدّدَ انتماءَه المكانيّ في أرض الوطن. عندما لمحتُه للمرّة الأولى شعرت بقساوةٍ تتسّلل من ملامحه ونبرة صوته، لكن بمرور الوقت أيقنتُ أنّ نبضاً طيّباً يختلج في أعماقه، وأنّ قناعاً من الخشونة يرتديه ليُخفي ضعف قلبه المهترئ..

منذ أن عرفت حكاية وجعِه صرتُ أتردّد عليه وأجالسه في الكشك كلما سمحت ظروفي بذلك.. جميع من يعبر أمامه دخولاً أو خروجـاً من المخيّم عليه أن يتوقّف ويُلقي التحيّة، ثمّ يبتاع أيّ شيءٍ ولو قطعةَ حلوى صغيرة.. هذا الأمر بات قانونـاً لا يمكن تخطّيه، ونظامـاً يطبّقه الصغير قبل الكبير.

صار الحَجّي بمثابة رمزٍ للمخيّم وحارسٍ له. بمجرّد أن يدخلَه غريب حتى يقوم بدوره في الاستخبار والاستفهام وتبيّن سبب الزيارة ومقصدها. وفي حال عدم ارتياحه للزائر، يصدر فرمانـاً فوريّـاً يقضي باستبعاد القادم تحت طائلة التهديد والوعيد. أمّا لو نظر إليه بعين الرضا، ينادي أولاداً يمرحون في مكان قريب، ويكلّفهم مهمّةَ مرافقة الغريب وإرشاده إلى وجهته.

عندما زرته في الكشك للمرّة الأولى حاول إقصائي عبر إهمال حضوري وتحديجي بنظراتٍ ثاقبة كلّما تفوّهتُ بكلمة. لكنّه لم يفكّر إطلاقـاً في طردي عنوةً باستخدام أيّ عنفٍ ماديٍّ أو معنويّ. وما دفعني للاستمرار في زيارته رغم سلوكه المريب، تلك النظرة الحانية التي لمحتُها بغتةً تنسلّ من عينيه لتلُفّني بهالةٍ من راحةٍ لم أعهد لها مثيلا.

الحَجّي كما يسمّيه أهل المخيّم جاء هاربـاً مع عائلته الصغيرة المكوّنة من ابنته التي اختفى زوجها في ظروفٍ غامضة قبل مغادرة الوطن بأيّام، وحفيدته الصغيرة التي لم تكن تتجاوز السابعة من العمر آنذاك.. هو من أوائل اللاجئين الذين ضرب العنف قريتَهم، ففَرَّ حاملاً سنوات عمره في جعبةٍ من حنين.

في الوطن، كان أستاذاً على شفا التقاعد لمادّة التاريخ التي أحبّها وعمل من خلالها على غرس عشق الوطن في نفوس الطلّاب. جعل من الأحداث التاريخيّة دروساً وعبَراً سقاها للفتيان والفتيات، فبدأت بذورُها تنمو في أفئدتهم الصغيرة دون أن تتاح لها فرصة النضوج، فأمام سطوة العنف والخوف تُكسَر هيبة الوطن ويتلاشى الانتماء.

في طريق لجوئه مع عدد من الباحثين عن الخَلاص، تعرّضَت القافلة لهجوم مسلّح مجهول الهويّة، وقع ضحيّته كثيرون ومن بينهم الابنة والحفيدة..

يا لمأساتك يا حَجّي!

غدوتَ وحيداً عندما أصبحتَ بأمَسّ الحاجة للاحتواء، وغريباً في عمر يقتضي أن يحملك الوطن على جناح الرحمة والاهتمام.

لكنّه القَدَر!

عندما وصلتُ إلى الكشك، كان الحجّي جاثياً على كرسيّ القشّ يدخّن النرجيلة، ونظراتُه سارحةٌ خلف حدود الذاكرة. تحيّتي له أيقظته من الشرود وأدخَلَته في دهشةٍ، وهو الذي لم يَعتَد زيارةً لي في مثل هذا التوقيت من الانشغال. ردّ السلام بابتسامةٍ طيّبة، وظلّ صامتاً رغم كمّ التساؤلات التي تقافزت من عينيه. جديّتي غير الاعتياديّة رفعت مؤشر ذهوله، فتنحنح بقوّةٍ في إشارةٍ إلى استعداده للاستماع. جثوتُ على وعاءٍ بلاستيكيّ كبير مركون قرب باب الكشك، ودون أيّ مقدّمات قلت: «سأترك الدّراسة وأتفرّغ للعمل في المنزل وخارجه.. لم تعُد لي طاقةٌ لاحتمال المزيد من الضغوطات. لستُ

في وارد التردّد، لكنّني قلقةٌ على أمّي فهي الوحيدة التي ستُصاب بوعكةِ روحٍ وجسدٍ، ولن تتقبّل المسألة».

صمتٌ مُرتاب النبض امتدّ للحظات بيننا، شعرتُ خلاله بـ الحَجّي في وضعيّة تفكيرٍ وتأمّل. وبعد تنهيدةٍ عميقة، نظر نحوي قائلاً: «حسنًا يا صغيرة.. لو انّ حفيدتي ما زالت على قيد الخَفق لكانت الآن في عمرٍ يُقاربك. أتصوّرها فتاةً جميلةً مجتهدةً وطموحة، وأرسم لها دائمًا في ذهني صورة طبيبةٍ أو محاميّةٍ أو أستاذة. أراني في الخيال أسير قربها فخوراً وأخبر الجميع أنّها الحفيدة الغالية».

التمعَت عيناه من عبَراتٍ واشتياق، وشعرتُ بغصّةٍ تحجب عنه الكلمات. لم أشأ أن أواسيه واستمرَرتُ في وضعيّة جمودٍ حتى استعاد هَدأته، وأكمل قائلاً: «لو كان أمامي فرصةُ الاختيار بين موتها أو بقائها قربي في ظروفٍ تشبه ما أنتِ عليه لاخترتُ قربها، وإن كان في ذلك بعضٌ من أنانيّة.. اسمعيني يا تَرَف، أنا أدرك أنّ ألمًا يسكنكِ ويمنعكِ عن تنفيذ القرار، وخوفك على والدتك ليس الباعث الوحيد عليه. ربّما لا أستطيع أن أقدّم لكِ حلولاً طيّبةً تَقيكِ لهبَ القلق وحُرقةَ الحزن، ولكن أصغي إلى ما سأقوله، فربّما تمكّنَت كلماتي من بَسط هدأتها في روحك».

تململ في جلسته، وارتشف من نرجيلته نفسًا عميقًا، ثمّ عاد إلى وضعيّة التأمّل قبل أن يبادر بالكلام من جديد: تفَكّري جيّداً يا تَرَف في أحوالك وستَرين أنّه بإمكانك التقاطُ السعادة ووهج الرضا من أبسط الأمور. ماذا لو أنّ القدر مارس قسوةً أشدّ عليك وحرمك وجودَ مَن تحبّين، هل كانت

حالكِ أفضل..! ماذا لو لم تكوني حاضرةً بقلبك الكبير، كيف كانت ستغدو أحوال عائلتك من دون سنَدٍ ومُعين! أنظري إلى البعيد، هل يسعدكِ أن تُثمر تضحياتك أحلامًا تُزهر في أخوةٍ لكِ؟! وهل تعيشين انتظاراً ليومٍ تُزَفّ فيه عودتُنا إلى الوطن؟!

هناك أشياء جميلة قد تكون حبيسةَ نفوسنا التعبة، فتمضي دون أن ننتبه لوجودها أو نعيرَها أيّ اهتمام. أُنبشي في كراكيب روحك، وحاولي أن تكوني راضيةً عن قرارات ربّما تُفرض عليك، فعساها تحمل بعضًا من خيرٍ في زمنٍ خفَتَ فيه النور..

مسكونٌ أنتَ بالحكمة يا حَجّي، ولكلماتكَ وَقعُ راحةٍ افتقَدتُها منذ زمن. لم أعرف هذا القدرَ من السكينة منذ أن امتد حاجزٌ بيني وبين اسمي ومعناه. أشعر بي متصالحةً مع ضعفي وعلى استعدادٍ لتخطّي عتبة القرار، والانطلاق إلى حيث يسوقني القدر.

كان الوقت قد شارف على إرباكي والاستهزاء من عجَلَتي وتأخيري، فوقفتُ على هلَعٍ، غير أن هدأة الحَجّي أعادتني إلى حالة الصفاء الروحيّ. وبابتسامةٍ غابت عن ملامحي لأيّام، أرسلتُ إليه كلمات شكر واستأذنتُه للانصراف، فكان جوابه حركةً من الرأس واهتزازاً في الشفتين، ليعود إلى نرجيلته وشروده وكأنّ شيئًا لم يكن..

***

كانت أمّي تقف عند ناصية البيت وعلى وجهها إشارات توتّرٍ واضحٍ، عندما وصلتُ مُهرولةً عَساني ألتقط ما تبقى من وقتٍ، أُنجز خلاله واجباتٍ تنتظرني. لأوّل مرّةٍ أراها خارج المنزل بعباءة النوم المزركشة بألوانٍ غير متناسقة، مع غطاءٍ شفافٍ على الرأس، وُضع بطريقةٍ عشوائيّةٍ فانسدل من تحته شعرُها المتشابك من آثار النوم، والذي لم تتحقق له رفاهيّة «التمشيط». ويبدو أنّ حذاءَ البيت قد ضلّ أيضاً طريقه إلى قدميها، فوقفت حافيةَ القدمين المتشققتين من عناءٍ وعملٍ ولا مبالاة. في يدها استقرّ دَلوٌ حديديٌّ تستخدمه عادةً عندما تقوم بحَلب المعزاة صباحاً، أما يدها الأخرى فقد أمسكت بها حرفَ الباب الخشبيّ للبيت بينما أخذت أناملها تتحرّك بعصبيّة صعوداً ونزولاً.

ألقيتُ عليها التحيّة دون أن أجرؤ على النظر في عينيها، وما إن تخطّيتُها حتى شعرتُ بقبضتها تضغط على يدي وتجبرني على التوقّف. أحسست بأنفاسي تُطبق على صدري وبانقباضٍ في مشاعري أرداني في جمود.. وفي محاولةٍ منّي للفرار، استجمعتُ كامل طاقتي لأذرف بضع كلمات: «علَيّ إيقاذ عابِر وبَيدَر قبل أن يفوتهما موعد المدرسة».

بالرغم من عبارتي الخالية من أيّ كلمات غير اعتياديّة، إلّا أنّ أمّي استقبلَتها بعصبيّةٍ غريبةٍ، وراحت تمُصّ شفتَيها بينما أخذَت عروقُ رقبتها بالنفور واحداً تلو الآخر. وعلى حين ثورة، صرخت في وجهي بعنفٍ لم أعهده فيها من قبل: «ماذا تخطّطين يا فتاة؟ أنا أفهمكِ من نظراتكِ التي

تحاولين حجبَها عنّي.. أين كنتِ؟ ولماذا لم تمارسي روتينك اليوميّ في المنزل؟ أتظنين بي تائهةً عن أحوالكِ الغريبة منذ عدّة أيّام! وضعُكِ بات مريباً ويستدعي إجابات واضحة في الحال».

صمتت أمّي بينما استمرّ جسدها في حركته العصبيّة التي صارت تزداد سريعاً، حتى باتت شفتاها ترتجفان رغم سكون ملامحها. راودني خوفٌ أقعَدَ عقلي عن التفكير، فوقفتُ أمامها باستسلامٍ، مهزومةَ الإرادة.

وفي الوقت الذي رحتُ فيه أطأطئ رأسي وأبحث في الأرض عن أيّ شيءٍ يخطف انتباهي وتوتّري، كانت أمّي تقف بكامل جهوزيّتها لتَلَقّي إجاباتٍ هي بمثابة اختبارٍ بالغ الصعوبة على فتاةٍ فقدت أبجدية الحياة.

ماذا أخبرها وخوفي عليها هو السبب فيما أنا فيه من تردّد! كيف أصفع حلمَها بكلماتي وأمزّق فتات أملٍ ما زال يرتع في قلبها كلّما رأتني! هل أكون السبب في انهيار ما تبقّى من صمودٍ في جدار قلبها الهَش!

ليتها لم تسأل وتركت لي حريّة الكلام.. وليتني أتمكّن من الابتعاد دون أن أمنحها الإجابة.. لكنّ ذلك يبدو مستحيلاً.

أمّي امرأةٌ ذات بالٍ طويل، وحضورٍ قويّ. لا أستطيع أمامها أن أفتعل هروباً، وإن فعلتُ سأقع حتماً في شِرك غضبها وعنادها، وسأضطر في النهاية إلى الإدلاء باعترافات، أقسى ما فيها أنّها ستجتاح قلبها كزلزال.

رِفقاً بنفسكِ أمّي لا تستعجلي أحزاناً وكدمات نفسيّة، واتركي أمامي فسحةً لأمطر عليكِ يأسي دمعةً دمعة..

استمرّت أمّي في حال استنفارها، غر مباليةٍ بالزمن الذي ينقضي، في الوقت الذي رحتُ فيه أستجمع كامل لياقتي الفكريّة بحثًا عن جوابٍ قد ينتشلني من ورطةٍ جسيمة، دون أن أتمكّن من ذلك خصوصًا وأنا أدرك حساسيتها تجاه الكذب.

سبق وأخبرتني أمّي أنّ للكذب رائحةُ رمادٍ تشي به.. تتسلل بين المسام، وتأخذ معها في كلّ مرة، خَفقةَ قلب وحفنةً من سكينة الروح. وأنّ للكاذب طاقةً سلبيةً مهما حاول أن يدثّرها تحت معطفه، ستتوهّج وتلتصق بالآخرين على صورة شوكٍ وشكٍّ وخذلان.

إذاً لا مفرّ من المواجهة، ولا خَيارَ أمامي بتاتًا. التقطتُ أنفاسي، وبكلمات سريعة أطلقتُ سهام قراري في صدرها، ووقفتُ أنتظر ما خطّته اعترافاتي على أوردتها.

سكونٌ جنائزيٌّ امتد بين قلبَينا ونظراتنا التائهة، وتدافعت في ذاكرتنا هزائمُ لجوئنا البائس واحدةً تلو الأخرى.

منذ أن قذَفتُ بكلماتي التعيسة فوق وجعها، لم أتمكّن من التقاط تردّدات الزوبعة التي اجتاحَت قلبَها، ولم أستطع أن أتبيّن مقدار الدمار الذي خلّفَته في عمق روحها، لأنّها تجلّت عقيمةَ الملامح ومجرّدةً من أيِّ شعور.

ودون سابق انفعال، استدارت أمّي حاملةً صمتَها الصاخب وضجيجَ روحها، ودخلَت البيت من غير أن تُبدي أيّ انفعالٍ وكأنها ما سألت ولا سمعت ولا حتى أشرق عليها صباحُ هذا اليوم الكئيب.

كان أبي جالسـًا على كُرسيّه في ركن القاعة، عندما ولجتُ إليها. يبدو أنّه أصغى إلى حواري مع أمّي، فبمجرّد أن لمحني التفَتَ نحوي مطلِقـًا صوتـًا بطعم النسيان ونكهة الزمن الجميل، وصدح قائلاً: «اختاري طريقكِ كما ترَينه مناسبـًا يا تَرَف.. لا تخشي على والدتك، لقد غيَّرتها الظروف وباتت مستسلمةً لواقعٍ هشّم أحلامها منذ سنوات، فأضحَت بعمرٍ يتجاوز أيّامها بعقود.. هي تدرك حاجتها للمساعدة، لذلك ستكتم غصّةً في قلبها وستدعو لكِ بالتوفيق».

كان أبي يتحدّث بينما أنا أصغي بلهفةٍ إلى كلماتٍ لطالما اشتقتُها، ليس لمضمونها الذي أزال عن كاهلي تأنيب ضميرٍ بائس، وإنمّا لصوتٍ ارتدى زمنـًا وشاحَ الصمت واليوم عاد ليرمي بعذوبته أمام ضعفي، منتشلاً روحي من سقوطها الحتميّ.. علاماتُ دهشةٍ عبرَت ملامحي لحظاتٍ، رأيتُني خلالها عاجزةً عن الانفعالات ومطوَّقةً بنَبضٍ من الذاكرة وبألف صورةٍ وحكاية..

ثمّ.. وجدتُني أرتمي بين أحضانه وأُغرِق يديه بقُبلات بنكهة الدموع والاشتياق. ولأوّل مرّةٍ منذ صقيعٍ طويلٍ، أشعر بدفءٍ يسري في أوردتي وبين مساماتي ويلفّني بطوقٍ من سلامٍ وياسمين.

ولأنّ كلّ شيءٍ جميل يتراءى عابراً كما علّمَتني النكبات، لم يستمرّ مشهدُ الأبوّة الحانية كثيراً، فسرعان ما امتدّت إلى شراييني برودةُ خَفقٍ عادت لتحتلّ مكانها في قلب أبي، وتحفر بصماتها فوق ملامحه التي ارتداها شرودٌ

جديد. فما كان منّي إلّا أن انسحَبتُ بسكونِ سحابةٍ صيفيّةٍ، وتسلّلتُ بين الكراكيب الجاثية في القاعة تحت مسمّى «أثاث»، وارتميتُ بقبضتي على جسدَي عابِر وبَيدَر ورحتُ أدفع بهما في محاولةٍ شرسةٍ وغير إراديّةٍ منّي لإيقاظهما.

عابِر لا يحب المدرسة إطلاقاً، ولطالما عاد منها وهو يذرف دموعَ القهر. لم يستطع – رغم سنواته التسع – أن يقيم علاقات طيّبة مع أحدٍ من زملائه. بالتأكيد هو لا يعاني من صعوبات تأقلُم، لكنّ محيطاً خشنَ الطباع متعالياً لن يتيح المجال، أمام طفلٍ غريبٍ بحضوره وملامحه وتعبيراته وحتى بهندامه البائس، ليبني صداقات ويعيش زَهو لحظاتها. دائماً عندما أذهب لاصطحابه إلى البيت أراه قابعاً في ركنٍ مُعتمٍ من باحة المدرسة، وحيداً وبعيداً عن أيّ صخب. وبمجرّد أن يلمح درّاجتنا الناريّة التي ضربها المَشيب، حتى يسارع في الصعود إليها مشيراً إليّ بالابتعاد فوراً قبل أن يقع المحظور ويلمحها أحدٌ من أولئك الصبية المتعجرفين.. وبالرغم من سوء حالته النفسية، إلا أنّ مستواه الدراسيّ مقبول، وقليلاً ما يجد مشاكل في الفهم والاستيعاب أو الحفظ.

أمّا عن بَيدَر فالوضع مختلف.. هو ما يزال صغيراً على هذه المعاناة، وبالرغم من اختلافه عن أقرانه، إلّا أنّه تمكّن من اكتساب العديد من الأصدقاء الذين استهوتهم شقاوته وطبعه الفكاهيّ، فغَضّوا الطَّرف عن تباياته ونسجوا حوله شبكةَ صداقةٍ متينة. للصغار عالمهم الخاص بعيداً عن

تفاهات الكبار وأحقادهم. انتظاراتُهم من الغير تتمحور حول لعبةٍ أو حكايةٍ أو حَلوى.. لا سلّم تقييمٍ في حساباتهم، فالكلّ سواء والأقرب هو من يستحوذ على جزءٍ من قلبهم الصغير واهتماماتهم البريئة.. ولكنّها بضع سنوات والصغار سيتخطّون عتبة البراءة، وعندها سينضم بَيدَر المسكين حتماً إلى قافلة المنفيّين.

تمتّع قليلاً بأوقاتك يا بَيدَر، فغداً ثمّة حزن ووَحدة وكثير من الحسرات!

استيقظ الولدان على دفعٍ من هنا وشتائم من هناك.. هي المرّة الأولى التي أخرج فيها عن هدأتي، وأستخدم أساليب غير إنسانيّة في التعاطي معهما. أتمنّى أن لا يعاتبني أحد، فأنا اليوم أشعر بي فتاةً من زمنٍ آخر.. فتاة من خيبةٍ وتعبٍ وتِيه.

أحسّ بي مكبّلةً بسلاسل من عَجز، وألمح بين تلابيب الفكر أنامل تمتدّ بشراهةٍ لتطوّقني من كلّ اتّجاه، وأنا بكامل بلاهتي أقف مستسلمةً كأسيرةٍ.. كقربانٍ على مذبح الخلاص!

***

أسبوعان من الزمن شبيهان بدهرٍ وأكثر، كنت خلالهما فارغةً من الأنا ومحتشدةً بالآخرين.. باحتياجاتهم، بهمومهم، بعَبراتهم، بابتساماتهم، وحتى بسكونهم.. منذ أن اتخذتُ قراراً حسَم طريقي، وأنا أعثو قهراً في ذاتي وأعاندها لتحفظ عهدَها.. ومنذ ذلك التوقيت وأنا أتخبط بين تمرّدٍ واستسلام، وأنغمس بمزيدٍ من الانشغالات لأخفّف وطأة الحزن التي انسحَبَت فوق روحي.

ربّما ما زلتُ صغيرةً على هذا الكمّ الهائل من الأسى، لكنّ المعايير قد تتبدّل عندما يتعلّق الأمر ب «لاجئة»!

اللاجئون عبارات بلا معنى.. حروف أبجدية مبعثرة وغير قادرة على الالتئام.. إنّهم بذورٌ طريّة في أرض غير خصبة، وبتلاتٌ تطفو على سطح مياه مالحة تمتصّ رطوبتَها فتغدو على شفا يباس..

نحن اللاجئون منتمون إلى «اللا إنتماء»، نعيش فوق تربةٍ تتثاقل وَهنًا من حِملنا.. أرض احتضنتنا (مشكورة) في ضعفنا، لكن المقابل بدا أكبر من أيّ قبولٍ أو طاقة احتمال..

علينا أن نحتفظ بحنينٍ جارح لوطنٍ غادرناه، رغم غدره.. ونحمل لواء العودة حتى في أنفاسنا وسَكَناتنا، وإن بدت في ذروة الاستحالة.. علينا أن نُؤدّي فروض الولاء للأرض الجديدة، ونوجّه مع كل خَفقٍ آيات الشكر والامتنان على احتوائها لشرودنا.. أن نرتضي عليها حياةً أشبه بالدّواب في زرائبها، ونرسم في المقابل ابتسامات بعيداً عن أيّ سخط.. أن نتناسى انتماءَنا البشريّ ونقبل بفتات فرح وبقايا حياة.. واجبات مكدّسة مقابل حقوق لا

تتعدّى كونها نظريات تصدح بها الحكومات والمنظمات الدوليّة، ولا ننال منها سوى أمنيات غير محقّقة.

إذاً، بدأ الوقت يمضي متلكّئًا، وأنا أعتصر كامل طاقتي وزمني في أعمال وخدمات وتلبية احتياجات.. إلى أن جاء هذا النهار المُربِك الغريب..

إنّه يوم إجازة بدأتُه منذ الغداة بغسل الملابس عند السيّدة لولية، وأنجزتُ مهمّتي سريعاً بسبب غياب أيّ منافسةٍ لي في حدثٍ استثنائيّ. والسبب معروف: أهالي المخيّم مشغولون اليوم بزيارة وفدٍ من منظمةٍ حقوقيّةٍ دوليّةٍ سيعمل على تفقّد الأحوال وتسجيل البيانات وتحديد الاحتياجات، وسترافقه في التقصّي كما يُشاع فنانةٌ مشهورةٌ بدرجة سفيرة سلام.. حتماً ستلتقط الصور مع اللاجئين، وستحفل مواقع التواصل الاجتماعي بالأخبار المصوّرة عن إنسانيّة الفنانة وروحها الطيّبة وتعاطفها اللامتناهي مع قضيتنا المأساويّة، وبالتأكيد سترتفع إثر ذلك أسهم محبّتها في قلوب المعجبين وحتى غير المعجبين.

في البداية استثارني الفضول لمتابعة هذا الحدث الذي سيكون محطّ الأنظار والاهتمام الإعلامي المحليّ والدوليّ، ولكنّ الصخب الذي عايَنتُه منذ الصباح في شوارع المخيّم، والحماس الذي تجلّى واضحاً في سلوك اللاجئين صغاراً وكباراً، والاستعدادات التي رافقت ذلك من كنس الشوارع ولملمة النفايات المتكوّمة بين الزوايا وبهرجة الأولاد بملابس من أقمشة صاخبة الألوان.. كلّ ذلك أثار امتعاضي، وأخمد اتّقاد روحي، فعادَت إلى بَلادتها ولامبالاتها..

في هـذه الأجـواء، تجلّـى مسـتحيلاً القيـام بأعمـال التنظيـف وشـراء الاحتياجات، فالكلّ منشغلٌ فيما سيكون، والمحلّات مقفلة، حتى أسرتي استيقظ أفرادها في توقيتٍ مبكّر.. راحت أمّي تُخرج ملابس الصغار البالية في معظمها، في محاولةٍ منها لانتقاء الأفضل. وخرج الولدان من البيت للقاء صِبيةٍ آخرين وإعداد شعائر استقبالٍ لأعضاء الوفد الحقوقيّ.. حتى والدي المسكين، فبالرغم من عجزه، بدا متيقّظاً لكل حركةٍ ومتحفّزاً بنظراته التي انسحب منها شرودُها العتيق.

في ظلّ هذا الجنون، كان عليّ أن لا أغرّد خارج السرب.. وكيف أفعل ذلك وأنا الفتاة التي اعتادَت تجاهل الذات، في سبيل توهّج المنظومة العائلية واستمرارها.

إذاً فلأجـرّب الانغمـاس في هـذه الاحتفاليّـة النـادرة، عسـاها أن تخيـب توقّعاتي، وتأتي لنا بما يستبدل كآبتنا ببضع ابتسامات وشيءٍ من رجاء..

ولكن ثمّة ما يؤرق!

أن أشـارك الآخـرين استعراضَـهم لعَوَزنـا وشَـظَفَ عَيشـنا، فتلـك مسـألةٌ صعبة.. أنا لا أريد أن أقع فريسة كاميرات التصوير لأجد نفسي فيما بعد بطلةً في مواقع التواصل الاجتماعي، ترقبني عيونٌ يعضها ساخرٌ ويعضها مشفقٌ وبعضها مُتحامل.. وما لا أطيق حتى مجرّد التفكير فيه، أن تلمح حضوري واحدةٌ من زميلات المدرسة اللواتي عانيتُ كثيراً من سخريتهنّ وسوء نواياهن إزاء غربتي ووَحدتي واختلافي.. صحيح أنّني ارتحلتُ بعيداً عن قسوتهنّ، وأيّ احتمالٍ للقاء بيننا قد يبدو من المُحال، لكنّني رغم ذلك

أرفض أن أرتدي في عيونهنّ وشاح اللجوء الأسود، الذي يستجدي عطفاً ويتوهّم مَنحاً ويعيش انتظاراً باذخ البؤس.. إذاً، سأفتعل حضوراً هامشيّاً.. سأرقب من البعيد حشودَ الوافدين، وإذا لزم الأمر احتجاباً فلن أتوانى عن ذلك..

كنتُ قد عدتُ إلى الكوخ عندما حسمتُ خَياري، فتغلغل شيءٌ من الهدأة إلى خَفق روحي. تنفّستُ سكينتي، ثمّ أخذتُ أتجوّل بين أركان الكوخ دون غايةٍ محدّدة.. وعلى حين انتباه، بدا لي في قمّة تعاسته بعد أن افتقد لمساتي الحانية لإعادة تأهيله بعيداً عن أيّ اتّساخٍ وفوضى. أيُعقل أنّ إهمالاً بسيطاً مني يضعه في تصنيفٍ مرعبٍ غير آدميّ! أنا لا أتحدث طبعاً عن منزلٍ مكتمل المقوّمات البشريّة، فهو يبقى غرفةً باردةً من الصفيح الصدئ، لكنّ حالته الكئيبة التي تراءى بها أعادت إليّ بعضاً من فَخرٍ أضَعتُه في متاهات الحياة القاسية.

نعم أنا مهمّة.. وجودي ضروريّ.. ولستُ حتماً هامشيّةَ الحضور..

حرماني من أبسط الحقوق لا يلغي مكانتي.. أنا غير قادرةٍ على إحداث تغييرٍ كبيرٍ في العالم من حولي، لكنّ تبديلاً بسيطاً قد أُجريه في محيطي يبقى كفيلاً بإخباري أنّني ما زلتُ فتاةً تحمل عبَق الحياة في روحها، وتنثر فوق الآخرين رونقاً وعطرَ يقين.

وقفتُ وسط الكوخ بكامل زَهوي أتأمّل فَوضاه، وأرسم في مخيّلتي ردّة فعل أمّي وإخوتي إزاء هذا الخراب الذي لن أقوم بإصلاحه عن سابق ترصّد. تخيّلتُ نظرات الامتنان العميقة التي ستحيطني بها أسرتي بعد انقضاء هذا

النهار، بعد أن يلحظ الجميع الفرق بين حضوري وغيابي، وهذا أقصى ما أصبو إليه لأسترجع توازن نفسي وأستعيد شهيّتي للحياة.

شعرتُ يسعادةٍ تتغلغل بين مساماتي، فرسمتُ ابتسامةً باهتة وجثوتُ فوق سلّة الملابس عَلّي أعثر بينها على ثوبٍ أتجلّى فيه كصبيّةٍ يافعةٍ، بدلاً من تكتّلي داخل خِرقةٍ تُخفي ملامحي الأنثويّة وتجعلني أبدو كشبح يتقافز مثيراً للسخرية والغثيان.

في أسفل السلّة لمحتُ فستانًا كانت أمّي قد خاطَته لي من بقايا أقمشةٍ فاضَت عن حاجتها في العمل، وذلك منذ ما يقارب العامين، بمناسبة خطوبة ابنة جارتنا الأرملة العطوف، كما نسمّيها. فستانٌ بسيط بقماشٍ مُزهر وبامتدادٍ واحد، بحيث لا يقطع انسحابَه على الجسد سوى حزامٍ قماشيّ رفيع في وسطه. يبدو في حالٍ جيّدة رغم الثنيات العديدة التي تركَتها طريقة توضيبه البائسة. حتى مقاسُه تراءى لي مناسبًا، والفضل في ذلك طبعًا يعود إلى حِنكة أمّي التي اعتادت دائمًا أن تنسج ملابسنا أنا وإخوتي بمقاساتٍ تتجاوز أعمارنا حتى تضمن قدرتنا على استخدامها فترات من الزمن قد تطول.

إذاً سأسارع في ارتداء الفستان، فالوفد الحقوقيّ لن يتأخّر في الوصول كما أشاعَ «الحجّي» القابع قرب كشكه على باب المخيّم، دون أن نعرف مصدر معلوماته. كما أنّني سأقوم بضَمّ شعري المنسدل برباطٍ صغير عثرت عليه غافيًا في السلّة بين الأقمشة، رغم أنّ ذلك سيصيبني حتمًا بانقباضٍ في الصدر وبشعور غثيانٍ مَقيت..

فيما يقارب الخمس دقائق مارستُ جميع طقوس الاستعداد، وصرتُ متأهّبةً للخروج. لا نملك في البيت مرآةً لأُعاين مظهري، لكنني بالتأكيد أفضل حالاً ممّا كنتُ عليه.. بدا البيت غريباً في سكونه خاصّةً مع غياب الصبيَّين، وتواجد أمّي مع العَنود عند جارتنا في محاولةٍ لتقصّي الأخبار ونسج الحكايا حول الأغراب وأهدافهم.

كانت الساعة قد اقتربت من التاسعة صباحاً، عندما سمعت نداء أولادٍ في الخارج، يتصايحون ويهتفون بوصول وفد الزائرين. لا أعرف لمَ ضربَت جسدي قشعريرةٌ أصابتني بالجمود، وصفعتني برودةٌ رغم أنّنا ما زلنا في يومٍ خريفيٍّ دافئ النبض.

أصوات الهرج والمرج صدحت في شوارع المخيّم بشكلٍ استفزّ حشريّتي، ففتحتُ الباب وأخرجت رأسي عَلّي ألتقط كلمةً من هنا أو مشهداً من هناك، وما رأيتُه تخطّى حدود المنطق والمقبول!

أولادٌ يهرعون في الخارج بملابس مبهرجة ونظيفة.. يتدافعون في محاولةٍ للتنافس على الوصول إلى ساحة المخيّم العامّة حيث سيتمّ التجمّع واللقاء والتصوير.. حتى أحذيتُهم تبدّلَت بقدرةٍ غرائبيّةٍ لتغدو بأربطةٍ جديدةٍ وبلمعانٍ ملفت.. جميعهم دون استثناءٍ بدت عليهم السعادة بعيداً عن أيّ فقرٍ وعَوَزٍ وحرمان، فكأنّ عصا سحريّةً نثرَت عليهم تأثيرها العجائبيّ فغَدوا فجأةً بأحسن حال.. منظرهُم استدعى إلى ذهني صورة سندريلا الفتاة المسكينة صاحبة الملابس الرثّة التي أحالتها عصا الساحرة الطّيّبة، وبطرفة عينٍ، إلى أميرةٍ بفستانٍ أسطوريّ.. لمَ كلّ هذا النفاق!

مـن يلمـح هـؤلاء الأولاد سيرسـم ابتسـامةَ قبـولٍ فـوق ملامحـه، وربّمـا سيبعثر نظرات الإعجاب والرضا.. ولكنّ الواقع مختلف.

هؤلاء الصبيّة ليسوا بأحسن حال، ومنذ زمنٍ لم تتحقّق لهم رفاهيّةُ ارتداء ثيـابٍ بهـذا القـدر مـن النظافـة.. وفي معظـم الأحيـان هـم حفـاةٌ يتنقلّـون بـين طرقـات المخـيّم الضـيّقة بأرجـلٍ متّسـخة مـن فـرط احتكاكهـا بـالتراب، وملامستها للنفايات المبعثرة هنا وهناك وللمياه الآسنة المتجمّعة في جميع دهاليز المخيّم وحواريه.

وليت المسألة اقتصرَت على ذلك!

فالنساء أيضـًا خرجنَ من بيوتهنّ بأفضـل مـا عنـدهن مـن عبـاءات وأغطيـةٍ للرأس.. أصوات الزغاريد ملأت فضاء المخيّم، بشكلٍ يوحي أنّ ثمّـة أفـراح نحياها وليال مِلاحٍ نُحييهـا!وحتى يكتمـل المشـهد، حملـت كـل واحـدةٍ بـين يدَيها ما توفّر عندها من طعامٍ أو فاكهـةٍ أو حلويـات، أو بـالأحرى مـا جهـدَت بصـعوبةٍ لتأمينـه كتحيّـة اسـتقبالٍ للضـيوف عـبر حرمـان أسـرتها مـن بعـض الاحتياجات والضروريات!

يا إلهي ما الذي يحدث!

الوفد الحقوقيّ قـادمٌ بعـد جهـدٍ مبـذولٍ وتحضـيراتٍ طويلـة واجتماعـاتٍ ولقاءاتٍ وتوصياتٍ ليُلقي الضّوء على معاناتنا، ونحن مـن فـرط غبائنـا نفتعـل حياةً رغيدةً وراحةً وسعادةً، فكأنّنـا في إجـازةٍ قصـيرةٍ للاسـتجمام نعـود بعـدها إلى بلدنا وأرضنا وأعمالنا!

ربّما لن تتوفّر لنا فرصة التعبير عن مأساتنا مرّةً أخرى، فلمَ نفتعل الرفاهيّة! لمَ لا نظهر بطبيعتنا البائسة، ونقف بكامل ضعفنا لنبعث برسائل إنسانيّة إلى العالم الغارق في بحبوحةٍ ويَذخٍ ورَفاه، لمَ لا نسرد الوقائع ونضع النقاط فوق حروفنا الشريدة، في محاولةٍ لتحقيق عودةٍ ووَقف تهجير!

ولكن، لمَ كلّ هذا الانفعال، هل أكون أكثر صدقًا وواقعيّةً من أهل المخيّم!

أنا مثلُهم تمامًا، اجترَحتُ ذاتَ النفاق بتبديل ملابسي وتغيير هيئتي المعتادة لأتجلّى بصورةٍ بديعة. قمتُ بتزوير حقيقتي حتى إذا التقطَت وجودي ذات غَفلةٍ منّي إحدى كاميرات التصوير، لا أكون تحت مجهر سخريةٍ مَقيتة!

فجأةً، راح قلبي يخفق بوَهَن، وشرَعت عيناي تقطر أنينًا وحسرة. وفي إعلانٍ منّي لثورةٍ وتمرّد، أغلقتُ الباب بقسوةٍ فارتجّ الصفيح محدثًا جَلَبةً حادّةً في الروح.

هذا الضجيج الداخليّ أيقظ حقيقة لجوئنا التي غفَت لبعض الوقت في ذهنيَ المنهك، ودفعني إلى التخلّي عن الانخراط في لعنة الكذب على الذات قبل الآخرين. استعدتُ سريعًا مظهري السابق وخرجتُ من البيت دون وجهةٍ محدّدةٍ أقصدها. عبَرتُ شوارع المخيّم ممتلئةً بفراغٍ مريب حتى وصلتُ إلى الساحة العامّة حيث التجمهر الكبير لسيارات الوافدين

وكاميرات التصوير ولجميع سكان المخيّم الذين ملأوا فضاء المكان بملابسهم المزركشة وأصواتهم المفعمة بسعادةٍ زائفةٍ ستنقضي حتماً بمجرّد انتهاء هذا اليوم الصاخب نفاقاً..

لا أعرف لم عصف بي شعورُ غثيانٍ، مع رغبةٍ يالهروب العاجل إلى حيث لا أسمع سوى صوت الفراغ وهدير السكون.. عدتُ أدراجي إلى البيت وأخرجت دراجتي الناريّة المعتّقة من استهلاكٍ واستنزافٍ وقِدَم. وبسرعةٍ تخطّت عتبةَ الارتياع، تجاوزتُ حدودَ المخيّم ببشاعته وعذاباته وحكاياه الكئيبة المُغلقة على كذبه.. وأوجاعنا.

***

بعيداً عن أنفاس المخيّم الخانقة، شعرتُ بثِقَلٍ يتهاوى عن روحي، وبنسمةٍ تتخطّى حاجز ضعفي لتتغلغل بين مساماتي مُحدثةً ضجيجًا فَسُكونـًا.. وتمرّداً فسلامـًا..

اجتزتُ بستان الليمون بابتسامةٍ تتمطّى باستحياءٍ فوق الشفاه، وألف احتمالٍ يتراقص عند عتبة التفكير..

إلى أين سأذهب؟ كيف سأُمضي نهاراً طويلاً بعيداً عن أيّ انشغالات؟ هل سيفتقد حضوري أحد؟ وكيف سأتدبّر شؤوني وليس في جيبي فلسٌ واحد؟

لا مكان أقصده، ولا أحد يمكنني أن أطرق بابه. كلّ الذين أعرفهم خارج المخيم هنّ نساءٌ في معظمهن متعجرفات ينظرنَ إلى العالم بعين المباهاة، ولا مجال لأيّ تواصلٍ بيننا..

رحتُ أستعرض صوراً لأمكنةٍ قد تتراءى مناسبةً لقضاء يومٍ طويل، لكن فكري بدا مشتتـًا. خروجي من المخيّم أتى بشكلٍ مفاجئ، وأنا اعتدتُ على التخطيط والتنظيم لكل أعمالي وتحرّكاتي، على بساطتها..

فجأةً تراءى في ذهني الشاطئ الرمليّ الصغير.. تلك المساحة الضئيلة من المدينة التي ما زالت مكشوفةً على البحر ونَجَت من هجوم الإسمنت وبناء المنتجعات السياحيّة، والتي لمحتُها مراراً وأنا في طريقي لإتمام بعض الأعمال، دون أن تتاح أمامي فرصة الاقتراب منها.

سيبدو مناسبـًا أن أختلي بـذاتي هنـاك بعيـداً عـن ضـجيج البشـر الـذين توقفـوا في الآونـة الأخيـرة، رغـم دفء الطقـس، عـن ارتيـاد البحـر بسـبب موجةٍ جديدةٍ من الملوّثـات التي ضـربت الشـاطئ، وأضـافت إلـى تلـوّث النفوس تشوّهات جديدة..

من حسن الطالع أن المكان خلا تمامـًا مـن أيّ حيـاة، حتـى خِلتُنـي في حيِّزٍ بعيدٍ جداً ولا يمتّ بارتباطٍ إلى هذه المدينة الغريبة الصاخبة الصامتة والمنطوية على أبنائها..

ركنتُ الدراجة الناريّة تحت شُجيرةٍ غريبة الشكل، ربّما وُجِـدت خطـأً في هذه المساحة الرملية، لكنّ حضورها أسعَفني حتمـًا مـن رطوبـةٍ حـادّةٍ ظهرت بعـض تجلّياتهـا علـى جبينـي وسـاعديّ.. ثـمّ جثوتُ فـوق الرمـال الدافئة متّخـذةً مـن الجـذع متّكـأً، وأمـامي تجلّـى البحـر بامتـداده ولمعانـه وغدره.

وعلى حين شرود، انسحَبتُ من المكان والزمان، ورأيتُني طفلـةً تائهـةً في صحراء البادية أركض خلف ظلّي ثمّ أركن للنوم تحـت شـجرةٍ منفـردةٍ بذاتها وسط المسطّح الرمليّ المُهيب.

ذكريات مرّ عليها زمنٌ غائرٌ في القِدَم، لكنّها مـا فتئـت تحـتفظ بنبضـها، وتحتلّ مكانها في الفكر والوجدان.. كلّ الماضي ما يـزال محفـوراً كوشـمٍ علـى الـروح، وحكايـاه مـا برحـت تمـدّ جـذورَها لتصـبح أكثـر رسـوخـًا.

وكيف لا أتشبّث بنفحات الطفولة وظلالها، ولا شيءَ في الحاضر يُغري بالنسيان؟!

فجأةً بدا صوت البحر أكثر عمقاً وصار له صدى.. نسمات باردة لفحَت وجنتيّ فاستنشقتُ بين ثناياها رائحة رطوبةٍ نفذَت إلى الأعماق. أغمضتُ عينيّ وكدتُ أتلاشى مع غفوةٍ اجتاحت الأهداب، لولا صوتُ نقرٍ خفيفٍ تهادى إلى مسمعي. بدايةً لم أُعِر الأمر بالاً، غير أن اشتداد الجَلَبة حفزّ كامل جوارحي التي تنبّهَت وارتفع مؤشر اتّقادها.

رحتُ أفتّش حولي عن مصدر الصوت، وتجلّى الشاطئ أمام ناظري فسيحاً مكشوفاً ومُقفراً، إلّا من شيءٍ واحد!

ثمّة جسمٌ يتحرّك بجانب صخرةٍ صغيرةٍ مستقرّة قرب المياه. ولكن الرؤية مُلتبِسةٌ، وليس بالإمكان تحديد الهدف.

يا إلهي.. أتراه حيوانٌ جائع! أم أنّه صياد!

تقدّمتُ بحشريّةٍ خجولة، لأُفاجَأ بعجوزٍ متكوّمٍ في مساحةٍ ضئيلةٍ للظلّ، ممسكاً بيده علبة صفيحٍ ينقر عليها بعشوائيّةٍ، ويُنشد برتابة. لم أستطع أن أتبيّن ملامحَه من قبعة قشٍّ كبيرة استقرّت فوق رأسه وغطّت معظم وجهه. لا يبدو عليه أنّه صياد، فلا أدوات صيّد ولا سلّة.. حتى ملابسه نظيفة ولا توحي أنّها تعرّضت لملح البحر، فلا بقعَ بيضاءَ جافّة ولا حتى بلل.

عندما دنوتُ منه مُلقيةً التحيّة لم يكلّف نفسه حتى عناء الالتفات، واستمرّ في القَرع على علبة الصفيح، فكأنّني نفحةٌ من فراغٍ أو بجسدٍ شفاف..

لا مبالاتُه استفزّتني، فأصرَرتُ على التحدّي. انحنيتُ قليلاً، وبسرعةٍ خاطفة مددت يدي في محاولةٍ لسحب علبة الصفيح، فما كان منه إلّا أن تراجع بجسده في حركةٍ مباغتةٍ، لأعثر على نفسي بعد ذلك ممدّدةً فوق الرمال الدافئة من هَول المفاجأة. وقبل أن أتمكّن من النهوض، عاد إلى وضعيته السابقة وقَرعه الرتيب.

ما بال هذا العجوز يبدو مريبًا بسلوكه..

لم أُتعثّر بأحدٍ من قبل بهذا القدر من الغرابة. الحَجّي رغم كونه شخصيةً غامضة، إلّا أن التعاطي معه تجلّى بسيطًا فاكتشفتُ فيه - مع الوقت - قلبًا مُحبًّا طيّبًا وودوداً.. أمّا عن هذا العجوز، فالوضع مختلف.. برودةُ انفعالاته ليست طبيعيّةً، كما أنّ ملابسَه تثير الارتياب!

بنطالٌ رماديٌّ من قماشٍ سميك، قصيرٌ بشكلٍ يُظهر كاحلَيه، وتتناسل الخيوط من حروفه السُفلى.. وعلى جسده يستقرّ قميصٌ فضفاف أسود بكُمّين طويلين.. وعلى كتفيه شالٌ أخضر من قماشٍ خشنٍ يغطي كامل ظهره ويلتفّ حول رقبته ليُعقد بطريقةٍ عشوائيّة. أما في قدميه، فثمّة حذاءٌ قماشيٌّ بمقدّمةٍ طويلةٍ ومعكوفةٍ تُحاكي ما كان ينتعله سندباد في أسفاره الطويلة.

كنت في معرض تأمّل ما يرتديه، عندما التفَتَ فجأةً نحوي كردّة فعلٍ عفويّةٍ على صوت دراجتي النارية وهي تهوي على الرمل لسببٍ غير مفهوم.. في التفاتته انكشف جزءٌ من وجهه لتتراءى أمامي ملامح غير مألوفة لرجلٍ عجوز!

عينان جاحظتان محاطتان بجفنين غزاهما لونٌ أحمر أضفى على نظرته حدّةً وبؤسًا. ومن وسط الوجه انساب أنفٌ متعرّجٌ مورفٌ يدعو لطرح ألف سؤال حول قدرته على إيصال الروائح في الوقت المناسب دون أن تضيع بين دهاليز الأنف وسراديبه.. أمّا عن الفم فقد تلاشى خلف شعرٍ كثيفٍ للحيةٍ بيضاء غطّت وبالكامل النصف السفليّ من الوجه وانسدلَت لتصل الوجه بالرقبة والصدر أيضًا.. أمّا الأكثر غرابةً فهو الجبين الذي يكاد من فرط تجاعيده العميقة والمتداخلة أن يُماثل الأرض الجافّة العطشى في صحراء شديدة الحرارة.. لا أخفي شعوراً بالخوف انتابني وأنا أتعرّف على تفاصيل وجهه، كما أنّ حيرةً اجتاحتني، وصفعتني القشعريرة.

لم يُطل العجوز دهشتَه، إذ سرعان ما استعاد وضعيّته السابقة حاجبًا عني ملامحه التي أربكَتني، ورفعت مؤشّر شكوكي ويقيني أن ثمّة شيءٌ مُريب.

***

فوق الرمال الدافئة، ودونَ أيّ دعوةٍ صريحةٍ أو مبَطَّنة، جلستُ قرب العجوز متربّعةَ القدمين، يملأني الإصرار لتخطّي حاجز الرّهبة. هناك شعور يتأجّج داخلي ويخبرني أنّ ثمّة حكايةٌ تتلطّى خلف غرابة هذه الملامح وجمودها. بالطبع لست بالشَّجاعة التي أوحي بها، لكنّ شيئًا ما شدّني إلى هذا العجوز، وأقعدَني عن تركه في حال سبيله. أحسّ أن هناك تشابهًا بيننا دون مقدرةٍ على تحديده. إنّه قريبٌ رغم بعده، وواقعيٌّ رغم انسلاخه عن العالم وانزوائه وصمته.

حضوري المستفِزّ لم يحمل أيّ تغييرٍ على سلوك هذا الغريب، بل استمرّ في لامبالاته واعتصار هدأتي وصبري حتى فاض بركاني وصرتُ على شفا انفجار.

ولكن.. عليّ أن أكون عقلانيّةً في ردود فعلي، حتى أتمكّن من الوصول إلى ما أبتغيه. هكذا أخبرتني أمّي مراراً ونصحَتني بعدم الانجراف خلف مشاعري وتمرّدها، لأنّ الخسارات عندها ستتجاوز طاقة الاحتمال.

محقّةٌ أمي دائمًا فيما تقوله وتفعله، بل هي الأكثر صوابيّةً بيننا. عقلانيّةٌ إلى أبعد الحدود، وتعرف كيف تخطّط لمستقبلنا. لو أنّنا ما زلنا في أرضنا، لاستطاعَت حتمًا أن تصنع لكلّ واحدٍ منا قصّةَ نجاحٍ عظيم!

ولكنها الحرب البائسة.. واللجوء المقزّز المُهين!

إذاً لا بدّ من بعض الدهاء، والكثير من الصبر، لسبر أعماق عجوزي العنيد.. لن أتوجّه إليه بالحديث، ولن أطرح أيّ استفهام، بل سأحكي..

نعم، سأحكي كلّ ما قد يتراءى في البال، عن أيّ شيءٍ وكلّ شيء. لن أضع قيوداً لأفكاري، وسأمضي في الكلام وكأنّي أحادث ذاتي..

كان عجوزي مايزال يقرع على علبة الصفيح، عندما بادَرتُ بالكلام. أصابني الذهول وأنا أراه يرفض التوقّف عمّا يفعله بل ويزيد من حدّة الضرب.. سلوكه العشوائيّ لم يُثنِني عن الاستمرار. رحتُ أرفع من نبرة صوتي وشَرَعتُ بسرد ذكرياتٍ عن طفولتي وبيتي وزريبتي، عن ظلّي وصديقي الوحيد، عن البادية والصحراء الممتدة في أفق أصفر لا متناهٍ.. عن الحرب والقتل والتدمير والأحلام الضائعة، واستفَضت بوصف الطريق الطويل للجوئنا الوَعِر والمرير.

عندما وصلتُ إلى هذا الجانب المُعتم من الحديث، لاحظتُ أنّ القَرع قد خفَّت وتيرتُه وخَفَتَ صوتُه، بينما أخذت علامات الانتباه تتجلّى بوضوحٍ أكبر على ملامح العجوز الذي، وبحركةٍ أرستقراطيّةٍ نبيلة، رفع قبّعته للمرّة الأولى، ثمّ جعلها تستقرّ قربَه فوق الرمال. وما زاد من دهشتي قيامُه بِطَرح علبة الصفيح جانبًا وإخراجُه منديلاً قماشيًّا من جيبه، مسح به عبرات أخذت تنسلّ من جفنيه الأحمرين.

مع هذا المشهد النابض حزنًا تهاوى قلبي وجعًا، وراح خَفقه يتسارع حتى كاد يمزّق صدري. لا بدّ وأنّ هذا الطاعن في الغرابة يُخفي خلف صلابته مأساةً جعلته ينهزم ويتكسّر وَهنًا بمجرّد سماع نُتَفٍ من حكاية اللجوء البائس.

لماذا دائمـًا نعثر على مأساةٍ متوارية خلف القـوّة، ونتعثّر بكـائنٍ هَشٍّ كنـا نظّنه صارمـًا وبجبروتٍ كبير!

لكـن حـالَ التعـاطف التـي أَظهرَهـا لـم تلتصـق بـه طـويلاً، إذ سـرعان مـا تلاشَت لتعود ملامحه إلى وضـعها السـابق مـن قسـوةٍ وجمـود.. لـم يعجبني هذا التحوّل المفاجئ، ولا تلك المحاولة للكـذب على الـذات، واستشَـطتُ انفعالاً. لـم أتمكّن هـذه المـرّة مـن التحكّم بثـورتي وكـبح انتفاضـتي، فوقفـتُ بحَزمٍ وصرختُ بصوتٍ حاسـمٍ: «أنـت عجـوزٌ مشـاكس.. لـم أعـد أرغـب في محادثتك، ولا أريد أن أخبركَ أيّ شيءٍ.. اعتبر أنّ لقاءنا لم يحدث».

واستدَرتُ عائدةً نحـو شـجيرتي في محاولـةٍ لاسـتكمال احتفـائي بخَلـوتي، وإذا بصوتٍ مرتجفٍ بنبرةٍ تائهة واهنة، يسأل: «ما اسمكِ يا فتاة؟».

لـم أصدّق ما سمعْتُ، فهرَعتُ نحوه وعلى ثغري ابتسامةُ نَصرٍ عظيم.

«تَرَف.. أنا تَرَف.. فتاةُ البادية اللّاجئة».

وفي ردّة فعـلٍ غيـر متوقعـة، نهـض مـن مكانـه نافضـًا الرمـال عـن ملابسـه. وبحركةٍ سريعةٍ، عادت القبّعة لتستقر فوق رأسه في وضعيّةٍ تحجب جـزءاً مـن الملامح. ثمّ استدار مغادراً، وعندما صـار على بعـد خطـوات، قـال ودون أن يلتفـت نحـوي: «أنـا دائمـًا هنـا.. إن احتَجـتِ عونـًا أو شـعرتِ بوَحـدة، لا تتردّدي في اللجوء إليّ.. فكّري دائمـًا أن ثمّة «عـمّ عُـدَيّ»حاضـر للمسـاندة.. مخيّمُكم ليس بالبعيد وحتى مع هذه الدراجة النارية التي تحتضر، ستتمكّنين من الوصول سريعـًا إلى هنا».

ودون أن يترك أمامي فرصةً للردّ ولو بكلمة، تلاشى كأنّه لم يكن. وأنا، من فرط الذهول جمدتُ مكاني وأصابني الخِدر في الروح.

أنا لم أخبره عن مخيّم اللّجوء، ولا ذكرت له منطقة سكني.. من أين أتى بمعلوماته! وكيف توارى واحتجب بطرفة عين؟!

شعرتُ بارتيابٍ ورهبة، وسَرَت برودةٌ قاسيةٌ بين شراييني، ثمّ رأيتُني أرتجف وتثاقل جسدي النحيل. مشيتُ بصعوبةٍ حتى بلَغتُ ظلَّ الشجيرة فارتميتُ على الرمال، زائغةَ البصر مشتّتة التفكير.

لا أدري مقدار الوقت الذي غفوتُ فيه، لكن حين استَفَقتُ بدت الشمس أكثر حنوّاً وأشعّتها لطيفة ناعمة التأثير. صداعٌ قويّ أخذ يضغط على رأسي مسبّبًا لي ألمًا في العيون.

فجأةً تذكّرتُ ما حصل، تُرى هل عليّ أن أعتبر ما جرى مجرّد حلم؟ أم أن «العم عُدَي» حقيقة وإن كانت مريبة بعضَ الشيء؟!

كلّا.. أنا مدركة تمامًا لما كان.. ليس الأمر مجرّد طيفٍ عابر..

لقد رأيتُه وحادثتُه.. أذكر لهجته بوضوح، هي مختلفة.. لا تشبه لهجة البادية التي ما زلتُ أتحدّث بها رغم لجوئنا منذ سنوات، ولا هي تماثل اللهجة المحليّة لأرض اللجوء.

باختصار.. هو غريبٌ في كلّ شيء. في ظهوره المفاجئ واحتجابه السريع.. في سلوكه ولباسه وملامحه.. وحتى في قدرته العجائبيّة على معرفة خبايا لا يُفترض أن يكون على علمٍ بها.

مضى اليوم سريعـًا، لم أشعر بنَزف ساعاته واحتضار دقائقه إلا عندما أخذ الجوع يعتصر معدتي. هو يومٌ استثنائيّ ليس فقط بسبب لقائي بالعجوز. لكنّ فرادَتُه أتت من فراغٍ وجدتُني أُبحر بين حناياه بعيداً عن أيّ انشغالٍ أو عملٍ أو مسؤولية. هذه الرفاهيّة لم تتحقّق لي أو أذُق طعمها منذ زمنٍ من التعب.

دائمـًا الأمور التي نحتاجها أكثر نفتقدها أكثر.. وأوقات المرح ماكرة، تُخادعُنا وتتلاشى على غفلةٍ من انتباهنا وإرادتنا.

تُرى ماذا يفعل أهل المخيّم الآن! هل ما زال الوفد الحقوقيّ يتحرّى ويدقّق ويصوّر! والفنانة العظيمة، سفيرة السلام، هل طال مكوثُها في مخيّمنا التعيس، أم أنّها أنجزت مهمّتها وفرّت سريعـًا، قبل أن يُشوِّه المكان بصرَها وتخدش البشاعة رقّةَ مشاعرها!

بكلّ الأحوال عليّ الرجوع إلى البيت، غادَرتُه صباحـًا وهو بحالٍ بائسة، ولا أدري إن عادت أمّي إليه أم ما زالت مع جارتنا تتقصّى أوضاع الوفد وتغزل معها الحكايا حول ما كان وما سيكون. جارتنا «حَسنا» هي الصديقة الوحيدة لأمّي، تحكي لها ما تريد وتشتكي لها حالَنا وتُفضي أمامها بكل أوجاعها دون أن تخشى غدراً أو شماتة.

جميلٌ أن يكون للمرء أصدقاء مقرّبون يلجأ إليهم عندما تُسّدّ بوجهه جميع الدروب. وما اكتشفته اليوم، وأحزنني جدّاً، أنّني لا أملك أصدقاء!

عندما قرّرتُ صباحـًا مغادرة المخيّم، احترتُ في أمري. فقد عثرتُ على ذاتي وحيدةً خاليةَ الوِفاض من أيّ رفيق، ممّا جعلني أرتبك وأَجهَد في تحديد

وجهتي، وكيفية قضاء نهاري العقيم. لو كان لي صديقةٌ لاحتضنَت وَحدَتي ورافقتني في يومي الفارغ الموحش، لكنّي وقفتُ بكامل خوائي، أبحث عن شخصٍ ينفض عنّي التّيه أو مكانٍ يحتوي ضياعي..

لستُ فتاةً بطباع غليظة، لكن روتين حياتي اليوميّ، أثناء الدراسة وبعد تركها، لم يمنحني فرصةَ تكوين شبكة صداقات. أنا دائماً منهمكة بالآخرين، أمّا تَرَف فتحتلّ مكانةً متأخّرةً في سُلّم أولوياتي. لم أملك زمناً يكفي من أجل التفرّغ لحكاياها وحاجاتها، فرَكَنتُها كأيّ شيءٍ زائدٍ بين كراكيب، قد أعود يوماً لها وقد لا أعود!

***

قبل أن تتوارى الشمس وتحتجب، وصلتُ إلى المخيّم. لم أشعر بالمسافة التي قطَعتُها، فلم يغب مشهد العجوز عن بالي المنهَك، ولا حتى تمكّنتُ من رفع بعض الوساوس التي احتلّت منّي الفكر وأفقدَتني التركيز.. هواجس حول طبيعة هذا المسنّ.. أهو بشرٌ مثلنا، أم مجرّد طيفٍ أتى ولن يُعاود الظهور!

عندما دخلتُ المخيّمَ كنت ما زلتُ غارقةً في تأمّلاتي. استقبلني الحجّي كعادته بابتسامةٍ مع حبّة حلويات. فرددتُ بتحيّةٍ بسيطةٍ أَدرَك من خلالها أنّ ثمّة ما يشغلني، فترك لي مساحتي من الخصوصيّة دون أن يحاول اقتحامها، وعاد بهدوءٍ ليستقرّ على مقعد القشّ ويَرقب الداخل والخارج.. الهدوء بدا سيّد الموقف وأنا أتوغَّل داخل الأزقّة، من الواضح أنّ الوَفد العظيم قد أنجز ما عليه وارتحل. وعلينا أن نترقّب في الأسابيع أو الأشهر أو حتى السنوات المُقبِلة نتيجة دراسته وتقصّيه.

أمام باب البيت ركنتُ الدرّاجة الناريّة، ووقفتُ ألملم تبَعثُري قبل الدخول. منذ الصباح وأنا أنتظر هذه اللحظة المتفرّدة.. رغم جوعي، شعرت بحماسٍ يسري في بدني، وبشيءٍ من الفَخر يُنعش ضعفي. توقّعتُ مشهداً عاطفيّـًا تتصدّره أمي التي ستجري وتحتضنني وتخبرني كم افتقدَتني وافتقدَت لمساتي داخل البيت، وأنها منذ عودتها من لقاء الوفد الحقوقي وهي تحاول إنجاز بعض الأعمال المنزليّة دون أن تتمكّن من ذلك.. وبالتأكيد ستقول لي كم شعرَت بالوحدة في غيابي وأنّها تُقَدّر كثيراً كمَّ المسؤوليات التي أرفعها يوميّـًا عن كاهلها.

أما أخوتي فسيكون لي نصيبٌ كبيرٌ من محبّتهم، وسيشرح لي عابِر كم أن غيابي المؤقت بدا ثقيلاً جداً عليهم، ولم يعثروا طوال النهار على أحدٍ يلبّي جميع متطلّباتهم بسرعةٍ وحُبٍّ كما اعتادوا معي.. حتى أبي ستعبر شفتاه ابتسامة رضا لعودتي، بينما ستروي عيناه قصّة عتبٍ لطيفٍ..

مفعمةً بهذه التوقّعات دخلتُ إلى البيت مع ابتسامةٍ لطيفةٍ نادراً ما أُطلِقُها في وجوه الآخرين، ووسط القاعة الكبيرة تصلَّبتُ!

بدا المشهد كئيباً ويدعو للكَمَد.. الكراكيب تملأ المكان وفضلات الطعام ملقاةٌ بعشوائيّةٍ تُشبه حياتنا. الملابس التي ارتداها الجميع خلال النهار لمَحتُها متهالكة فوق الأثاث وبعضها مبعثرٌ على الأرض.

والجميع، باستثناء الصغيرة العَنود، بدوا في حالٍ من الشرود الغريب. تطلّعتُ إليهم واحداً تلو الآخر، ولم أتلَقَّ سوى نظرات غضبٍ وعتبٍ مرير. ومن قلب الصمت الصارخ، صدح صوت أمّي بغَلاظة:

«يا لكِ من فتاةٍ عديمة المسؤوليّة.. تُسقطين عن كاهلك كل الأعمال بمجرّد أن عثَرتِ على فرصةٍ لذلك.. ألم يخطر لكِ أن يوماً طويلا مُشبعًا بالفراغ كهذا، كان بإمكانه أن يصبح مليئًا بالإنجازات للأعمال المتراكمة لو أنّك فكّرت كفتاة ناضجة! لكنّك كالعادة تسعين خلف ما يسعدك، وتنسين أنّك بِتِّ مسؤولةً عن مصير عائلةٍ بالكامل».

هذا ليس صوت أمّي، ولا تلك نظراتها! حتى كلامُها الثقيل بدا لي وكأنّها استعارَته من جارةٍ لنا تقضي معظم نهارها وهي تلعن وتشتم حظّها المتعثّر، وتُلقي بالتُّهم عشوائيّاً على كلّ من يقع نظرها عليه!

بعد سطوة هذه الكلمات القاسية، شعرتُ بي غريبةً عن المكان بكلّ من يَحويه، وحتى عن ذاتي. صفَعني الصمت وكبّلني فعجزتُ عن مقاومته. وبكامل انهزامي ارتميتُ على الكرسيّ المجاور وأنا ألمح خيباتي تتساقط مطراً حولي لتحجب عنّي أيّ احتمالٍ للفرار.

لماذا عندما نَبذل لنُسعد الآخرين، وننثر روحَنا رذاذاً في سبيل إنعاش قلوب من نحب.. وعندما نعتصر لِحاظَنا حتى آخر رَمقٍ ونكرّسها لتكون في صالح إرضائهم.. يتناسى هؤلاء مع الوقت تعبًا لنا وتضحيات، تتبدّل لديهم المفاهيم، وتغدو عطاءاتُنا واجبًا مفروضًا علينا، وممنوعًا من التقصير!

ربّما لو أنّ صفة اللّجوء لم تلتصق بنا.. لو أنّنا ما زلنا هناك فوق أرضنا.. لما وقفتُ اليومَ في وضعيّة اتّهامٍ وعتاب..

هناك، كنتُ فتاةً تحيا بكاملِ إنسانيّتها.. تعيش الواقع وتغرق في الحلم، تَمنَح وتنال، تُخطئ وتُصيب.. لكنّها في آخر النّهار تخلد إلى أمنياتها وتمتزج روحُها بسحر الخيال دون أن يعترض انسيابَها أحد باختصار، كان لي حقّ الحياة.

أمّا هنا، ومنذ أن تخطّينا عتبةَ الانتماء، صرتُ كائنًا بنصف إنسانيّة مكرَهةً، استحَلتُ فتاةً منغمسةً في الواقع إلى أبعد الحدود، ومخلوقًا مبتورَ الحقوق ومشوّهَ الظلال.. إن أعطيتُ فذلك واجب، وإن حجَبت فالوَيل والثُبور!

إنّه اللّجوء.. حَرَمَنا دفءَ الأرض، فانتُزعَت منا السكينة.

الخيبات التي اعترَضَت طريقي حتى الآن جميعُها صعبةٌ وثقيلةٌ على الروح.. وكلُّها حمَلَت إليّ شعوراً بالفَقد والخسارة.. خيبتي الأولى بدأت

مع وطنٍ لم يعرف كيف يحافظ علينا، فشَرَدنا بعيداً عنه وتُهنا ثمّ أضَعنا طريق الرجوع إليه.. أمّا خيبتي الثانية فكانت في أحلام تهشّمَت فوق تراب الأرض الجديدة. أمنيات حمَلناها من خلف الحدود وعشنا تفاصيلَها في الخيال، لنصطدم بواقعٍ دميمٍ شوّهَ حتى الرغبة في الحلم.. ثمّ أتت خيبتي الثالثة لتضيف إلى وجعي هزيمةً جديدة. شعرتُ اليوم أنّني أبني عالماً من ورق يتناثر مع هبوب طفيفٍ لنسمةٍ عابرة.. أنّني أُراهن على الفراغ، وما اعتَقَدتُه استثماراً في الأرواح ليس سوى نصوبٍ لن تنضج ولن تُيصر ثمارُها النور..

يا لخيبتكِ يا تَرَف!

أنا حانقةٌ جداً.. وناقمةٌ على ذاتي قبل الآخرين. أشعر بخمولٍ يمتدّ في أوردتي وينتزع منّي طاقةَ الحياة.

غادرتُ مكاني دون أن أُظهر أيّ احتجاج، أو حتى تتراءى فوق ملامحي إشارات حزنٍ أو غضب. وبعيداً عن عيونٍ ساخطة، خرجتُ إلى الأزقّة وسرتُ على غير إدراك.. وجدتُني، كعادتي في لحظات الضعف، أقف أمام كشك الحَجّي والدموع ترسم فوق وجنتيّ خطوطاً متعرّجةً تشبه في تشابكها خارطة العودة، والتي باتت شائكةً وضبابيّةً، إلى أرض الوطن.

وكأنّ الحَجّي كان يتوقّع عودتي، فبمجرّد أن لمحني حرّك رأسه صعوداً وهبوطاً في إشارةٍ إلى معرفته بحضوري، ثمّ دعاني إلى الجلوس على كرسيّ مقابل له أعَدّه مسبقاً لي. الصمتُ بدا سيّدَ الموقف ورفيقَنا الثالث، فلا أنا امتلَكتُ رغبةَ الكلام ولا الحَجّي بادَرَ في ذلك. لم أَقوَ على البَوح بسبب ضجيجٍ مُربِكٍ لمشاعر متباينة، راحت تضرب جذورَها وتدكّ أعماقي الهشّة..

وهكذا، بقينا على خمودنا وانطفائنا، حتى امتدّت العتمة وصار المكان موحِشاً مع أصوات حيوانات راحت تعلو من هنا وهناك.

الحجّي شيخٌ مريحٌ في التعامل ويبعث على الطمأنينة. لا يُقحم حشريّته في تفاصيل الغير إن لم يُدعَ إلى ذلك.. لديه تاريخٌ عريقٌ من الحِكمة، ويدٌ بيضاء في توجيه معظم سكان المخيّم ومساندتهم في تحديد خياراتهم التي تتجلّى دائماً مع الوقت، الأفضل والأكثر سدادا. وصمتي المتبادل معه اليوم، حمل بين ثناياه تخاطراً للأرواح ودعوةً لتقبّل الواقع طَوعاً، بدلَ الانغماس فيه قَسراً وتلقّي كدمات نفسيّة.

غادرتُ مكاني بعد أن ألقيتُ تحيّتي الخجولة على الحَجّي وشكرتُه على سكينةٍ انسربَت إليّ رغم صمت لقائنا. كم رغبتُ أن أخبره عن العم عُدَيّ لكنّني فعليّاً شعرت بأغلال تعيق أبجديّتي وتعرقل انسياب حروفي.. أخفَقتُ في البَوح عن أمرٍ لم يدخل حتى الآن دائرة اليقين، فآثرتُ السكوت.

في طريق الرجوع إلى البيت أخذت قراراً بتناسي ما حدث.. بحذف كل شعورٍ سلبيٍّ راودني اليوم، حتى لا تتمكّنَ منّي الحياة.

الاستمرارُ في التخاذل والتفكيرُ بمنطق الضحيّة لن يغيّر من واقعي شيئاً، وإنّما سيبني جداراً فاصلاً بيني وبيني الآخرين، وسيرتفع مع الوقت حتى أجد نفسي وحيدةً وعلى شفا اغترابٍ روحيّ.

نعم، سأمضي كيفما يريد القدَر، وسأظلّ أعيش حياةً موازيةً في الخيال، أشَكّلُها كما أحبّ ريثما تتبدّل الظروف.. أو يُحدث الله أمرا!

***

اليوم أنجزتُ وبلا حماسٍ مهمّاتي المنزليّة الصباحيّة، وأنا الآن على وشك أن أنطلق لإيصال عابرٍ إلى المدرسة. بَيدَر مريض ويعاني من حمّى شديدة ولن يتمكّن من مغادرة الفراش. ها أنا أعدّ الدرّاجة الناريّة، وأضع في صندوقها الأماميّ الصغير الفستان الذي خاطَته أمّي لأقوم بإيصاله إلى السيّدة شَهربان. مضى أسبوعٌ على لقائي الغريب بالعم عُدَيّ، وبفعل انشغالاتي الكثيرة ما عادت التساؤلات حوله تحتلّ مكانًا في تفكيري.

أنا اليوم قلقة، فالسيّدة شَهربان صعبة المزاج، وإن لم يُعجبها الفستان أو كان لها اعتراضٌ على تفصيلٍ صغيرٍ فيه، ستجعل نهاري علامةً بائسةً في تاريخي «المِهنيّ»! هي من أرضٍ بعيدة، جاءت مع أهلها لتستقرّ في هذه البلاد منذ زمن. ومع الوقت اكتسبَت صفة المواطَنة لكنّها ظلّت على علاقةٍ روحيّةٍ بالمكان الذي أتَت منه، ودائمًا تُقيم المقارنات وتُجري المفاضلات وتشتمّ حظّها المتعثّر الذي جعلها مواطِنةً في بلدٍ كهذا.

امرأةٌ عنيدةٌ إلى أبعد حدود، حادّة الطّباع، وتتصرّف مع الآخرين بفوقيّةٍ باعتبارها – كما تقول – من سلالةٍ أميريّةٍ معروفةٍ في بلادها البعيدة. تتكلّم اللهجة المحليّة وإن بِلَكنةٍ مختلفة، فيدرك من يحادثها أنّه أمام مغتربةٍ مقيمة.

مرّات كثيرة استهزأَت من «سلوكي الصبيانيّ»، من مظهري الذي لا يمتّ إلى الأنوثة بِصِلَة، من درّاجتي الناريّة العتيقة، ومن عمَلي «المُشين» برأيها.. ومرّاتٍ عديدة دخلتُ في جدالٍ معها لأخرج بإهاناتٍ لا حَصر لها، وحتى بِلَومٍ من أمّي التي تؤمن بمقولة «الزبائن دائمًا على حقّ!».

تسكن السيّدة شَهربان وحيدةً في منطقةٍ أنيقةٍ ومميّزة ومنزلها يحتلّ الطابق العاشر من مبنى ضخم يطلّ على البحر وتحيط به حديقةٌ صغيرة. هي فخورة جدّاً بإقامتها في هذا المكان الذي تعتبره متناسباً بعض الشيء مع أصلها النبيل. أشعر بها تزدري انتمائي، وتُبدي تقزّزاً كلّما ذكرتُ لها، مُضطرّةً في معرض الحديث، مخيمَنا المبَجّل.

أحسّ باشمئزازها منّي.. نعم، يصيبها القرف دائماً عندما أقترب منها، فأراها تبتعد عنّي مبديةً علامات الاستياء والنفور، حتى أنّها طلبت منّي مؤخّراً عدم دخول بيتها وإنجاز ما أتيتُ لأجله من على عتبة الباب..

أخبرَت أمّي في بداية لقائها بها أنّ جميع أقاربها ما زالوا هناك في تلك البلاد البعيدة، ولا تملك أيّ معارف هنا. قالت لها أنّها تفضّل الوَحدة على الاختلاط بأشخاص لا تعرف أصولهم ولا نواياهم. أو مع آخرين ينتمون إلى مستوى اجتماعيّ مختلف، فذلك سيحمل لها تعباً نفسيّاً هي في غنى عنه. وقتذاك كانت تحاول إخبارَها أنّ ارتباط عملٍ سيجمعهما لن يكون مطلقاً مَدخلاً لصداقةٍ أو علاقةٍ مميّزة. فالمسافات كبيرة بينهما، وعلى كلّ طرفٍ أن يحافظ على موقعه ويحترم التمايزات، لما في ذلك من صالحٍ للجميع.

السيّدة شَهربان في مؤشّر الجمال تحتلّ مكانةً متوسطة، لكنّها تملك ثقةً بالذات تجعلها تصنّف نفسها وصيفةً للجمال وتجبر الآخرين على التطلّع إليها من زاوية الإعجاب. ولها الحقّ في ذلك فهي تملك المال والقوّة والنفوذ.

امـرأةٌ في أواخـر الخمسـين، منوسـطة القامـة وممتلئـة بعـض الشـيء. لا مميّزات في جسدها سوى ردفين يحتلّان مساحةً لا بأس بها ويبرّران لجوءها إلى اختيـار فسـاتين واسـعة لجهـة الخصـر. وجهُهـا بيضـاويّ بملامـح عاديـة وبلـونٍ قمحـيٍّ للبشـرة مـع شـعرٍ قصـيرٍ مصـبوغٍ بلـونٍ أحمـر يمنحهـا غرابـةً وتفرّداً..

بعد أن أوصلتُ عابِر إلى مدرسته، انطلَقتُ مُتخمةً بالتوجّس من لقائي بالسيّدة شَهربان.. طوال الطريق، رحتُ أطَمئِن ذاتي بأنّ كلّ شيءٍ سيكون على أحسن حال إذا ما حافظتُ على صبري بعيداً عن أيّ استفزازات.

أوقفتُ دراجتي الناريّة داخل الحديقة عند حارس المبنى كما اعتدتُ أن أفعل، وصعدت أمام باب بيتها حيث وقفتُ ألهثُ من ريبةٍ وارتباك. دقيقةُ انتظارٍ مرّت كدهر، رأيتُني بعدها في مواجهة صاحبة الشعر الأحمر المتلألئ، ودون أن أبثّ أيَّ كلمةٍ مددتُ يدي بالكيس الذي يضمّ الفستان، فما كان منها إلّا أن سحبَته وأوصدَت الباب بعنفٍ طالبةً منّي المكوث ريثما تنتهي من تجربته والتأكّد من جهوزيّته وخلوّه من أيّ عاهة.

في الانتظار، جلستُ على درجة السلّم أرقب المكان. ردهةٌ واسعةٌ جداً ملتويّة في أكثر من دهليز تمتدّ أمام باب المنزل. جدرانُها مغطاةٌ بالمرايا الملوّنة الأنيقة وأرضها مفروشةٌ ببساطٍ أحمر يزيد من فخامة المكان. الإنارة قويّة ومنبعثة من مصباحٍ كهربائيّ فخم مدلّى من السقف. لا باب آخر مُطلّ سوى باب المصعد، فالطابق كلّه يضمّ شقّةً واحدةً. الهدوء بدا طاغياً فأصابني النّعاس حتى خِلتُني سأغرق في إغفاءةٍ أكيدة. ومن قلب السكون،

جاءني صوت نقرٍ خفيفٍ بعيدٍ. لم أُعِر بالاً للأمر، غير أنّ الصوت بدأ يعلو ويزداد حدّة وقُربـًا. لا أعرف لماذا أخذت خفقات قلبي تزداد وتتسارع ويعلو صداها حتى كدتُ أسمعها.

هو ذات النقر على الصفيح الذي مارسه العجوز على شاطئ البحر.. أيعقل ذلك!

مستحيل.. هو الهذيان طبعـًا من شدّة التوتّر وطول الانتظار. عليّ أن أستعجل السيّدة شَهربان في نَقدي المال والابتعاد فوراً قبل أن تتملّكني الهواجس وتقضّ مضجع سكينتي.

وقبل أن أبادر بالنهوض، تجدّد الصوت ولكن في هذه المرّة تراءى أكثر وضوحـًا، بحيث تمكّنتُ من تحديد مصدره.. إنّه ينبعث من آخر الردهة حيث يلتف دهليزٌ صغير يحجب الرؤية. وقفتُ بكامل ارتعاشي ورحتُ أتقدّم حتى بلغتُ الدهليز. وبنظرةٍ خاطفةٍ امتدّ الهلع لينسرب كالدّم في الوريد!

إنّه العم عُدَيّ، بهيئته التي أعرفها، يجلس على الأرض وفي يدة علبة صفيحٍ ينقر عليها بعشوائيّة. وعلى حين غفلة، التفت نحوي دون أن تتعانق نظراتنا.

فجأةً علا صوت السيدة شَهربان: «أنتِ.. يا فتاة.. ماذا تصنعين هناك؟احضري فوراً».

لملمتُ ما تناثر من هدأتي، وبخطواتٍ سريعة وجدتُني ماثلةً أمامها كتمثال. تكلّمَت كثيراً دون أن أعي ما تقول.. أخذ صوتها يعلو ويخفُت

وملامحُها تستشيط غيظاً لتعود إلى خمودها. وفي كلّ ذلك كان الفستان في يدها ترفعه عالياً، تديره يُمنةً ويُسرةً، تشير إلى زوايا مختلفة فيه وتتأفّف.. وعندما انتهَت من مسرحيّتها الهزيلة، مدّت يدها لتنقدني المبلغ المطلوب، ثمّ استدارت دون إلقاء التحيّة مُغلقةً الباب في وَجهي.

وكأنّني كنت في انتظار ذلك، فما إن تلاشَت صاحبة الشعر الأحمر حتى أخذتُ أهرول لأطلّ على الدهليز، وأُفاجأ هذه المرّة بالفراغ يسيطر..

أين ذهب العم عُدَيّ! وكيف اختفى بهذه السرعة! لا يُعقل أنّه سلك الردهة فالمصعد، وإلّا كنت لمحتُه!

أوَ يكون تسلّل عبر السلّم مستغلّاً انشغالي مع السيّدة شهربان؟! عليّ أن أؤمن بهذا الخَيار، فهو الوحيد ولا احتمال آخر..

بوجومٍ، نزلتُ لأستقلّ درّاجتي وأنطلق بها نحوالبحر!

نعم.. الشاطئ بات وجهتي الأكيدة.. عليّ أن أحسم شكّي وأبدّد هواجسي التي صارت تحتلّ فكريَ المنهك.

في تلك الفسحة الرمليّة ركنتُ الدرّاجة، وبلهفةٍ تجاوزَت سرعتي هرولتُ باتّجاه الصخرة حيث صادفتُ عجوزي للمرّة الأولى. المكان تراءى هادئاً وفارغاً من أيّ حياة. حتى البحر بدا أشبه بمسطّحٍ زجاجيّ في هذااليوم الخريفيّ النابض حَرّاً.. وقفتُ أتأمل حولي، وكلّي ثقةٌ أنّني سأعثر عليه في زاوية ما. لم أرغب في الاستسلام رغم أن كلّ المؤشرات أوحَت بالخسران المُبين. لكن، مع العم عُدَيّ للمفاجآت حضورٌ طاغٍ.

خمسُ دقائق انسرَبت من زمني، وأنا متصلّبةٌ تحت أشعة الشمس والعرق يتصبّب من فكري المنهَك. أبَيتُ المغادرة، فما حدث اليوم وضعني في مواجهة هواجسي التي تخطّت عتبة الشكوك.

وفوق الرمال الساخنة شردَت منّي الروح حتى كدتُ أغيب عن واقعي، لولا يدٌ خشنةُ الملمس هبطت بغلاظةٍ على كتفي وأيقظَت ارتيابي من جديد. استدَرتُ بخِفّةٍ لأُطالع وجه العجوز في مواجهة ذهولي.. ومع ضحكةٍ عالية، راح ينقر على علبة الصفيح التي لا تفارق حضورَه المهيب. برغم رهبتي، تسلّل شعورُ سعادةٍ إلى أوردتي، فها هو من شغل اهتمامي وأثار متاعب فكري يَمثُل أمامي في مؤشّرٍ واضحٍ إلى حقيقةٍ أعيشُها بعيداً عن أيّ هلاوس ظَنَنتُها تملّكَت منّي.

كيف حالكِ يا تَرَف؟

بهذه الكلمات كسر «العم عُدَيّ» انسياب الصمت بيننا. وخشيةً من فقدانه مرّةً أخرى سارعتُ بالسؤال: «رأيتُكَ في ردهة المبنى الكبير هناك، هل تتبع خطواتي يا عمّ؟».

بابتسامةٍ مستهزئة، تطلّع العجوز نحوي شزراً، وقال: «أنا لا أطارد أحداً.. أنا حاضرٌ في ذهنكِ بإرادتك.. أنتِ من رغبت بحضوري، فأتيت.. هذا كلّ ما في الأمر».

برغم غموضٍ استشرى بين كلماته، إلّا أنّ استجابتَه لسؤالي وعدم لجوئه إلى تجاهل استفهامي، حمل إليّ تفاؤلاً بتقاربٍ محتملٍ بيننا.. أنا أحتاج أن

أعرف الكثير عنه. غموضُه استحوذ على اهتمامي كما لم يحصل معي من قبل.

أشعر أنّ حكايةً مثيرةً تنتظر فضولي، وتستدعي منّي صبراً، وربّما انتظاراً ضبابيّ الملامح.. ولكن لا بأس في ذلك.

ما قصّتكَ يا عمّ؟ ومن تكون؟

لماذا، برغم خوفي، أراني مُقبلةً إليك، أفتّش عن حضوركَ، وأنتظر كلماتكَ؟

بنظراتٍ تائهة واجه العمّ عُدَيّ تساؤلاتي، وبعد تنهيدةٍ أفرَغَ من خلالها عمراً من الحكايا، أجاب: «عليكِ أن لا تتأخرّي.. غادري الآن. لا بدّ وأن يكون لنا لقاءٌ قريب.. لا تستعجلي ما سيكون، ولا تخشي فقدانًا فأنا موجودٌ برغم غياب الروح».

ومرّةً أخرى، وجدتُني حائرةً وسط عبارات لم أعرف لها مغزى. لكنّه محقّ، عليّ الرحيل فوراً فـعابِر ينتظرني في المدرسة.. لا بدّ وأن تأخيري أصابه بامتعاضٍ شديد.

وقبل أن أبادر بالرد، أو حتى إلقاء السلام، كان عجوزي قد تلاشى كعادته تاركًا هذه المرّة علبة الصفيح تلتمع فوق الرّمال، وتروي قصّة لقاءٍ بملامح من يقين.

***

مستلقيةً على الحصير المتآكل في الكوخ الصغير، رحت أنقر على علبة الصفيح، كنزيَ النّفيس، الذي أبَيتُ أن أتركه يضيع على الشاطئ أو تبتلعه الرمال. إنّه الدليل الأكيد على وجود العمّ عُدَيّ، رغم أنّ حضورَه لا يحتاج أيَّ إثباتٍ في قاموس مشاعري. منذ اللقاء الأول، أيقنتُ أنّني أمام حالةٍ إنسانيّةٍ فريدة، وأنّ غرابتَها نابعةٌ من حكايةٍ وربّما مأساةٍ تحيط بها، وليس من ظلالِ أوهام.

اليوم مخيّمُنا في وضعيّة حدادٍ على أرواح عددٍ كبيرٍ من الشهداء الذين قضَوا غَرَقًا أثناء محاولةٍ يائسةٍ للبحث عن أمنياتٍ تائهة. بعضهم من مخيّمنا، وبعضهم ينتمي إلى مخيّمٍ آخر تجمعه بنا علاقة بؤسٍ وعوَزٍ وأحلامٍ شردَت وضلَّت طريقَ النَّفاذ.

جميع أهل المخيّم في حال وجومٍ وشجَن.. كلّهم أذعنوا لقرار الحداد وأعلنوا التوقّف عن أيّ نشاطٍ أو عملٍ، والاكتفاء بالتجمهر على الطريق العام في حركةٍ احتجاجيّةٍ علنيّةٍ على الوضع، عسى أن يصل نداؤهم لجهةٍ حكوميّةٍ أو غير حكوميّة، فتُستكمل الدراسات سريعًا وتقدَّم الاقتراحات وتكوَّن اللجان، وترسَل التقارير إلى المجتمع الدوليّ، فيتحرّك.. بالتنديد والعزاء!

من حقّنا كلاجئين أن نعيش حزنَنا حتى آخر رَمَق، في مقابل حرماننا من الانغماس في الحياة ومباهجها.. من حقّنا أن نطلق العنان لمشاعرنا، حتى لو كنّا مكبّلين بألف هَمٍّ ووجعٍ ووهم.. من حقّنا أن نحرّك ساكنًا لرفض كوارث تعترض وجودنا، في موازاة صمتٍ تمَلَّك العالم بأسره..

حالة الحداد امتدَّت أيضـاً إلى عائلتنا التي قرّرت تعليق كل الأعمـال، فـلا مدرسةَ اليوم للصغيرين، ولا مهمّـات خياطـةٍ تُنجزهـا أمّي، ولا حتى أعمـال منزليّة أقوم بها.. إضرابٌ عام وشامل.

إذاً هو الفراغ يسطر حروفه من جديد فوق صفحتي، ويترك لي فسحةً أطلّ منها على ذاتي وإن بشكلٍ مؤقت.. لم أشأ أن أترك نهاري يضيع منّي، فآويتُ منذ الصباح إلى كوخ الصفيح -مدرستي الخصوصيّة- لأحقّق رفاهية الاختلاء بذاتي، هربـاً من مكانٍ صاخبٍ يُعتبر الفرد فيه مجرّد رقمٍ بلا خصوصيّةٍ.

في الواقع لست وحيدةً في خَلوتي.. أحسّ بالعم عُدَيّ حاضراً معي. أكاد أراه جاثيـاً في الركن بقبّعته الكبيرة التي تحجب ملامحه.

علبة الصفيح خاصّته تتراقص بين أناملي، في الوقت الذي يسيطر الشرود على ملامحي ويغزل رأسي أفكارَه كنسيج عنكبوت.. ودون سابق تصميم، وجدتُني أنتصب مكاني وقد حسمتُ قراراً بسبر حقيقة ما يحدث معي، ومعرفة الحكاية التي تتوارى خلف غموض عجوزي المريب. سأغادر المخيّم فوراً في عملية تقصٍّ حاسمة.

على دراجتي الناريّة انطلَقتُ بطيئـاً أرتجّ حينـاً وأتمايل حينـاً آخر.. لقد بات تحرّكي على متنها مدعاةً للتعب. فإضافةً إلى قِدَمها، صارت تحتاج إلى إعادة تأهيل بسبب الأعطاب الكثيرة التي ضربَتها نتيجة مطبّاتٍ وحفَرٍ وطرقاتٍ صفَعَها المَشيب في بلدٍ لم يتخطَّ عمر الشباب.

لديَّ متّسعٌ من الصبر لأبحث عن ضالّتي وأستكشف خباياها التي أعتقد أنّها تستحق العناء. وبتَوقٍ فادحٍ قصدتُ الشاطئ في إصرارٍ لتحقيق هدفٍ في مرمى الحقيقة، وكلّي ثقةٌ أنّني سألامس خباياها في توقيتٍ غير بعيد..

تجلّى الهدوء سيّد الموقف، ولم يبتر امتدادَه سوى أصوات أمواجٍ تتكسّر، مع كل هبوبٍ لريحٍ خريفيّةٍ ناعمةٍ حينًا وغليظةٍ حينًا آخر.

شيءٌ ما عبَر جانبي دون أن يلامس الجسد. لم أتبيّن كُنهَه، لكن أنفاسًا رطبةً طبَعَت بصماتها على جلدي. شعرتُ ببرودةٍ تنتشر في بدني وبقشعريرةٍ تعزف نغماتها لتوقظ شعيراتي، وتضعها في حال استنفار.

أكيدةٌ أنا من حضورٍ آخرَ معي، ولكن من يكون؟ وأين يكمن؟

تسلَّلَت نظراتي بين ثنايا المكان وتغلغلَت في أنحائه بحثًا وتقَصّيًا، دون أن تتمكّن من التقاط أيّ دليل.. ودون سابق توقّع، لمحتُ عجوزي يعرُج بتعبٍ فوق الرمال الساخنة، حافيَ القدمين، بينما حذاؤه السندباديّ يجثو غير بعيدٍ عن دهشتي.

«عمّ عُدَيّ.. أنا تَرَف، أتيتُ لأراك».

وبكامل هَدأته، التفَتَ نحوي وعلى وجهه إمارات تعبٍ وتَضَجُّرٍ.. بعثر ابتسامةً شاحبة، وأرسل بيده إشارةً مفادُها أن أنتظر، وغاب عن النظَر!

مكثتُ مكاني وقتًا فيه من المَلَل ما يكفي لإحصاء عدد حبّات الرّمل.. لكنّني، من وَفرة حماسي، لم أشأ أن أُبعثر اهتمامي بين تفكيرٍ وتأمّلٍ ولَهو. أردتُ التركيز في لقائي بالعجوز، وفي كيفيّة اجتذاب قبوله للإجابة عن كل التساؤلات التي باتت تدكّ سكينتي وتنثرها نُتَفًا. ربّما هي فرصتي الأخيرة

لاقتحام خبيئاته، والتغلغل في مسامات غموضه، لذلك عليّ أن أكون أكثر من فتاةٍ تآكلَت حماساً.. أن ألتمس ألف صبرٍ وأرتدي طولَ البال.. وأن لا أغادر إلا وفي جعبتي حكايةٌ قد تكون خارطةَ عبوري نحو اليقين.

في جلوسي رحتُ أداعب الرمال الناعمة.. انسيابُها الرقيق بين أناملي أدخل الطمأنينة إلى رهبتي، وحمل إليّ شعورَ راحةٍ أشبهَ بحضنٍ دافئٍ في ليلٍ قارس الوَحدة. جلّ ما خشيته أن ينقضي الوقت دون أن يعود عجوزي من رحلته، فأخسر فرصة القبض على الحقيقة. لكنّ هواجسي سرعان ما أخفَقَت عندما أتاني ظلّ العجوز، وجثا بقربي قبل أن يحضر جسده ويشاركَنا الجلوس.

إحساسٌ مختلفٌ راودني هذه المرّة، فلا توتّر ولا ارتباك بل اتّقادٌ للعبور نحو عميق الخبايا. كنتُ على يقينٍ باستشعاره لما يجول في خاطري، لذلك لم أطلق العنان لأيّ كلامٍ أو استفهام بل ارتديتُ صمتي في انتظاره كي يُمطِرني بما يحتاجه قلبي ليَسكُن خَفقه.

«أنا مثلكِ يا تَرَف.. نعم، ثمّة مشترك بيننا. نحن نشبه بعضنا في البحث عن الظلّ البديل.. أنا ذرفتُ عمراً في سبيل ذلك دون أن أحظى بشرف النجاح. أرهقني البحث والانتظار، واليوم بِتُّ على شفا الرحيل. ربّما ما عجزتُ أنا وأبناء نكبتي عن تحقيقه قد تصلون أنتم إلى بلوغه! رغم جلَّ ما خَبِرتُه منذ فجيعتنا وحتى الآن، جعلني أرتدي قناعةً بعَجزنا جميعاً وقلَّةِ حيلتنا أمام خسارة الأرض والوطن.. ربّما أنتم محظوظون أكثر منّا في مسألة العودة، أمّا نحن وقد مضى على لجوئنا سنوات عجاف، ومع ما رأيناه من خذلانٍ

وعايشناه من خيبات، صار أقصى طموحنا أن نتعثّر ذات حنين بذكرياتٍ لها نكهة الانتماء».

بهذه العبارات، اقتحم العجوز صمتي، وتركني على حين ذهولٍ، أستعيد كلماته حرفًا حرفًا.. إذاً.. هو لاجئٌ، وهذه الأرض ليست سوى محطّة انتظارٍ للعودة!

إنّه غريبٌ مثلي، ولم يُفلح في التآلف مع نبض المكان وهذيانه، ولا حتى استطاع أن يجد فيه حُضنًا بديلاً أو حِصنًا يُؤويه.. يبدو أنّه يعيش مأساةً تحاكي ما أنا فيه، لكنّه مخضرمٌ في هذا المجال ولديه تاريخٌ عريقٌ من التّيه..

ومع ذلك، برغم هذا التماثل، أراه يقيم تصنيفًا بين «نكبتهم» و«مأساتنا»، ويميّز بين «تغريبتهم» و«لجوئنا»!

تُرى من يكون هؤلاء الآخرون الذين ينتمي إليهم، ومن أيّ رماد وطنٍ قَدِموا؟ بماذا قد يختلف لجوءٌ عن آخر؟ ولماذا قد تعجز الأرض الجديدة عن ممارسة دور البطولة في الاحتواء؟

عجوزي في حال يأسٍ كبير، أشعر بالتخاذل ينسج حروفه بين كلماته، وبالعَجز ينبض بين أنفاسه.. حديثُه موجع، يبعث على الحزن، ويوَلِّد في الروح ألف غصّةٍ وحسرة.

أنا أسمع كثيراً عن مخيّمات لجوءٍ منتشرة في أكثر من مكان هنا، لكنّني لم أحظَ بشرف زيارتها مطلقًا. في الواقع لم أسعَ لذلك، ولِمَ أفعل، وأنا أختبر يوميًّا أدق تفاصيل اللجوء وأحيا في مخيّمٍ نموذجيّ باذخ الفقر والحرمان. ما سأُعاينه هناك، لن يكون سوى تقليدٍ للوحة أصليّةٍ أشارك كلّ يومٍ في صياغة

ألوانها القاتمة.. كلّها مخيّمات تتماثل في التعب والكَرب والأسى، رغم أنّ قاطنيها عَبَروا حدوداً كثيرة ومتباينة، وحملوا رِحالَهم من رماد أوطانهم ليستقرّوا في شبه مأوى!

اعتمرَتني رغبةٌ بالصمت وعدم بَثّ أيّ استفهام. شعرتُ بي مكبَّلةَ اللسان، وكأنّ يداً خفيّةً تُطبق على فمي وتعتصر كل طاقةٍ للكلام عندي. ومع ذلك فقدتُ زمام السيطرة، ودون تحضيرٍ مسبق وجدتُني أسأله:

«منذ متى وأنت لاجئٌ في هذه البلاد؟ في أيّ مخيّمٍ تقطن؟ ولماذا أراك غريباً في كلّ شيء.. في ظهورك واحتجابك.. في لباسك وسلوكك.. في اشتعالك وانطفاء حماسك؟ من أنت يا عم؟».

بعيونٍ باهتة، ونظراتٍ يشوبُها الوجع، تطلّع نحوي بعد أن رفع القبعة وطرحها فوق الرمال. كان ثمّة حبّات عرقٍ تقطر من جبينه المزركش بالتجعيدات، وبريقُ عبراتٍ يلتمع في حدقتيه. وبصوتٍ أشبه بالنَّحيب قال: «أنا شيخٌ سبعينيّ، اغتربتُ قسراً مع عائلتي عندما كنت طفلاً في الثالثة من العمر. ورغم صغر سنّي آنذاك، إلّا أنّني أتذكّر تفاصيل مأساتنا تلك، والعناء الذي تكبّدناه لنخرج من دائرة العذاب حيث المحتل يبطش، يعتدي، يذبح، يدمر ويسرق.. إلى فسحةٍ ظنّنا بها مضيئةً فإذا بنا نتعثّر بعتمةٍ خلف أخرى وبخذلانٍ بعد آخر.. وجدنا أنفسنا وقد خسرنا رفاهية الشعور ورغَد الحياة وانغمسنا في قعر مدينةٍ قدّمت لنا شِبهَ احتواء.. ومنذ تلك النكبة، لم أعرف لأرضنا موطئًا، ولا شممتُ ضوع حبقها ولا حتى تذوّقتُ نكهةَ الصمود في

زيتونها الروميّ.. صورة الوطن أضحت شاحبةً غير أن عشقه صار أكثر زهواً».

تنهيدةٌ وراء أخرى.. فصمتٌ طويل.

ارتبكتُ في جلوسي ولم أجرؤ على اقتحام قداسة مشاعره التي أخذت تنزف بقوّةٍ فوق الوجنات. شعرتُ بقلبي يتمزّق نُتفـًا، وبروحي تتناسل من جسدي أمام هيبة مشهدٍ تنفطر له أفئدةٌ طيّبةٌ وتنهار نظريّات حقوق الإنسان ومنظّماتها الخائبة.

شيخٌ قضى عمراً لا يعرف للوطن معنى.. عاش منذ الطفولة لجوءاً كئيبـًا، وسعى جاهداً ليختبر وهمَ الانتماء في الأرض الجديدة، دون أن يتمكّن حتى من لمس أوتار السكينة.. لا بدّ وأن يكون متمايزاً عن محيطٍ يهدم أمله في كل يومٍ عشرات المرّات ويطوّق أنفاسه ليحجب عنه أيّ نبض.

أفهمكَ يا عمّ عُدَيّ.. وأُقدِّر صبراً اعتلَيتَ عرشَه دَهراً، وما زلتَ بهذه الحكمة وهذا البال الطويل.

***

أشعر بقلبي يرتجف كطفلةٍ تعبر الطريق إلى المدرسة لأوّل مرّة.. أراني أسير بجانب عجوزي بتوقّدٍ وتردّد في آن وبقربي تنزلق دراجتي التي ضربها المشيب. يشتعل التَوق في نفسي لرؤية مسكن العمّ عُدَيّ والمخيّم الذي أقفل أبوابه على وجعه منذ ما يقارب القرن، دون أن يمنحه لحظةَ أمان. وفي ذات التوقيت تتآكلني الرهبة من مستقبلٍ لي قد أراه يرتع بين أزقة ذلك المخيّم وفي نظرات قاطنيه المعمّرين!

ما أخشاه هو أن أعثر على ذاتي هناك، مُسنّةً تائهةً في طرقات مخيّمٍ دخل مرحلة الشيخوخة وصار أيقونةً دوليّةً للمعاناة.. أخاف أن أستشرف مستقبلي في مصير أبنائه، وأراني مثلهم أنغمس في أنينٍ عميق الجذور شبيهٍ بوجعهم الطويل الذي استمرّ عُمراً كاملاً من الخيبات.. صحيح أنّ حياة المخيّمات ليست غريبةً عنّي، لكنّ المكان الذي أقصده الآن هو بالنسبة لي أكثر من مجرّد مكان لجوءٍ اعتياديّ. إنّه مصير شعبٍ بالكامل فقد أرضه ذات احتلالٍ، وبات شريداً بكل ما للكلمة من معنى. صار في نظر الجميع أمراً واقعًا اعتياديًا، وبوجودٍ هامشيّ يستجدي نبضًا من هنا ودعمًا من هناك..

حتى هذه اللحظة، لا أزال أحمل في قبضتي أملاً بعودةٍ مُزهرةٍ إلى أرض الوطن، لذلك أجدني خائفةً من أن تسرق منّي هذه الزيارة آخر وَهجٍ، وأصادف بين ملامح العابرين رسالةً مفادها: اطرحي أمنية العودة جانبًا، وعيشي مثلنا لحظة وجودكِ كلاجئةٍ لا كحالمة..

يا إلهي كم هي مخيفةٌ هذه الفكرة، وكم أحتاج من طاقة احتمالٍ لأتقبّلها وتصبح جزءاً من قناعاتي. ومع كلّ ذلك لا أعرف لِمَ تجنح بي الرغبة لرؤية مسكن العجوز وخوض غمار عالمه!

عند مسافةٍ غير بعيدةٍ عن الشاطئ، انحرفنا يميناً وتقدّمنا بين مجموعة من المباني الضخمة، ثمّ تغلغلنا داخل زقاقٍ ضيّقٍ يكاد لا يتسّع إلّا لشخص. سرتُ خلف العم عُدَيّ وأنا أجرّ درّاجتي التي باتت عبئاً يعيق حركتي كلما توغّلنا أكثر. شعرتُ بانقباضٍ في النفَس وأنا أَجهَد في المسير بين حائطين مرتفعين جداً لا يشوّه امتدادَهما سوى بعض النتوءات والكثير من الخربشات بالفحم الأسود.. شيئاً فشيئاً صارت الطريق تتسّع وأخذت بعض النسمات الباردة تلامس وجهي وتجدّد نبض الوريد. لا بدّ وأنّنا بِتنا على أعتاب نهاية الطريق. لكن نشوةَ البرودة لم تستمرّ كثيراً، إذ سرعان ما اقتحمَت رائحة نفاياتٍ جارحة شعيرات أنفي مسبّبةً لي غثياناً وحالَ قرفٍ تشبه بل تتفوّق على تلك التي تجتاحني عادةً في صباحات كلّ يومٍ، وأنا أغادر المخيّم سعياً وراء «اللاحياة».

دقائق قليلة، عثرتُ بعدها على نفسي وسط مكانٍ نافس في بشاعته كلّ قبيحٍ عبَرَ يوماً أمام استيائي. كيف يمكن لهذه الدمامةِ أن تتواجد قريباً من منطقةٍ فارهة الترَف كنتُ، ذاتَ غباءٍ، أظنّها تبعد مسافاتٍ ضوئيّة عن تردّدات الفقر والحرمان!

أول صورةٍ استقبلها نظري فسحةٌ كبيرةٌ غارقةٌ في الوحل حيث يرتع صِبيةٌ حفاةٌ وشبه عراة. بدا لي واضحاً أنّ الوحول هي نتيجة التحام التراب بمياه

الصرف الصحّي النّافذة من تحت الأرض في أكثر من مكان. لا بدّ وأنّ رائحة المجارير طغَت وتجبَّرت، لدرجة إحداث تخدير في الجيوب الأنفيّة لقاطني هذا التجمُّع اللا إنساني، فتعطّلَت لديهم حاسّة الشمّ وفقدوا قدرة التفاعل مع الأبخرة المقزّزة، وإلّا لما استطاعوا حتماً الاستمرار في خَوض جِهادِهم هنا.

على أطراف الفسحة الواسعة وفي جميع الاتّجاهات، تشابكت الحبال وتدلّى منها الغسيل لتلامس أطرافُه الأرض وما عليها من قاذورات وأوساخ.

عددٌ كبيرٌ جداً من النوافذ تجلّت مطلّةً على هذا المشهد المأساويّ بحيث شكّلت كلّ واحدةٍ منها المنفذ الوحيد إلى الضوء، لمنزلٍ يعلم الله مقدار البؤس الذي يقطن أركانَه.

أمعنتُ النظر حولي، وبعثرتُ نظراتي هنا وهناك، دون أن أنجح في العثور على أي طريقٍ جانبيّ أو حتى زقاقٍ فرعيٍّ يكسر رتابة هذا الحيّز المكانيّ، فقط أبوابٌ مبعثرة بشكلٍ دائريّ تُعتبر إما المدخل لبعض المحلّات التي نشرت بضاعتها على الطريق، أو المَسرب لمنازل البؤس القابعة بانتظار «اللاشيء».

«أهذا هو المخيّم بأكمله؟ ألا يوجد طرقات وزواريب وبيوت ودكاكين أخرى؟!».

تلقّى عجوزي هذا التساؤل بصمتٍ في البداية، ثمّ صدح بضحكةٍ تَعبةٍ شابَها السعال، فتقطّعت سبُلُها وأضاعت خارطة الطريق..

«نعم عزيزتي.. عندما ضاقت بنا الأرض بما رحُبَت، لم نعثر سوى على هذا الركن ليكون الملجأ والمأوى، فقَبِلنا حامدين شاكرين.. وآملين بدايةً أن

يكون مجرّد محطّة انتظارٍ ريثما تأتينا الأخبار السارّة، ويوافينا قطار العودة.. ومنذ ذاك الارتقاب، لم تَعبر بنا أيّ قاطرةٍ ولا حتى مرَّ ببابنا أيّ ساعي بريد».

غصّةٌ تلو أخرى، ونظرات ساهمة.. ثم استطرد: «المشكلة الكبيرة التي عانينا وما نزال منها، هو الرفض القاطع لوجودنا هنا من قبَل قاطني هذه المنطقة. شعرنا بعداوتهم لنا منذ قدومنا، ولهم الحقّ في ذلك.. أنظري مقدار البؤس الذي نغرق فيه وسط رفاهية وجماليات كثيرة تحيط بنا. وجودُنا يمارس تشويهاً لبقعةٍ جغرافيةٍ ربّما دفع ساكنوها كنوزاً في سبيل تواجدهم فيها. وفجأةً أتينا نحن من رحِمِ المأساة، لنُمعن خراباً في أحلامهم ونهدم راحة نفوسهم».

صمتٌ آخر اعتلى ملامحه لفترةٍ وجيزةٍ قبل أن يُكمل: «الغريب يا صغيرتي في كلّ ذلك أنّنا توقّعنا خسارةً أمام تحدّياتهم، فنحن نمثّل الضعف بلجوئنا وفقرنا وهم يشكلّون القوّة بغناهم وبانتمائهم للمكان.. لكن انهزامَنا أمامهم باء بفشلٍ ذريع بفعل تدخّل قوى محليّة وإقليميّة وحتى دوليّة لمعاونتنا وتكريس إقامتنا هنا، وإرغام الجميع على قبول بؤسنا كنعمةٍ وهديّةٍ من السّماء.. لم ندرك أهميّتنا قبل تلك الأحداث، كنّا ننظر لذاتنا كأجسام طفيليّة ليس لها أرض وهوية، وإذا بنا نجد حضورَنا بمكانةٍ رفيعةٍ.. مممممممم..

نعم.. لا تستغربي يا تَرَف فعندما يقترن لجوء شعبٍ ينتمي لنصف العالم البائس، بتمكين حضور شعبٍ آخر احتضن وجودَه العالم بأسره، لا بدّ وأن تُزال كلّ العقبات وتُفتَح التسويات لإنجاز لجوءٍ آمن بعيدٍ عن أيّ منغّصات..

وهذا ما كان.. مع كلّ هذا الدعم صار وجودُنا متجذّراً هنا، لكنّنا لم ننجح مطلقاً في استقطاب القلوب حولنا. ما زلنا في دائرة الرّفض من المحيط، وما زالت النظرات تقتحم حضورَنا بازدراء».

كنت أستمع إلى العم عُدَيّ بنَهَمٍ شتّتَ انتباهي عن كل مشاهد القُبح التي تتراءى أمامي. برهةٌ إضافيّةٌ من الصمت استعاد بعدها عجوزي كلامه قائلاً: «أتعرفين يا تَرَف أنّنا مجبورون على البقاء هنا، وخروجُنا محدّدٌ بمواقيت معينة فُرِضَت علينا حتى لا نُمعن إفساداً في أمزجة الأهالي!

أنا وحدي أشكّل استثناءاً، بحيث أنّ فِعلَ دخولي إلى المخيّم أو خروجي منه أقوم به بحريّةٍ لا يَشوبها إلّا بعض العيون التي تلاحقني وتنظر لي إمّا بحسدٍ أو بتعالٍ. ولكن لا أهميّة لكلّ ذلك طالما أنّ لا أحد يجرؤ على إقحام حشريّته في خصوصيّاتي، فأنا أُعتبر هنا بمثابة «المُختار» والأب الروحيّ للجميع. حتى خارج المخيّم يتعامل معي الأفراد باحترامٍ ولو مُفتعلٍ، وهذا أقصى ما أرتجيه منهم».

كان يتكلّم برتابةٍ غريبةٍ تقطعها من حينٍ لآخر بعض التنهّدات. نبرةُ صوته هي الوحيدة التي حملت بين ثناياها تعرّجات ومنحنيات ووقفات، مانحةً شيئاً من الروح لحديثه المأساويّ.

ولكن!

برغم تعاطفي الكبير مع ما سمعت، وتفاعلي كلاجئةٍ مع كلماته، إلّا أنّني ما زلتُ مصرّةً على وجود ثقبٍ أسود في ناحيةٍ ما من هذه الحكاية، يبتلع بعضاً من أحداثٍ وصورٍ، ووجهاً محيّراً للحقيقة!

***

في طريق العودة، كانت الشمس قد باتَت نصفَ غارقةٍ خلف أمواج البحر التي تعاظمَت مع ارتفاع برودة الطقس وازدياد شدّة الرياح. لا أعرف كيف يخسر الوقت نبضَه سريعًا عندما أكون برفقة العم عُدَي. كلّما التقيتُه أشعر وكأنّ قبضةً من رمادٍ سحريّ أُلقِيَت في المكان، وأضفَت على وجوده وَهجًا يخطف دقائق الزمن، ويُفقدني أيّ اشتهاءٍ للطعام أو لأيّ فعلٍ آخر.. أحسّ بحضوره يطغى، ويسيطر بقوّةٍ على تردّدات فكري، وينسج خيوطًا من خيالٍ تلتفّ حول تلابيب الفؤاد.

سعيدةٌ أنا بما عرَفته وكان غائبًا عنّي، لكنّ الحيرةَ أبَت إلّا أن ترافقني في دَرب الرجوع. لماذا لم يقترب أحد من أهالي المخيّم لإلقاء التحيّة على العجوز؟ وكيف لم تتأجَّج حشريّتهم لمعرفة من هي الغريبة التي تخطّت عتبتَهم، وحلَّت ضيفةً عابرةً على «مُختارهم»؟

في مخيّمنا الكلّ يلعب دور الرّقيب، من الصغير إلى الكبير. كلّ من تُسَوِّل له أفكاره اجتياز حدودِنا، لا بدّ وأن يمرّ أولاً بكشك الحَجّي ويقدّم استبيانًا يُعرّف فيه عن نفسه، ويوضّح مَقصدَه وسبب زيارته والوقت الذي يحتاجه لإنجاز ما عليه.. فإن نجح في مهمّة الإقناع عبرَ بسلامٍ، ليوقفَه حاجزٌ بعد آخر وتُعاد عملية الاستجواب عشرات المرّات.

لا بدّ وأن نوفّر لذاتنا حمايةً وشبه استقرار، ونحافظ على أَمننا في ظلّ غياب أيّ اعتبارٍ لوجودنا كأمرٍ واقع. صحيح أنّنا لا نملك في بيوتنا ما يستحق القلق، وليس لدينا ما قد يثير أطماع الغير، لكن الحياة بلا أدنى شعورٍ بالخصوصيّة تصبح لِحاظُها ثقيلةً على القلب، وتوجّه دفّةَ المشاعر نحو

الإحباط. ونحن كلاجئين، نحتاج ألف خطوةٍ تُقصينا عن الخيبة، التي قد تضاف إلى خذلاننا فتُحدِث هزيمةً واستسلاماً..

خروجي من المنزل صباحاً ترافقَ مع التجمُّعات الاحتجاجيّة التي نظّمها أهالي المخيّم على الطريق العام. سبق وشاركتُ أبي في وقفاتٍ مماثلة قبل أن يُقعدَه المرض لكنّني اليوم أرفض أن أكون جزءاً من وجودٍ يتحرّك على هامش الأحداث، في الوقت الذي تستمرّ فيه الحياة اعتياديّةً لدى الآخرين.. وكلّ ما قد نستحصل عليه لفتةٌ إخباريّةٌ مُقتضبة، وصورُ كثيرةٌ يلتقطها العابرون ويتنافسون عليها، لنصبح جزءاً من تسليتهم واستقطابهم لعلامات الإعجاب عبر وسائل التواصل الاجتماعي!

ركنتُ الدراجة الناريّة قرب باب البيت ودخلتُ باستعدادٍ كاملٍ للعبور نحو انهزامٍ روحيّ كما حصل لي سابقاً. لم تكن أمّي في الداخل ولا حتى إخوتي، لا بدّ وأنّها في زيارةٍ عند الجارة لمناقشة وتحليل أحداث هذا النهار الغارق بالفراغ. وحدَه أبي تراءى قابعاً على كرسيّه في القاعة الكبيرة قريباً من مذياعٍ قديمٍ، يستمع من خلاله لصوتٍ أجَشّ يسرد نشرةً إخباريّةً برتابة مُقزّزة. ما إن لمحني حتى التمعَت عيناه في دعوةٍ لي إلى الاقتراب.

وبنظراتٍ ساهمة، تطلّع نحوي ثمّ أطلق العنان لتنهيدةٍ اخترقت فضاء الكوخ. لمحتُ حركةً بسيطةً في أنامل يده اليسرى التي ظلّت خلال سنوات مطويةً على ذاتها. وأمام دهشتي، رسم ابتسامةً باهتةً على ثغره.. وبصوتٍ عميقِ الصدى قال: «صغيرتي.. أريدك أن تكوني دائماً قويّةً أمام كلّ الظروف. لا تجعلي قرارك بترك الدراسة يُجهد فكرَك، ويحملُك بعيداً عن

واقعنا التَعِب. أعرف أنّكم في البيت تنظرون إليّ كالغائب، لكن صدّقيني يا تَرَف أنا حاضرٌ مع أدنى تفاصيلكم، لكنّ عجزي صعب.. أحالَ روحي رماداً، ودمّر شغفي للحياة.. لا أريدكِ أن تكوني ضعيفةً مثلي، فلا تجعلي من الظروف سبباً يمنعك عن الحياة. عيشي يا تَرَف، لكن بواقعيّةِ فتاةٍ ناضجة..».

صار قلبي يخفق بقوّةٍ وأنا أنظر إلى شفتيه في حركتهما البطيئة.. هي المرّة الثانية التي يباغتني فيها أبي بحضوره الحكيم، ويأتيني في توقيتِ حاجةٍ ليَهِبَني سكينةَ نَفسٍ أفتقر إليها. رغِبتُ أن أسأله عن سبب انطوائه على الذات وانكفائه عنا، لكنّه لم يترك لي متّسعاً من الأمل، إذ سرعان ما استعاد إحجامَه عن العالم، وتلاشَت نظراتُه وراء المجهول..

أدرك أنّ أيّ محاولةٍ منّي لإعادة إحياء انتباهه سيعتمرها الفشل، لذلك غادرتُ حضورَه وفي قلبي كثيرٌ من النبض وعشراتُ الكلمات التي لن تُقال.

بالطبع فَرِحتُ كثيراً بصَحوته وإن كانت ضئيلة، لكنّ حديثَه اعتراه الغموض. لماذا يدعوني إلى الانغماس في الواقع، وأنا التي طرَحَت أحلامَها جانباً في محاولة لمجاراة حكايا الواقع وتحدّي الظروف؟! أُنهِكَت روحي كثيراً في سبيل ذلك، وما زالت تَجهَد للاحتفاظ بقَدْرٍ مقبولٍ من الحياة.. أيُعقل أنّه غفل عن كلّ ذلك!

لملمتُ بعضاً من ضِيقٍ انتشر منّي في المكان، وتوجّهتُ نحو الثلاجّة القديمة القابعة في الزاوية لأبحث عن أيّ شيءٍ يتغلغل في معدتي ويُسكت اهتياج جوعي، قبل أن أخلد للنوم. لن أرتقب عودة أمي وإخوتي، فغداً

ينتظرني يوم عملٍ شاقٍّ وطويل، ومنذ الفجر عليّ أن أسعى خلف مسؤولياتي التي ألمحها كظلالٍ وَغدةٍ تعدو سريعًا وأقوم بملاحقتها، فتستدير ساخرةً مستهزئة.

على فَرشتي الرثّة والمركونة قرب الحائط، استلقَيتُ وفي بالي ترتع عشرات الصور والأفكار. كم أشعر بصعوبةٍ في استقبال الإغفاءة بسبب صلابة الأرض تحتي، من فَرط اهتراء الفراش ومن وفرة الأحداث التي تتشابك وتتدافع داخل رأسي المنهَك. رحتُ في تقلّبي أسترجع تفاصيل يومي بدقائق نبضه. فعلاً تجلّى نهاري مليئًا بالأحداث، وفائضًا بالتساؤلات التي لم أجِد لها إجابات.. يبدو أنّ الثقوب السوداء المحيطة بي كثيرة، وفي قلب كلّ واحدٍ منها تتلطّى حقيقةٌ وتختفي إجابة!

وقتٌ مديدٌ سرى، عادت خلاله أمّي مع أخوتي وضجّ البيت بالأصوات والمناوشات، والأوامر تتبعها الاعتراضات.. تلا ذلك جَلَبة إعداد العشاء وصخب الأواني النحاسيّة والصحون، ثمّ مشادات بين مختلف الأطراف إلى أن ركَنَ كلّ منهم إلى مكانه، وغاب في نومٍ عميق.. أنا الوحيدة التي احتفَظتُ بعينين شاخصتين، وبتقلّباتٍ وتوتّراتٍ وأرقٍ ثقيل!

ما أحوجني إلى سباتٍ عميقٍ يرفع روحي بعيداً عن هذا العالم، ويبعدني عن هواجسَ تحيط بي كلّ ليلةٍ فأغفو على صريرها، وتأتيني بعد الرّقاد على هيئة كوابيس.. بل ما أعوزَني إلى حلمٍ هادئٍ يزورني فيه طيفٌ من وَهج الطفولة فيذكّرني بـ تَرَف المدلّلة التي كُنتُها ذات انتماءٍ للوطن، فأتراقص على

وقع الأمنيات وأغدو كياسمينةٍ تتطاير فوق أرضٍ عشقتُها، وكان لي فيها ظلٌّ صادَقني وأورَف لِحاظي، ثمّ على حين اغترابٍ.. هجرني!

التوقيت تجاوز منتصف الليل، والجفون ما زالت تغالبُني وتعاند أيّ محاولةٍ للاسترخاء. في الغد الباكر عليّ أن أرافق عابِر إلى مدرسته للقاء المسؤول الإداريّ، واستطلاع سبب طرد للمرّة الأولى ولعدّة أيام..

الظلام بات دامسًا في القاعة الكبيرة، وأصواتُ شخيرٍ غليظة تنبعث من أكثر من مكان، في وتيرة متتابعة. حاولتُ رغمًا عنّي أن أتآلف مع هذا الكمّ الهائل من النّشاز، وأستقبله كترنيمات تهدهد لي. وشيئًا فشيئًا، مع تركيزٍ متقطّع، بدأتُ أنسحب من المكان لأرتحل إلى غفوةٍ نَشَدتُها منذ تَعَبٍ وضِيق. الهدوء في رأسي صار قاب قوسين من الانتصار، وفقدتُ سيطرتي على جسدي الذي خسر وزنًا وشعرتُ به كريشةٍ تُمعن تحليقًا..

وفجأة!

راودني صوت نقرٍ خفيفٍ على الباب مع حشرجاتٍ خلف دفّته المتهالكة.. وبين صحوٍ وإغفاءة، عاد جسدي إلى تقلّباته واستعاد سمعي بعضًا من صخب المكان.. الجفون ما زالت في حال سهاد، لكن الصوت صار أكثر وضوحًا ممّا أجبرني على خيانتها. وبصعوبةٍ بالغة فتحت عينَيَّ لأرتطم بالسّواد، وبسكونٍ طاغٍ أدخل القشعريرة إلى ثنايا جسدي.

استقَمتُ في جلوسي ورحتُ أتطلّع إلى بابنا الخشبيّ المتآكل. كان ثمّة قمر في السماء. تراءى ذلك واضحًا من نور خافتٍ انسرب إلى الداخل عبر

شقوقٍ تَزين خشب الباب في أكثر من ناحية، وتسمح أيضاً لبرودة ليالي الخريف أن تتسلّل لتُلقي بثِقَلها فوق أجسادنا..

لا بدّ وأنّ حلماً ارتادَني، وظننتُ به الواقع.. مع هذه الفكرة استكَنتُ، ورجعتُ إلى وضعيّة الاستلقاء لأستقبل نعاسي من جديد.

«تَرَف.. تَرَف.. هل أنتِ نائمة؟»

تنبّهَت جوارحي كلّها، واستنفرَت شعيرات جسدي، وأخذ نبضي يتسارع حتى كاد قلبي يتمزّق نُتَفاً..

من أين أتى هذا الصوت! من يناديني في هذا التوقيت المُريب من العتمة، هل هو الواقع أم أنّه الهذيان!

***

تَرررررررررف..

إنّه اسمي! أحدهم يناديني في الخارج. الصوتُ غير واضح، لكن أصداءَ اسمي تردّدت في عمق الوجدان. انسحَبتُ بسكونٍ من فراشي، بعد أن لففتُ جسدي بشالي الصوفيّ. ثمّة شيءٌ يحتكّ بالباب بلطف، ويُصدر حفيفاً خافتاً ومثيراً للريبة..

من خلال الثقوب، لمحتُ ظلّاً يتحرّك بخِفّةٍ وبشكلٍ عشوائيّ، يروح ويجيء وينحني في وضعيّة بحثٍ عن شيءٍ ما ثمّ يعود ليستقيم. فتحتُ الباب بشكلٍ فجائيّ ورميتُ نظراتي هنا وهناك عَلّي ألتقط هذا الغريب المتطفّل، لكنّني ارتطمتُ بالفراغ!

الطريق ساكنٌ بالكامل.. لا وجود سوى لقطٍّ صغيرٍ أسود يرقد في الزاوية ملتفّاً حول ذاته كقطعة شوكولا. أمعنتُ النظر فربّما أعثر على دليلٍ لوجود غريبٍ في المحيط، دون أن أظفر بأيّ انتصار.

متأكّدةٌ أنا من حضورٍ بشريٍّ أطلق حروف اسمي عدّة مرّات. لم أكن في طَور الحلم ولا حتى في دائرة الهذيان. أحدهم مرّ من هنا وتوقّف برهةً أمام بيتنا هاتفاً باسمي، وربّما لا يزال قريباً ومتلطّياً خلف حائطٍ أو برميل.

بخطواتٍ متثاقلة وقلبٍ واجفٍ، خرجتُ من المنزل في محاولةٍ لتقصّي حنايا المكان. القمر بدرٌ، مظهره يخطف الأبصار، وضَوؤه من حِدّته تجلّى كافياً لكشف كلّ خبيئةٍ وجلاء المستور. لا أعرف لمَ ارتادَت ذهني صورٌ من الماضي، واستحضرتُ ليلةً كنتُ فيها بأبهى حُلّةٍ في بيتنا القديم.

لا زلت أتذكّر ليلةَ عيد ميلادي الرابع، التي تركَت في نفسي بصماتٍ كالوشم لا تزول. كان القمر مكتملَ الحُسن، وفناءُ بيتنا الخلفيّ تجلّى في أروع صوره. فبين شتلات الزهور وشجيرات الورد افترشت أمّي بساطًا طويلاً ملوّنًا وعليه وضعَت أشهى أنواع الأطعمة والحلويات التي أعدّتها مع جدّتي. وحول البساط تجمّعَت نساءٌ من القرية مع بناتهنّ، صغيراتٍ وكبيرات. الكلّ تراءى فرحًا وأصوات الأهازيج الشعبية ملأت فضاء المكان.. حتى الأنوار عمد أبي إلى نَشرها في الحديقة في أكثر من ناحية عن طريق فوانيس صغيرة ملوّنة كان قد استقطبها معه من إحدى السفريات، لتزيد من بهاء المشهد وسحره.

ليلتَها خرجتُ من الباب الخلفيّ للمنزل على استحياءٍ، وتقدّمتُ بين الضيفات بفستانٍ كالأميرات خاطَته لي جدّتي لأمّي من أجل هذه المناسبة. وهذا كان أوّل وآخرَ فستانٍ حقيقيّ يلامس جسدي الهزيل ويُشعرني بأنوثتي، رغمًا عن خشونة الحياة في القرية وشظفها.

في تلك الأمسية حصلتُ على عددٍ كبيرٍ من الهدايا، ونِلتُ من الصغيرات الحاضرات نظرات حسدٍ جعلَتني أَفخر بذاتي وأشعر بتمايزي عنهنّ.. أوَ لستُ تَرَف الفتاة المدلّلة من والديها!

ما زلتُ أذكر رقص النساء على وَقع «الطّبلة» والأغاني البدوية التي ردَّدنَها وجذبَت انتباه البَدو قاطني الخيم القريبة منّا في الصحراء، الذين عمدوا إلى إشعال الأضواء في المضارب وأرسلوا الإشارات والأمنيات الطيّبة من

البعيد، عندما شعروا أن ثمّة مناسبة سعيدة تدور أحداثها في ربوع بيتنا الصغير.

ما زلتُ أيضاً أذكر وبوضوحٍ جدّتي العجوز الطيّبة التي أحبّها الجميع، وكانوا يأتون من كلّ المناطق المجاورة لنَيل بَرَكَتها والاستماع إلى أحاديثها التي تحمل عَبَق الحكمة وروح النقّاء. في ليلة عيد ميلادي تلك، كانت جاثيةً على وسادةٍ صغيرةٍ تشارك النساء مباهجهن، فتصفّق وتغنّي معهنّ بما احتفظَت به ذاكرتها من كلمات. وعندما غادر الجميع استدعتني إليها ووضعتني على حِجرها، وراحَت تهدهد لي وتمسّد شعري بمشطٍ صغير تحمله دائماً في جيب ثوبها. وقتذاك، شعرتُ أنّ القمر قد اشتدّ نوره وصار أكثر وَهجاً ورونقاً، ولمجتُ أطيافاً بيضاء تتهادى في السماء، ما لبثَت أن اقتربَت منّا وأحاطتنا بشكلٍ دائريّ. من شدّة الخوف تغلغَلتُ بين أحضانها فابتسمت ودَعَتني إلى الاطمئنان، فثمّة أرواح طيبة تحيط بنا وتُهدينا الأمان.

شرَدتُ طويلاً في ذكريات طفولتي التي باغَتَت حيرتي، وانتشلَتني من زماني والمكان. تدريجيّاً استعدتُ وَعيي لذاتي ولما يحيط بي، وبسبب غياب أيّ حضورٍ بشريّ، انحنيتُ قليلاً ورحتُ أرقب الأرض عَلّي أعثر على دليلٍ يُرشدني إلى ضالّتي فأستكين. بحثتُ طويلاً، ولم أترك زاويةً إلّا وغرستُ فيها بصري، وأمعنتُ النظر. وعندما لامَستُ حدود الانهزام، وقبل أن أغادر عائدةً إلى البيت، التمع شيءٌ ما خلف حجرٍ صغير عند زاوية الباب. دنَوتُ مسرعةً، وبرهبةٍ أمسكتُ جسماً صَلباً يشبه علبة صفيح..

نعم.. هي علبة صفيحٍ مركونة بشكلٍ متعمّدٍ بين خشب الباب والحجر الصغير!

ربّما يبدو الأمر طبيعيّاً خاصّةً وأنّنا نعيش في مخيمٍ تكثر في طرقاته النفايات وتتبعثر في جميع زواياه دون استثناء. من يجد علبة صفيحٍ هنا يركلها بقدمه، يشتُم سوء طالعه الذي لا يرمي في طريقه إلّا الأوساخ، ويُكمل المسير.. أمّا أنا، فللمسألة عندي معنى آخر.

علبة الصفيح تحمل بين ثناياها رسالةً واضحةً لي، وإن كانت غير مكتوبة، مفادها أنّ العم «عُدَيّ» هنا في مكانٍ ما.. لا أعرف سبب زيارته لمخيّمنا، لكنّ فكرةَ وجوده قريباً منح قلبي سعادةً أجهل سببَها.

إذاً، هو عجوزي من أطلق نداءاتٍ باسمي، وأنا لم أكن بالتأكيد على قَيد الحلم. لا بدّ وأنّه تقصّد تركَ علبة الصفيح هنا لأعرف بقدومه. لكن، لماذا أتى ولمَ غادر سريعاً دون أن ينتظر إطلالتي عليه؟!

أخرجتُ علبة الصفيح من مأواها، ضمَمتُها إلى صدري، ورحتُ أتمشّى ذهاباً وإياباً في محاولةٍ لبَثّ الدفء بين ضلوعي، في ظلّ برودةٍ عادةً ما تغدو كاسرةً في الصباحات الخريفية..

فجأةً التقط سمعي وقع خطواتٍ بعيدة أخذت بالاقتراب شيئاً فشيئاً. تيقّظَت حواسي وتوجّهتُ بنظراتي سريعاً نحو مصدر الصوت. ظلٌّ أسود بعيد تراءى أمامي كمارِدٍ أو مقاتل. أوجفتُ خيفةً، وكنتُ على وشك الفرار لولا أنّ صوتاً مألوفاً علا في الأجواء مُلقياً التحيّة.

«صباح الخير تَرَف.. ماذا تفعلين في هذا التوقيت خارج البيت؟».

يا إلهي، إنّه الحَجّي.

تنهيدةٌ عميقةٌ خرجَت من صدري الذي راح يخفق بقوّةٍ، وبصوتٍ مرتعشٍ قلت: «صباحك خير حجّي.. في الحقيقة شعرت بأرقٍ فخرجتُ أتمشى قليلاً.. هل مرَرتَ من هنا منذ قليل؟».

بنظراتٍ مستفهِمة، تطلّع نحوي نافيًا تمامًا عبوره في المكان:

«كلا عزيزتي.. أقفلتُ الكشك منذ قليل، وها أنا على وشك العودة إلى البيت».

قد يكون الحجّي التقط حضور العم عُديّ أثناء مروره أمام الكشك، وهذا ما عليّ تبيّنه.. هل دخل المخيم شخصٌ غريب هذه الليلة حَجّي؟

استفهامٌ جديدٌ عبَر ملامح الحَجّي قبل أن يجيب: «بالتأكيد لم يحضر أحد.. لم أغفل مطلقًا عن أيّ عابر.. جميع الذين دخلوا هم من قاطني المخيّم، وكانوا عائدين من أعمالهم.. هذه الليلة تحديداً لم يضربني النعاس ولم تسرقني أيّ إغفاءة، ولو أنّ فأراً غريبًا عبَرَّ لكنتُ أنشبتُ فيه مخالبي».

ضحكةٌ خفيفةٌ مصحوبةٌ بتثاؤبٍ ثقيل، تأهّب بعدها الحَجّي للمغادرة. رفع يده في تحيّةٍ عابرة، ودون أن ينطق بحرفٍ أدار ظهره واختفى ظلاً أسود كما أتى.

وقتٌ غير قصير مضى وأنا مستقرّةٌ مكاني في ترَقّبٍ للمجهول، فقدتُ بعده الأمل في أيّ لقاءٍ.. فلا العجوز عاد، ولا بانَ لرجوعه رجاء. طويتُ خيبتي، وبكامل حيرتي دخلتُ إلى البيت، وتغلغلتُ في فراشي حاضنةً علبة الصفيح.

الساعة الآن تقترب من الثانية صباحًا، وأنا أضعتُ نعاسي بين حيرةٍ وحماسٍ وخذلان. ومع خيبةٍ استشرسَت ونقَشَت حروفَها سُهاداً، فقدتُ نهائيّاً شهيّتي للنوم.

يا لها من ليلةٍ غريبةٍ ابتدأت بأرَقٍ وانتهَت بأرَقٍ، وبينهما ارتسمت حيرتي نسيجًا التفّ حول الروح كغزل عنكبوت!

***

بانت خيوط الشمس وتسلّل نورها الخافت من بين الشقوق التي تَزين سقف وجدران كوخنا الصّفيحيّ. وها قد أتى اليوم الذي عليّ أن أقوم فيه بمهمّتي الصعبة، والتي تتقدّم عندي في أهميّتها على جميع المسؤوليات. المفروض أن أرافق عابِر إلى المدرسة لمقابلة الإدارة التي استدعت وليّ أمره بشكلٍ عاجلٍ، بسبب المشاكل الكثيرة التي يفتعلها، والأضرار التي بات يتسبّب بها لزملائه.

عندما أخبرني عابِر بدايةً بذلك ظننتُه يعبث بي، خصوصاً مع لامبالاةٍ تجلّت واضحةً في عينيه. الصغير عابِر، وبرغم عدم انسجامه مع محيطه، يبقى ولداً هادئ الطّباع وخجولاً بعض الشيء. فكيف يستطيع أن يُحدث مثل تلك المشاكل التي تتنافى مع تركيبته النفسيّة وحتى الجسديّة كولدٍ هزيل المَلمَح! لكنّ ورقةَ استدعاءٍ أعطاها لي أوضحت كلّ شيء، وتضمّنت عبارات حادّةً، وقراراً بفَصل الصغير من المدرسة لعدّة أيام.

سبق وطلب منّي عابِر ولأكثر من مرّةٍ أن أتوسّط له عند والدتنا حتى تسمح له بالتّخلّي عن الدّراسة، مقابل قيامه بالعمل في أيّ مجال، ومساهمته في المصاريف التي باتت كثيرةً. وفي كلّ مرّةٍ كنت أقابل طلبَه بالرفض القاطع، والتأنيب على هذا الاستسلام السريع.

ولكن يبدو أنّ الأمر لم يكن مجرّد أفكار عارضة، فالصغير كما يتجلّى واضحاً يعاني فعليّاً من مشاكل في المدرسة، أفقدَته شغفاً للعلم، باعتباره الوسيلة الوحيدة للخروج من أزمة الفقر كلاجئٍ لا حَول له ولا قوّة.

أنا لا أريده أن يكون نسخةً عنّي.. عن عَجزي.. عن خذلاني أمام ذاتي، وحيرتي أمام مستقبلي الذي بات غامضاً ومَدعاةً للقلق!

إن كنتُ خطوتُ مُكرهةً بعيداً عن دائرة أحلامي، فذلك حتماً قابلَه انتظارات تتعلّق بأفراد أسرتي. وأيّ خيبةٍ ستأتيني من أحدهم لن أطيقَ لها احتمالاً.

إذاً، عليّ أن أحرص اليوم على حُسن التعاطي مع مشكلة عابِر للوصول إلى حلٍّ يُرضيني ويحمل عابِر على الإذعان وتقبّل الدراسة كوسيلةٍ وحيدةٍ لاسترجاع شهيّته للحياة.

نعم، هي مسؤوليّةٌ كبيرةٌ وأنا من يجب أن تخوض معترَكَها. فأبي الحاضر الغائبُ لن يُقدّم أيّ إنجازٍ على هذا الصعيد، وأمّي غارقةٌ في ماكينة الخياطة ولن تُبدي أيّ استعدادٍ لهَجرها في سبيل مناقشة إشكالٍ أو الدّفاع عن صغيرٍ متهوّر!

ولكنّي متعبَة!

جسمي منهكٌ من أرَقٍ ضربني كإعصارٍ ليلةَ أمس. وأصاب فكري بالخِدر. ومع ذلك، لا بدّ وأن أكون حاضرةً وسنداً للصغير عابِر.. هو عهدٌ أبرَمتُه مع الذات، ولن أملك للخروج منه قدرة.

عندما انسحَبتُ من فراشي، شعرتُ بجسدي قطعةً متصدّعةً تحتاج للالتئام، وبرأسي مشرذمَ الأفكار ومتهالكَ النبض. وبحركةٍ بطيئة أنجزتُ بعض الأعمال المنزليّة الضروريّة، ولجأتُ للاستحمام في إجراءٍ كسر قاعدةً

اعتمدناها منذ استقرارنا في المخيّم تتعلّق بتخصيص يوم الإجازة الأسبوعيّة فقط للاحتفاء بالاستحمام.

ملابسي الاعتياديّة استبدلتُها بالفستان الذي ارتديتُه يومَ زيارة اللجنة الدوليّة الموقرّة لمخيّمنا، فهو أفضل ما أملك. ومع تسريحة الشعر بدوتُ – نوعاً ما- بمظهرٍ يليق باللقاء مع أيّ مسؤولٍ في المدرسة.

في تمام الساعة الثامنة، كنتُ مستقرّةً أمام باب المدير برفقة عابِر الذي بدا حانقاً وغير راضٍ عمّا سأقوم به من محاولاتٍ لاسترضاء المسؤولين بهدف تأمين استمراريته في التعلّم. تجلّى ذلك واضحاً من تمرّدٍ طغى على حركات جسده، والتأفّف المستمرّ الذي زاد من صداعٍ استحكم منّي منذ فجر هذا اليوم.

عندما قُرع جرس الصباح بدأ الأولاد، صغاراً وكباراً، يتوافدون إلى الصفوف المتراصفة قرب بعضها في الدهليز الطويل. بعضهم مرّ ساكناً قربَنا، وبعضُهم الآخر تقصّد القيام بحركات استهزائيّة أو التفوّه بكلمات غير لائقة، جعَلَت ملامح عابِر تحمل بين ثناياها تمرّداً، سرعان ما استدركتُه بمحاولاتي المتكرّرة لتهدئته والنَّيل من عصبيّته.

وعندما غصّت الصفوف بالتلاميذ، راحت أصوات المعلّمين تصدَح وتتعالى من هنا وهناك.. أمّا أنا وعابِر فبقينا على حالنا في ترَقّبٍ تجلّى بلا نهاية. وكلّما انسرب الوقت أكثر، صار المسكين عابِر أشدّ توتّراً واضطربَت ملامحُه التي نال منها التعرّق والاحمرار.

طال انتظارنا، وغرفة الإدارة لا زالَت صاخبةً بالفراغ!

لا أريد المغادرة قبل أن أنجز ما أقبلتُ من أجله، بدايةً كي لا يفقد عابِر المسكين يومَ تدريسٍ آخر. أضف إلى ذلك عدم رغبتي بتكرار تلك الاستعدادات الصباحيّة التي سبقت هذه الزيارة من اعتناءٍ بالمظهر والهندام، والتي تركت بصماتها على روحي وأشعرتني بأنوثتي وإن لفترةٍ وجيزة. أنا لستُ بموقع رفاهيّةٍ يمنحني حتى مجرّد التفكير بذاتي، وجلّ ما أخشاه إن تكرّرت تلك الاستعدادت، أن تسرق انتباهي عن مسؤولياتي، والتي أقسمتُ أن لا أهملَها وأكرّسَ انتباهي لها بعيداً عن أيّ انشغالٍ آخر.

إذاً، عليّ الاستمرار في انتظاري المَقيت، ريثما يأتي من يُنهي أزمةً بدأت تداعياتها النفسيّة تنال منّي قبل أن تطال عابِر..

فجأةً، وَقع خطواتٍ رتيبة نفَذَت إلى أذنيّ. ثمة شخص يصعد درجات السلّم على مهلٍ، وبتواطؤٍ شديدٍ مع حيرتي. استعَدتُ شيئاً من هَدأتي المفتعلة، في الوقت الذي تلطّى فيه عابِر خلف ظهري ليتجنّب أيّ احتكاكٍ مع القادم.

خلال ثوانٍ، رأيتُني أمام رجلٍ نحيلٍ جداً، طويل القامة، يمشي مستقيم الظهر كعودٍ متيبّسٍ. يا إلهي كم تبدو ملامحه قاسيةً خصوصاً مع هذا الأنف الرفيع الممتدّ كخطّ أفقيّ على مسافةٍ غير قصيرة، إضافةً إلى الشنب الكبير غير المشذّب والذي تتدلّى شعيراته لتنسرب بين شفتيه.

كم أنت محقٌّ يا عابِر في خوفك وجنوحك نحو الفرار!

شعرت بانقباضٍ في النفَس، وأخذ العرق يتسلّل من كل مسامات جسدي وأنا أراه يدنو من مكاني، مع نظراتٍ ثاقبة تكاد تنفذ إلى أوردتي وتُحصي خَفقي.

وعندما بلغ باب الإدارة التفَت نحوي، ثمّ بصوتٍ مبحوحٍ لا يتلاءم مطلقاً مع هذا الكائن الطويل، قال: «هل تنتظرين أحداً يا فتاة؟».

ارتبَكَت حروفي، وتلعثم اللّعاب داخل فمي، وعجزتُ عن الكلام.. وقفتُ بكامل ارتيابي وغبائي أتطلّع إلى وجهه عشوائيّ الملامح، والخرَس يكاد يُطبِقُ حتى على الأنفاس. أمّا عن المسكين عابِر فانكمش على ذاته أكثر، حاجباً عينيه بجزءٍ متدلٍّ من فستاني.

وحتى أتخطّى عتبةَ هذا المأزق العسير، استجمَعتُ كل ما أملكه من طاقةٍ ايجابيّةٍ عملت أمّي على غرسها في روحي على مدى سنوات طويلة، وبنبرةٍ ارتدت وشاح الوقار، قلت: أنا تَرَف.. الأخت الكبرى لـ عابِر.. استدعيتم وليّ أمره، وها أنا ذا قد أتيتُ لأُعاين السبب..

هي عبارةٌ تمرّدَت على خوفي، وانبثقَت من بين الشفاه واثقةً دون أن أملك إزاءها اعتراضاً.. نظراتٌ حادّةٌ إضافية وجّهها صاحب القوام الطويل إلى هيكلي العظميّ المتخفّي خلف الثياب، ثمّ فتح باب الإدارة ووَلَج ببُطئه المعهود، مشيراً إليّ بإصبعه كي ألتحق به.

***

أمام مكتبٍ قديمٍ متآكل الأطراف حيث جلس المسؤول الإداريّ، وقفتُ مع عابِر الذي بدا مستغربـًا من هَدأةٍ تملّكَت هذا الكائن المعروف بعصبيّته، كما سبق وأخبرني. كان المكتب غاصّـًا بالملفات والكتب البالية والأوراق، بطريقةٍ فوضويّة لدرجةٍ تصعب معها رؤية القابع خلفها على كرسيٍّ نصف أعرج.

وبعد صمتٍ امتدّ زمنـًا، تسلّلَت يد المسؤول بين الأغراض المبعثرة أمامه، أزاح بعضَها، وأطلّ برأسه ليرقُبَني أنا وعابِر من أخمص أقدامنا حتى آخر شعرةٍ ثائرةٍ في رأسَينا، مع علامات قرفٍ راحت ترتسم كلّ حينٍ فوق ملامحه فاقدة الانتماء لأيّ قبول.. صار أنفه يتحرّك يُمنةً ويسرةً بينما أخذت الشعيرات المتمرّدة في شاربه تنغمس بين شفتيه مع كلّ شهيقٍ وزفير.

وبعد أن انتهى من بحثه وتقصّيه، بدأت أنامله تضرب الطاولة بعصبيّةٍ وترسم فوق خشب المكتب دوائرَ، ما لبثَت أن استحالَت إلى خربشاتٍ عشوائيّةٍ مترافقةٍ مع نَقرٍ حادٍّ..

وعلى حين بغتة! انسحبَت جميع مؤشّرات الحياة من ملامحه ويديه، واستكان كتمثال وسط كراكيبه، قبل أن ترسم شفاهه ابتسامةً مريبةً غريبةَ الهوية، ويقول: «لا يليق بكِ مطلقـًا اسم تَرَف يا فتاة.. كان من الأجدى على والديكِ أن يمنحاك تسميّة مختلفة.. مممم.. ربّما «شَقاء»..

وصدح بضحكةٍ دوَّت في أرجاء الغرفة، وتردّد صداها في الصفوف الممتدّة على جانبَيّ الدهليز الطويل.

هل يسخر منّي هذا الكائن هُلاميّ التفكير! أيعتقد أنّه وبحُكم مركزه كمسؤولٍ إداريٍّ، يملك حق الاستهزاء بالآخرين!

شعرتُ بالدّم يفور في رأسي، وبالوجنات تغدو جمراً ملتهباً.. كلّ الاستعدادات النفسيّة التي شغَلَتني في أرَقي ليلَة أمس تطايرت من ذهني إلى غير رَجعة، ورأيتُني أستدعي كلّ شياطين الغضب، وأطلقها في وجه هذا الكائن الكريه.

بل أنا تَرَف.. أحبّ اسمي، وهو يليق بي حتماً وإن لم أكن على مستوى إبهارِك.. أن أكون فقيرةً ولاجئةً فهذا لا يمنحكَ مطلقاً حقّ إهانتي.. مخطئةٌ أنا حتماً في تقديري للأمور، كنت أعتقد أنّني سألتقي بشخصٍ جَدّي لَبِقٍ يتفهّم وضع عابِر الاستثنائيّ ويمنحه فرصةً جديدةً.. فوجدتُني أمام شخصٍ يحتاج فرصاً كثيرةً ليُقبَلَ في منطق الإنسانيّة والرحمة!

فجأةً! عادت عقدة لساني للالتئام، وأصابني الخرس كأنّني ما نطقتُ سابقاً أيّ حرفٍ أو كلمة.

يا إلهي ما الذي قلتُه؟! لقد ارتكبتُ فِعلاً مُشيناً سيؤدي حتماً إلى كارثةٍ ستنهال شُهباً، ولن أستطيع لإيقافها وسيلة.

كم أنا غبيّة.. سأتسبّب في خسارة عابِر لعامه الدّراسيّ وربّما لمستقبله العلميّ، بدلاً من أن أكون جسر عبوره نحو الأمنيات.

أنا فتاةٌ بلهاء.. بلهاء.. بلهاء..

وقبل أن أحاول افتعال أسفٍ أو اعتذار، كان الرجل قد توقّف تمامـًا عن الحركة، وربّما التنفّس.. بدا شاحب الوجه، شاخص البصر، ولمحتُ حبّات عرقٍ تلتمع أعلى جبينه البارز بقوّة.

توقّعتُ ردّة فعلٍ غليظة تلائم جنوني وتهوّري وبؤسَ نضجي العاطفيّ، وقد تصل لاستخدام العنف الكلاميّ والجسديّ أيضـًا. لكن ما حدث كان خارج أيّ توقّعاتٍ رسمها عقلي المُربَك، أو أذعن لها تفكيري المهزوم.

أغمض مسؤول الإدارة عينيه لبضع ثوانٍ، استجدى لعابـًا ينتشله من جفافٍ طغى، وأخذ يتمتم بعباراتٍ لم أتبيّن كُنهَها. ثمّ، وبكامل هدأته ونحوله، خرج من خلف مكتبه المهترئ متوجّهـًا نحوي.

وقبل أن أستشعر قدرةً على أيّ انفعال، كان قد انحنى أمامي في وضعيّة انكسار.. أمّا أنا فجمدتُ مكاني في حال ذهولٍ كامل!

تراءى المسؤول الإداريّ في ذروة ضعفه، وهو يحاول البحث عن مبرّراتٍ وكلمات اعتذارٍ يبادر بها لإظهار حسن نيّته. راح يتلعثم ويستبدل حرفـًا مكان آخر من فرط الارتباك، بحيث لم أتمكّن من استيعاب ما يريد.

صفعني الشكّ إزاء ما يحصل، وشعرتُ بكَمٍّ هائلٍ من الأفكار المشوّشة تجتاح شرايين رأسي وتُقعِدُني عن الإدراك.

صوته المبحوح صدح فجأة لينتشلني من ذهولي ويقضّ مضجع شرودي.. دعاني للجلوس مع عابِر، ثمّ وبنبرةٍ حادّةٍ بعيدةٍ عن أيّ انكسار، صرخ منادياً الحاجب، وأمره بمنع دخول أيّ زائر إلى الغرفة..

ما كلّ هذا الجنون!

وقبل أن أغوص أكثر في تساؤلاتي، جاءتني كلماته لتحمل إجاباتٍ هزيلة لا تُسمن ولا تُغني من فَهم: «اسمكِ جميل يا تَرَف.. لو رُزِقتُ بفتاةٍ سأعطيها اسمك.. مممم».

صمتٌ ثقيلُ التردّدات انسحب لبعض الوقت.. ثمّ أردَف: «حسنًا، اسمعي يا ابنتي، تعرفين ظروف الحياة الصعبة والمشاكل التي نعاني منها في هذا البلد.. في كلّ يومٍ همّ جديد وخوف جديد.. لذلك لا تلومي عصبيّتي، فبالتأكيد أنا لم أقصد الإساءة إليك. كلّ ما في الأمر أنّني مُثقلٌ بالأفكار والهواجس».

في حديثه معي بدا كرجلٍ آليٍّ، يُفرغ من ذاكرته كلماتٍ لُقِّنَت له بعيداً عن أيّ شعور.. لم يتمكّن من إقناعي بصدق عباراته، والتي حاول من خلالها تقديمَ مبرّرٍ لسلوكه،. ولكن، لا بأس من كلّ ذلك طالما أنّه بإمكاني استغلال الموقف لمصلحة الصغير عابِر. وباندفاعٍ باغتَني قلت: وماذا بالنسبة لـ عابِر.. هل سيستكمل دراستَه كالمعتاد، أم أنّ إجراءاتٍ ستؤخذ بشأنه؟

إثر هذه العبارة، استعادت ملامح المسؤول الإداريّ قسوتَها، وتوارى انكسارُها خلف نظراتٍ شرسة راحت تَرقُب عابِر الذي انكمش على ذاته وغار جسدُه في المقعد الجلديّ الممزّق.

بضع ثوانٍ عبَرَت دهراً، استعَدتُ خلالها الكثير من مشاعر الخوف التي عصفت ببراءتي ذات زمن، ومواقف ضعفٍ وانهزامٍ سبق واستحكمت منّي ولم أستطع أمامها صبراً..

ارتعشتُ من رَهبةٍ، ونال التوتّر من خَفقي، وبِتّ قاب قوسين من البكاء..

ولكن! للمرّة الثانية أتاني الجواب على بساط الدّهشة، محمّلاً بغرابةٍ وغموضٍ وألف استفهام!

«لا عليكِ يا ابنتي.. سأضع ظروف عابِر الاجتماعيّة قيد الحسبان، وسأعفيه هذه المرّة من سَوط العقوبة.. لكن عليه بالمقابل أن يمتنع عن أيّ ممارسات عدوانيّةٍ تجاه زملائه، حتى لو تعرّض للسخرية من قِبَلهم.. كوني واثقةً أنّنا سنحتويه بظروفه الخاصّة، مقابل انضباطٍ في السلوك يعدُنا به».

بهذه البساطة حُلّت عقدة عابِر الشائكة، بعد أن استعصَت.. لا تهمّني وجهةُ نظر المسؤول الإداريّ، ولا طيبتُه المفتعلة أو سلوكُه الضبابيّ.. حتى الأسبابُ التي دفعَته للظهور كرجلٍ لَبقٍ ومتعاونٍ، لا تعنيني ولا أبالي بها.. المهم هو أنت يا عابِر.

نعم، سيتمكّن الصغير من تتبُّع حلمه، والأهم أنّه لن يأتيني يوماً مرتديًا ثوب العتاب.. لقد بات يعرف كم يؤرقني مستقبلُه، وينال من روحي تعبُه..

وحبّذا يا عابِر لو أنّك تَجهَد لتجاوز التحديات التي قد تعترضك.. عندها فقط سأكون ممتنةً لك، وستكون وَهجاً يبعث الأمل في روحي، ويُهديني قناعةً أنّ هناك من يستحق عناءَ البَذل.

***

كم غريبٌ أن تتعثّر بنفسك كشخصٍ بحضورٍ هامٍّ، على كاهله يرفع مسؤوليات متعدّدة ويُنجزها دون أدنى تقصير. يملك رغم ضعفه قدرات احتواءٍ تحتاج قلبًا مُشبعًا بالمحبّة وطاقةً ايجابيّةً يشع نورها ليملأ المكان، ويفيض.

هذا تمامًا ما أشعر به في الآونة الأخيرة.. وأنا مَدينةٌ بذلك لأمّي.. الإنسانة التي التصقَت طفولتي بها، وتشرّبتُ منها أبجديّة الحياة..

عندما كنا هناك في أرضنا البعيدة، لم تتوانَ عن تلقيني دروسًا في الصّبر رغم صغَر سنّي آنذاك. وعند كل مفترقٍ راوَدَني فيه شعور عجزٍ أو وَهَنٍ، كانت تأتيني يقلبٍ عامرٍ بالحبّ لتغرس في أوردتي طاقةً ايجابيّةً، أُقبِل بعدها على الحياة كفراشةٍ خرجت للتوّ من شرنقتها واحتضَنَت العالم بين جناحَيها.

أمّي اليوم.. وبعد الكمّ الهائل من التشوّهات النفسيّة والأعباء الجسديّة، تبدّلَت ملامح روحها.. صارت انشغالاتُها عبارةً عن ماكينة خياطة تحتضنها منذ الصباح وحتى ساعةٍ متأخّرةٍ من التعب.. تحاور خيطانَها وإِبَرَها، وتصبّ عليها جامَ أمنياتها التي أضحت هزيلةً ككلمة وطن، ثمّ تغفو على إيقاع ضجيجها وكأنّها ترنيمات قيثارةٍ حالمة.

ما عادت بعد سنوات اللجوء المُرّة تهتم كما السابق بمظهرها الأنثوي. صحيح أنّها لم تكن يومًا تلك المرأة التي تمضي معظم وقتها في وضع مساحيق التجميل وتبحث عن الموضة في هندامها، لكنني أذكرها كم اعتنَت ببشرتها لتبقى نضرةً في نظر أبي. لطالما صنعت هي وجدتي المساحيق الطبيعيّة من نباتات بريّة وداوَمت على وضعها باستمرار على وجهها ويدَيها

لتخفّف من وطأة تعبٍ ينهشهما كلّ يوم. عملُها في المنزل والحديقة وأيضاً في الزريبة كلّفها عذابات كثيرة، لجأت لمداواتها عبر الاهتمام ببشرتها وتدليل نفسها بالعطور العربية التي كان أبي يأتي بها من مضارب البدو البعيدة.. لا أزال أذكر عطرَ العود النافذ الذي تلتصق رائحته بشعيرات الأنف لأيام، ويصيب الرأس بخِدرٍ يُفقده قدرة التركيز والاستيعاب السريع.

حتى فساتينُها كانت جميلةً بل مُبهرةً بألوانها وتطريزاتها التي تبعث على الفرح. لم تَسعَ لصرف الأموال على ثيابها، بل كانت تعمل على خياطتها بمرافقة جدّتي الطيّبة فتُمضيان ساعات وهما تنسجان الفساتين، وتترنّمان بالأهازيج الشعبيّة الحلوة.

لطالما اهتمّت بقوامها وامتنعَت عن تناول العديد من الأطعمة اللذيذة والحلويات التي كثيراً ما صنعَتها لأجلي، في سبيل الحفاظ على جسمٍ متناسقٍ يُضفي على شبابها رونقاً وإبهاراً..

واليوم.. أراها امرأةً أخرى!

مختلفة في ملامحها التي باتت مثيرةً للشفقة، من وجهٍ فقد استدارته وصار نحيلاً جداً، وعينين غائرتين تحيط بهما هالةٌ سوداء شديدة الوضوح، وشحوبٍ في البشرة يعكس اكتسابَها لمرض فقر الدم الحادّ..

ومختلفة في ملابسها البالية التي لا تتغيّر صيفاً وشتاءً، وصارت شبهَ ملتصقةٍ بجسدها بعد أن كسبَت وزناً كبيراً..

وأيضاً مختلفة في روحها التي فقدَت ألَقَها ووَهجها وضربت العتمة أصقاعَها. ضاعت ابتسامتُها بين هَمٍّ هنا وحزنٍ هناك، وباتت كئيبة المَلمَح

بضحكةٍ نادرةٍ كسلامٍ مَرجوٍّ في أرضنا.. خسرت نبض الفكاهة الذي امتازَت به، وكان سبباً في مَنح حياتنا سابقاً نكهةَ طِيبٍ معتَّق.

لا زالت ذاكرتي تحمل بين طيّاتها صوراً من الماضي لن تغيب.. كانت جارتنا القاطنة في أقرب منزلٍ لنا أسفل التلّ تنادي أمّي بحوريّة البادية.. سألتُها مرّةً ماذا تقصد بكلمة «حوريّة»، وجاء ردّها ليزيدَني دهشة. قالت إنها امرأةٌ أسطوريّة الحسن، ملامحُها غير قابلةٍ للوصف أو التصنيف. قوامُها ساحرٌ ولها ذيلٌ كالسمكة.. تظهر على الشاطئ مرّةً واحدةً في السنة، ومن يحظى بشرف رؤيتها سيرافقه حسن الطالع إلى الأبد.

فاجأتني إجابتُها لدرجة الذهول.. ورحت أرسم صوراً في خيالي لحوريات فاتنات يرتدينَ فساتين مبهرة، تتدلّى منها أذيالهنّ التي تحمل ألواناً كثيرة.

ولكن! لا يوجد في قريتنا بحر، فكيف تكون أمي حوريّة!

عندما سألتُ جارتنا، أخبرتني أن للصحراء أيضاً حوريّات ولكن بأجنحةٍ كالصقور. إن فرَدنها تُحجب الشمس وتخفّ وطأة الحرارة، تنبت الحشائش والزهور وسط الرمال، وقد تتفجّر بعض الينابيع فتغدو الصحراء جنّةً على الأرض.. ولكن هذا لا يحصل إلّا نادراً، ذلك أنّ لأجنحتها سحرٌ لا يتجدّد إلّا كلّ مئة عام مرّةً واحدةً فقط.

وأضافَت جارتنا وقتها أنّ أمّي تشبه الحوريّة ليس فقط في حسنها الأخّاذ، ولكنّ لكونها أيضاً حالة لا تتكرّر إلّا نادراً. عندما ظهرت في حياة أبي حملت

لـه حسـن طـالعٍ، فانتقـل مـن حيـاة البـؤس إلـى تـرَف المعيشـة. صـار تـاجراً معروفـًا، وغدَت حياته هانئةً بعد حرمانٍ انغمس فيه لسنوات..

أين تلاشى كل ذلك الـوهج يـا أمّي..؟ وكيـف تمكّـن منـكِ اللّجـوء بهـذه الوحشيّة، ونهش قلبك قبل أن ينال من نضارتكِ وبريق روحك؟

كم تليق بـكِ الحيـاة بزَهوهـا وأهازيجهـا وربيـع لِحاظهـا.. ولكـن، للواقـع حسـاباتُه الضـيّقة، والبعيـدة عـن أي منطـقٍ أو عاطفـة. لا نـدري كيـف تتبـدّل الأحوال وتتغيّر المصائر، ولكنّ القدر محتومٌ ولا نملك لتغييره وسيلة.

لو أنّني أملك أن أمنحها بعض السكينة لما توانَيتُ عن ذلك.. أراها في كلّ يومٍ تفقد شيئـًا مـن روحهـا كـأنثى، وتخسـر بعضـًا مـن ذاتهـا الإنسـانيّة كـامرأةٍ بحقوقٍ في هذا الكون الكئيب. وفي كلّ ذلك، هي وحيدة..

نعم.. أمّي وحيدة في قفصٍ لا تملك الخروج منه، وتدفع بسبب بقائها بين قضبانه ثمنـًا لا تقابلُه ثروات العـالم.. حياتُهـا تتنـاثر هبـاءً، وكـلّ مـا تبذلـه مـن عُمرٍ لا تنال مقابله إلا نتَفـًا من راحـةٍ. لـو أنّ أبـي مـا زال مستمرّاً في حضـوره، لخفّف وطأة عذاباتها، ورفع عنها حمولة مقدارها تيهٌ وضياع.

ولكنّه تلاشى خلف غياهب العجز، وارتدى طَوعـًا ثـوب السـكوت.. في الماضي، كنـت أراه مـارداً صـلبـًا يملـك قـدرةً عجائبيّـةً علـى تـذليل الصـعاب وتجاوز المطبّات. وأثنـاء طريـق لجوئنـا الطويـل، لـم أشـعر بتاتـًا بـأيّ خـوفٍ وانقباض، لأنّ ثقتي بـه تحـدَّت أيّ شـعورٍ سـلبيٍّ.. كنـت متيقّنـةً منـذ خطوتنـا الأولى أنّنـا سـنبلغ مـا نريـد، طالمـا أنّـه قبطـان رحلتنـا.. كنـت أراه دليلنـا نحـو الخلاص!

أما اليوم.. وبعد سنوات لجوءٍ بمرارة الحنظل، أصيب كأمّي بلعنة التغيير. المسألة لا ترتبط بعجزه الجسديّ، فهذا قدرٌ لا نملك إزاءه اعتراضاً.

ولكن ثمّة أزمة نفسيّة سلبت منه وهجَ الحضور، وجعلَته يتوارى خلف جدار الصمت الثقيل.. فجأةً، عثرت على نفسي في مواجهة شخصٍ أجهلُه، يرتديه الضعف والخنوع ولا يملك استعداداً لإعلان أيّ تمرُّدٍ أو ثورة.

بات يرى بؤس حال أمّي، ومكابدتها ليل نهار، فينغمس في عمق مأساته أكثر، متناسياً أوجاعها وارتباكَ روحها.

سلوكٌ أنانيٌّ لم أتقبّله يوماً، وخصوصاً أنّ من ارتداه هو أبي.. ماردي الذي غدا كواحدٍ من الأقزام السبعة في حكايةٍ عفا عليها الزمان.

يا لقدَرنا الغريب! عبَرَتنا سحابة التغيير، ونالت من والدَيَّ دفعةً واحدة.

ولكن.. إن كان التبديل قد طوى أمّي تحت جناحه قَسراً، فإنّ أبي ارتدى وشاحَه عن طيب خاطر.

أراد أبي الصمتَ وسيلةً للفرار من عجزه، فتغلغل بين مساماته.. ومنذ ذلك السكوت، أُصيبت عائلتنا بعَجزٍ عن الحياة!

***

أنا الآن أجلس على ركنٍ جانبيٍّ من الرصيف أمام مبنى المصرف المركزي، في انتظار الآنسة حسناء موظّفة الاستعلامات لتخرج وتستلم منّي فستاناً خاطَته أمّي لوالدتها.

حسناء فتاةٌ جميلة، هادئة الطباع، وتبدو كطالبةٍ بزَيّها الرسميّ كُحليّ اللون.. ملامحها عذبةٌ وسهلة القبول. هي ليست بالفتاة الشقراء لكن عينيها الواسعتين بلونٍ أخضر فاتح مريحٍ وجذّاب. حتى أنفها الدقيق وفمها الصغير يمنحانها فرصةً للاستحواذ على إعجاب الكثيرين. تبدو ببشرتها النضرة الخالية من أيّ شوائب أقرب إلى طفلةٍ وديعة. أمّا شعرها الطويل فتتجلّى مدى العناية به من خلال طراوةٍ تتماوج مع ثنياته، ولمعانٍ ينسرب بين خصلاته الوارفة والملوّنة.

قوامها الرّشيق استأثر بانتباهي منذ لقائي الأوّل بها.. أعرف كثيراً من الفتيات النّحيلات، لكنّ لحَسناءَ طولٌ أخّاذٌ..

لا تمتّ للسيّدة شَهربان بأيّ شَبه، رغم أنّها ابنة عائلةٍ غنيّةٍ، وتقطن في منزلٍ كبيرٍ في منطقةٍ جبليّةٍ هادئة. هي من أخبرتني بذلك، فأنا طبعاً لا أستطيع زيارتها في منزلها البعيد بدرّاجتي الناريّة التي تكابد لتستمرّ في تأدية عملها. لذلك أقوم بإيصال كل ما يخصّ عائلتها إلى مركز عملها القريب نسبيّاً، مقارنةً مع مكان إقامتها.

بأمرٍ من الإدارة لا أستطيع الدخول إلى المصرف، لذلك بمجرّد وصولي أركن دراجّتي بعيداً عن باب الدخول، وأطلب من موظّف الأمن أن يخبر حسناء بحضوري. سبق وتسبّب دخولي إليها بمشكلةٍ كادت تؤدّي إلى

خسارتها لوظيفتها، لولا أن تدخّل زملاؤها في العمل وتوسّطوا لدى المدير الذي أصدر أمراً بمنعي من دخول المصرف كليّاً.

أحياناً أنتظر مدّةً طويلةً ريثما تُنهي بعض الأعمال الضروريّة قبل أن تخرج إليّ. وهذا عادةً يسبب لي حالةً من الضجر، لا أعرف كيف أتخلّص منها خاصّةً وأنّ المدينة بطرقاتها الواسعة ومبانيها الضخمة وسياراتها الفخمة ما عادت تثيرني كما السابق. مُطالَعَة الطريق صارت مسبّباً إضافيّاً لملل يسري في روحي، وينبض مع خَفقي في الوريد.

اليوم حضرتُ إلى المصرف بعد أن أنهيتُ معظم الأعمال المتراكمة على عاتقي. هكذا أوصَتني حسناء، دون أن أدرك السبب الكامن وراء ذلك.

طال ارتقابي لها، وتآكَلتُ صبراً تحت حرارة شمسٍ لم يُخفّف من وَطأتها خريفٌ يتبختر على مهلٍ، وكأنّه في تردّدٍ بين حضورٍ وغياب.

شعرتُ برغبةٍ في صَبّ جام يأسي عليها، وإمطارها بوابلٍ من عتبٍ طويلٍ، أُفرِغ من خلاله شحنةً من الوجع تعتصر بدني.. في النهاية، تبقى حسناء، واحدة من بين الآلاف الذين ينظرون إليّ كلاجئة لا تملك سوى أن تُذعن لتتمكّن من الحياة.

برغم طيبتها إلّا أن مسافةً غائرةً في العمق تفصل بين حالَينا.. رهافتُها قد تكون مجرّدَ شفقةٍ تنساب في وجدانها، وتطفو على السطح في صورة عطفٍ ولباقةٍ في التعامل، إلّا أن انتماءها إلى الضفّة الأخرى حيث يكمن الثراء والاستقرار وراحة البال سيمنحها حتماً شعوراً بالأفضليّة والتميّز.

بعد ساعةٍ اعتنَقتُ فيها ضجري، لمحتُها تخرج من باب المصرف بكامل أناقتها، في زَيّها الرسميّ كحليّ اللون وحقيبة يدها ذات اللون الأصفر المتناسق مع جُرأة حذائها. راح كعبها العالي ينقر على الرصيف بوَقعٍ رتيبٍ سريعٍ، يوحي باستعجالها لبلوغ مكاني.

«آسفة عزيزتي تَرَف.. بعض الأعمال الإضافيّة فرضت عليَّ التأخير.. أرجوكِ تقبّلي اعتذاري».

كم هي رقيقةٌ هذه الفتاة.. مع كلماتها انسحبَت من داخلي كلّ نقمةٍ بدأت تنال منّي، ورأيتُني أبتسم لها بودٍ بعيداً عن أيّ تردّدات سلبيّة، كانت قد استحكَمَت منّي أثناء جلوسي الطويل.

«لا مشكلة إطلاقاً آنسة حسناء.. سعيدةٌ أنّكِ بخير.. أحضرتُ معي الفستان وأتمنّى أن يأخذ استحسان والدتكِ».

لا يمكننا أن نقبع دائماً في زاويةٍ مُعتمةٍ من العداء للآخرين.. مرونةُ المشاعر لا بدّ منها لتُكمل الحياة مسيرتَها، ونتمكّن من الاستمرار في الوجود.. شرارةٌ من محبّةٍ وإن كان فيها شيءٌ من مبالغة، قد تسوقُنا طَوعاً من ذروة الحنق إلى أعماق القبول والرضا..

تناولَت حسناء الفستان منّي مع ابتسامةٍ عريضةٍ برزت من خلالها أسنانها البيضاء المتراصّة بأناقةٍ أبهرَتني..

كيف يستطيع البشر الحفاظ على أسنانهم نظيفةً وخاليةً من أيّ دخلاء يساهمون في تآكلها ومنحها اللون الأسود! منذ طفولتي وأنا أعتني بتنظيف أسناني كلّ ليلةٍ قبل أن أخلد إلى النوم. حتى بعد لجوئنا حافظتُ على هذا

السلوك الذي يتعارض مع وضعنا المأساويّ الغارق في الحرمان. ورغم ذلك أعاني من تشوّهات في أسناني التي تغيّر لونها وضربها السوس في أكثر من مكان، ممّا جعلني أقلّل قدر الإمكان من بعثرة ضحكاتي حتى لا ينكشف المستور.

رغم ابتسامةٍ ازدانَت بها ملامحُ حسناء، إلّا أنّ قافلةً من كلماتٍ كانت تنتظر العبور من بين شفتيها الورديّتين.. هذا ما قدَّرتُه، وقد أحسنتُ التقدير. فما إن استأذنتُها بالرحيل، حتى سألَتني بلباقَتها المعتادة إن كنتُ أملك بعض الوقت لمرافقتها إلى أقرب مقهى لتبادل أطراف الحديث.

صُعقتُ من هذه الدعوة، وتجلّى ذهولي عبر ملامحي التي فقدَت نبض التعبير، ودخلَت مرحلةَ استرخاءٍ مريب. وكردّة فعل عفوية، تسلّلَت ضحكةٌ لطيفةٌ من بين شفتي حسناء، التي جدَّدَت طلَبها بروحٍ أنيقةٍ لم أتعثّر بشبيهٍ لها في هذه «الأرض الجديدة».

حول طاولةٍ مستديرةٍ في مقهى لطالما حلمت بتخطّي عتبته، جلسنا متحاذيتين في لقاءٍ شبه أسطوريّ.. فتاةٌ كسحابة صيفٍ صافية الحضور، أنيقة الروح، ومشذّبة المظهر، في مقابل أُخرى تنتمي إلى أدبيّات العصر الخريفيّ بملامحها الحزينة وحضورها البائس وقلبها الشريد!

شعرتُ بنفسي متطفّلةً وغريبةً عن المكان، واعتراني توجّسٌ وارتباك.. وراحت عشرات الأفكار تتزاحم داخل رأسي المُثقَل بالتساؤلات، وصفعني الخجل.

أمّا هي، صديقة القمر التي توهّجَت على حين صدفةٍ وأربكَتني، تراءت على وجهها هدأةٌ مُحبّبةٌ، واعتمرَت ملامحَها سكينةٌ وكأنّها في لقاءٍ أُسريٍّ اعتياديّ.

وبنبرة صوتها الرقيق عبَرَت بحديثها إلى ارتيابي: عزيزتي.. أعتذر بدايةً عن مباغتتكِ بهذه الطريقة، لكنّني فعليّاً بحاجةٍ إلى روحٍ طيّبةٍ أبادلها الكلام.. أنا محاطةٌ بالكثير من الأصدقاء الذين يتقاسمون معي بهجتي وجنوني، ويحيطون وَحدتي بوجودهم الطاغي.. لكن ما أحتاجه يتجاوز هؤلاء..

عندما أستشعر حزناً أو وجعاً يتلاشى الجميع، يهجرون حضورَهم معي، ويستمرّون في الغياب حتى أسترجع فرحاً يجعلهم يقتحمون خَلوتي من جديد..

يا إلهي.. أيُعقل أنّ فتاةً بموقع حسناء تعاني من فَقدٍ ووَحدة، إذاً ماذا عني أنا الفتاة اللّاجئة التي لا تملك للحياة وسيلة!

لم تُطِل حسناء صمتَها، واستطردت من جديد: «كان لي صديقةٌ كالروح، لكنّها اغتربَت في ليلٍ مأساويٍّ وتركتني هنا أُحصي حبّات المطر المنهمر منذ رحيلها الحزين».

«مممممم.. دعينا نصبح صديقتين يا تَرَف.. أنتِ أيضاً بحاجةٍ إلى رفيقةٍ تشاطرُك بعضاً من تعب الحياة».

لماذا قد ترغب فتاةٌ تحيطها الحياة بأطواق من ياسمين، بمرافقة إنسانةٍ تستهلكها الأيّام في كلّ لحظةٍ، فتُستَنزَف لدرجة الهلاك؟!

المفاجأة ضربت أصقاعي، فاعترَتني قشعريرةٌ صرتُ معها أرتجف دون أن أملك تحكّماً في جسدي الهزيل.

فجأةً، علا صوت حسناء من جديد بكلماتٍ اجتاحَتني كزلزال وأصابَتني بالجمود: لماذا لا تعودون إلى بلادكم يا تَرَف؟

في كلّ يومٍ تُطالعُني عبر المواقع الالكترونيّة أخبارٌ عن عائلاتٍ تخطّت الحدود في عمليّةٍ عكسيّةٍ، لتعود إلى أرضها بعد هَجرٍ طويل..

يقولون إنّ الأوضاع عندكم قد تبدّلَت بعض الشيء، وصارت إمكانيّة العودة احتمالاً قابلاً للتنفيذ..

هناك يا تَرَف ستستعيدين ذاتكِ التي تفتقدينها.. وربّما تتاح أمامكِ فرصة الالتحاق بالمدرسة من جديد..

مهما ساءَت الأوضاع هناك، ستعيشون حتماً في ظروفٍ أفضل من هنا.. ألا توافقينني الرأي؟

وَكأنّها بكلماتها لامسَت حيّزاً مُعتِماً من قلبي لم أزُره منذ عهدٍ وابتلاءٍ، ونُسجَت بين حناياه خيوط عنكبوت. هكذا، وعلى حين غَفلة، جاءت كلمة العودة لتغزل حروفَها بين أوردتي، وتُقصي عن فكري أيّ اهتمامٍ آخر..

رجعت «العودة»، ذات بغتة، لتغدو السيّدة.. بل المليكة.

العودة!

ليس وطني دائماً على حق
ولكنّي لا أستطيع أن أمارس حقّاً
حقيقيّاً إلّا في وطني

محمود درويش

404
الكتاب غير موجود...

أمام غسّالة السيّدة لولية جلستُ أنتظر ملابسنا لتُنهي رحلةَ دورانها الرتيب. اليوم هو الأحد، وكعادتي جمَعتُ في كيسٍ كبيرٍ جميع الثياب والأغطية التي تمّ استنزافُها خلال أسبوعٍ بأكمله، وأتيتُ على دراجتي العرجاء إلى منزل جارتنا لولية الكائن في الطرف الآخر من المخيّم، لأجتمع مع بقيّة النساء في إجراءٍ روتينيٍّ تعيس. لم يطُل انتظاري اليوم، فالقُرعة حطّت رحالها عندي سريعًا، ومنحَتني هذه المرّة دوراً متقدّمًا لإتمام ما أتيت لأجله. وها أنا ذا أكاد أُنهي مهمّتي «الدبلوماسيّة» الخطيرة.. تنظيف الملابس لا يحتاج منّي وقتًا طويلاً، ذلك أنّني أقوم بإقحام جميع الثياب دفعةً واحدةً داخل غسّالة لولية. أحشرها فوق بعضها البعض، وأغضّ الطّرف عن ألوان قاتمة وفاتحة تتمازج مع بعضها وتتعانق.. وإن فرَّ منّي قميصٌ أو بنطالٌ في حركة تمرّدٍ واضحة، أُدخل يدي بين الملابس وأظلّ أدفعها وأضغط عليها لتغدو كتلةً متماسكةً، فيعود ذلك المتمرّد مُكرَهًا إلى مكانه متناسيًا حلم التحرير.

كل ذلك لتحقيق هدفٍ نبيلٍ يتمثّل في اختصار الوقت، وبالتالي توفير المال الذي لا يعرف للوَفرة طريقًا..

انتظاري اليوم ارتدى شكلاً مختلفًا.. فلا أنا حشَرتُ سَمعي بين أفواه النساء لأنصتَ إلى نميمتهنّ وأخبارهنّ الفاحشة أحيانًا، ولا حتى رحتُ أثرثر لهنّ عن أحداث بعضها واقعيّ ومعظمها من وحي الخيال..

لستُ بوارد التعاطي مع أحد.. حتّى الابتسامة نزَعتُها عن شفتَيّ حتى لا تشكّل حافزاً لأيٍّ من النسوة للاقتراب منّي أو حتى إلقاء التحيّة.

فكري ما يزال عالقـاً هناك، بين كلمات حسناء عن العودة الممكنة. أسبوعٌ مضى على لقائي بها، ومنذ ذلك التوقيت الغريب وأنا أعيش هاجس عباراتها التي أَحيَت في نفسي أملاً ظننتُه بَهتَ من فرط القِدَم.

عندما تحاصرُنا الأفكار وتُحكم سيطرتها علينا، نغدو كأسرى بين جدرانٍ مقفلةٍ، لا نور ينفذ ولا نسمات تعبر إلى أرواحنا.. وهكذا نستمرّ في العُزلة النفسيّة حتى نلتقط أوّل شرارةٍ تمكّننا من تشييد قرارٍ أو هدم سورٍ وقضبان.

لم أخبر أحداً عن اجتماعي بها، ولا حتى تجرّأتُ بالحديث عن دعوتها لي إلى المقهى. تفاصيل ذلك اليوم غيّبتُها كليّـاً عن أيّ اعترافٍ، هروبـاً من نقاشاتٍ عقيمةٍ، ورغبةً منّي في احتواء عباراتها قبل الشروع في أيّ مبادرةٍ حولها مع عائلتي.

ولكن.. السيّدة لولية ليست بلهاء، وتستطيع بحشريّتها المتيقّظة دائمـاً أن تقتنص فرصـاً للثرثرة، وتصنع من فناء بيتها «قَعدة نسوان» للتداول فيما سمعَته أو عرفَته من الجارات.

أراها الآن وقد توهّج فضولُها لسَبر أعماقي، بعد أن لاحظَت اختلائي بذاتي وعايَنَت شرودي أكثر من مرّة. ألمح شرارةَ خُبثٍ تلتمع في حدقتَيها وهي ترقُبُني من بعيد، بينما أناملها تلتحم مع بعضها وتتباعد في حركةٍ عصبيّةٍ عشوائيّة.

السيّدة لولية ومنذ أن توفي زوجها بتلك الرصاصة اللعينة، تبدّلَت أحوالها من سيّدةٍ رزينةٍ لا يُعرف لها حضورٌ من فرط خجلها وانضباط سلوكها، إلى امرأةٍ فوضويّة المشاعر مشتّتة التركيز وخارج مدار المعاشَرة.

حتى مظهرُها تغيّر إلى النقيض، فإذا بها بجسدٍ ممتلئٍ وأردافٍ كبيرةٍ بارزةٍ جعلَتها تعاني من صعوبةٍ في الحركة وثِقَلٍ عند التنقُّل.. وكم هي كثيرةٌ تلك المرّات التي تعرّضت فيها للسخرية من قِبَل أولاد المخيّم، فكلّما سعَت للدخول من بابٍ ضيّقٍ عند جارةٍ أو في محل، تضطرّ إلى حَشر جسدها بين الدّفتَين.. وهنا تكمن الكارثة!

نراها تعلق كفأرٍ في مَصيدةٍ، فتبدأ عندها ببعثرة الشتائم على كلّ عابرٍ. وحتى الغائبون لا بدّ وأن ينالهم نصيبٌ من اللّعنات التي لا تتوقف إلّا بعد أن تنجح محاولات إنقاذها المتكرّرة، عَبرَ سحبها بقوّةٍ إلى الخارج، فتتدحرج على الرصيف لتستقرّ دائماً على مؤخّرتها حافيةَ القدمين.

سمعتُ في مرّةٍ أمّي تتحدّث عنها مع جارتنا وتصفها بحالةٍ غريبةٍ..! قالت إنّ كلّ من عرفها بدايةً وصفها بالمرأة المُحافِظة. كانت تلفّ شعرها دائماً بمنديلٍ مُحكَم الرّبط حتى لا تتدلى منه أيّ خصلةٍ عن طريق الخطأ.. ولكن، إثر حادثة زوجها، فاجأت الجميع بظهورها دون استحياءٍ سافرةَ الرّأس.. هكذا، وذات حُزنٍ، رفعَت الغطاء وصارت تخرج إلى الطريق كاشفةً شعرها المُفتقد لأدنى معايير العناية والجمال.

ها هي لولية الآن تقترب من مكان جلوسي، تتنحنح بقوّةٍ في إعلانٍ عن حضورها، وتطرق بكعبها على الأرض في محاولةٍ مكشوفةٍ لاستثارة انتباهي. وأنا، بقصديّةٍ وافتعال، أسعى لغَضّ بصَري عنها عساني أنتهي من غسل الملابس قبل أن تُتاح أمامها فرصةٌ لحَشر أنفها في صمتي ونبش أفكاري عُنوَة.

ولكن أين المفرّ!

في نظراتها إصرارٌ على تحقيق هدفٍ في مرمى خبيئَتي، وأنا أعترف بفشلي الذّريع في لعب دور الحارس الأمين. إن هي ألحَّت على تحدّي صمتي، سأرفع لها رايتي سريعًا وأبوح بمكنوناتي من أوّل محاولة.. لا أملك قابليّةً لكَتم الأسرار، وذلك يشكّل علامةً فارقةً في شخصيّتي. أحبّ البَوح بكلّ ما قد يتسلّل إلى فكري أو تحمله ذاكرتي من صورٍ وأحداث.. ربّما أُنشِد سكينةً من وراء ذلك، أو أنّ وَهنًا نال من روحي حتى صرتُ لا أطيق أيّ عبءٍ جديدٍ، مهما كان تصنيفه في مؤشّر الأهميّة.

اقتربت لولية من غسّالتها التي ما زالت تجهد في الدوران، سحبَت كرسيًّا من القشّ قابعًا في الركن ووضعته أمامي، ثمّ رمَت بجسدها الثقيل عليه. وفي مشهد دراماتيكيّ، تدلّى لحمها من جميع الزوايا وفاضت ترهلاته حتى كادت تلامس الأرض. بطنُها المتساقط أمامها أجبرها على فتح ساقَيها لتتمكّن من الجلوس دون أن تتهاوى ككُرةٍ على الأرض.

حاولتُ قَدر طاقتي أن أتلافى النظر إليها حتى لا أقع في شِرك تأثيرها، لكنّ صورتها بشحومها المتدليّة أَبَت إلّا أن تسرق ضحكةً منّي، ما لبثَت أن تحوّلَت إلى قهقهاتٍ وأنا ألمح نظراتها البلهاء تتوهّج من عينيها إزاء ردّة فعلي غير المتوقَّعة.

ما أثار استغرابي فعليًّا هو سلوك لولية المسالم، إذ لم يسبق لها أن تعاطَت مع أيّ حدثٍ يستفزّها بلامبالاةٍ مثلما أراها تفعل الآن. شاهدتُها من قَبل تتعامل بوحشيّةٍ مع بعض الأولاد الذين حاولوا مضايقتها ببعض الكلام

الساخر أثناء مرورها قريباً من بيتنا. لم تكتفِ يومها بالسباب والشتائم، بل أمسكَت عود حَورٍ مرميٍّ على الأرض وراحت تصفع الصِّبية دون رحمةٍ ممّا أدى إلى إصابة أحدهم بجروحٍ بليغةٍ في جسده، وتعرّض آخرٌ إلى خدوشٍ في وجهه أحدثت له تشوّهات دائمة.

بالتأكيد لم أتقصّد استفزازَها، فأنا لستُ بوارد الدخول في عراكٍ، كما أنّ حاجتي لاستئجار غسّالتها يمنعني من اتّخاذ أيّ موقفٍ عدوانيٍّ تجاهها، لكنّني وبعفويّةٍ صدحتُ بضحكتي ولم أتنبّه لهَول تصرفي إلّا بعد أن لمحتُ نظراتها البلهاء المتبوعة بحركتها الاعتراضيّة المعهودة، عبر زَمّ شفتيها وتركيز حدقتَيها في وجهي مع عبوسٍ أحال جبينها سكّةً متعرّجةً لم تسلكها نعومةٌ من قبل. كلّ ذلك تراءى كافياً حتى تقتحم القشعريرة جسدي، ويهزم صلابتي التوتّر.

وعلى حين فزع، أتَتني النّجدة من حيث لم أتوقّع.. فجأةً، سكت صوت الهدير في إعلانٍ عن إتمام الغسّالة لدورتها الحيويّة.

وبحركةٍ فوضويّةٍ، توجّهتُ متعجّلةً لأُفرج عن الملابس وأدكّها في الكيس الكبير. ولكن في هذه المرّة، لم أسعَ إلى توضيبها بعنايةٍ، بل جمعتها بعشوائيّةٍ وحشرتُها دون أيّ رأفةٍ بها.. ثمّ ألقيتُ تحيّةً سريعةً على لولية المتجهّمة، ودون أن أرتقب أيّ إجابةٍ منها ركبت درّاجتي وانطلقتُ أتنفّس الصعداء وأغنّي طرَباً من فرارٍ تحقّق قبل أن يقع المحظور.

***

أشعر بتشوُّشٍ يشدّني نحو الذات بعيداً عن أيّ صخبٍ خارجيّ، يكبّل إرادتي، ويستهلك قدرتي على التفكير. لا أدري لمَ جاء موضوع العودة ليُطرَح من جديد بعد دَهرٍ من الغياب، ويشكّل حاجزاً بيني وبين هَدأتي..

أنا فعلاً أحلم بالعودة منذ أن تخطّينا عتبة أرضنا إلى المجهول، وأتمنى لو أحتضن جدران بيتٍ كان لي دفئًا في زمنٍ قَصِيّ.. لكنّه الخوف!

المسألة تتجاوز قلق الارتحال وصعوبات قد نتكبّدها، إلى مصيرٍ ضبابيٍّ يتربّص بنا خلف الحدود.

ربّما هي الوساوس من تغزل خيوطها في رأسي، أو أنّه اليقين؟!

المخيّم سلَبَ منا حياتنا، حتى بِتنا أشباه أموات.. ضحكاتُنا تلاشت أمام شظفٍ متعجرفٍ وحرمانٍ شنيع. حتى ذاتُنا التي كنا نرتديها في توقيت فرحٍ بعيد، اندثَرَت وصرنا كلّنا نسير بأقنعةٍ تحجب حقيقة حالنا.

في المخيّم، نحن لسنا مواطنون بل مجرّد كائناتٍ حُشرَت في عُلبٍ لئلّا تتسبّب بضيقٍ وانزعاجٍ للبشر. وربّما لإجراء اختبارات وتجارب وخوض تحدّيات تحقيقًا لمكاسب محتملة.

وخارج المخيّم، نحن في تصنيف من يرانا رمزٌ للشّقاء والبؤس. قد نستقطب عطف البعض وقد ننال حسنةً من بعضهم الآخر، ولكن نظلّ في نظر الجميع أفراداً منتمون إلى درجةٍ متدنيةٍ في تصنيف الإنسانيّة.

دائمًا علينا الرضوخ، اجتماعيًّا لننال الرضا ونفوز ببعض المِنَح والعطاءات.. وسياسيًّا، لاستحصال منفعةٍ قد تأتي من زعيمٍ، ربّما نحتاج حضوره يومًا إذا ما عصفت بنا أزمة وجود.

من أجل كلّ ذلك، تتراءى مسألة العودة ضرورةً لا استغناء عنها، في سبيل تحقيق خلاصنا الروحيّ والماديّ.

وأنا تَرَف، الفتاة التي خاضت بؤس الحياة باكراً، واختبرَت مرارة اللّجوء بأبشع صوره ومعانيه، يحق لي أن أعيش فرح العودة، وأستعيد شيئًا من أنوثةٍ أضعتُ بعضها على درب اللّجوء وخسرتُ ما تبقى منها في مخيّمٍ يضمّ بين أركانه جميع مقوّمات الدّمار النفسيّ وتشتّت الهويّة والانتماء.

نعم.. أريد أن أعود إلى أرضٍ تمتد جذوع أشجارها لتورِف وجعي وتخفّف وطأةَ حرارةٍ وخوف.. أرغب أن أستعيد صداقتي مع ظلّي الذي هجرني منذ رحيلي، بينما هو استمرّ في الصمود هناك، ولم أعثر له على بديلٍ في أرضٍ بلا وهجٍ ولا ظلال.

منذ أن عاودني حلم العَودة، وأنا أتخبّط بين حزنٍ وفرح، بين يأسٍ ورجاء، وبين قبولٍ وإحجام. قلبي يرفّ كلّما ردّدت حروفَها.. وفي الوقت عينه يَشرع عقلي في إفساد احتفاليّتي، فيُجري مفاضلات وينخرط في حساباتٍ لا أنال منها سوى مزيدٍ من القلق والتردّد.

وأنا على هذه الحال، لا أستطيع أن أحادث أمّي وأبي في مشروع العودة، ولا حتى أن أدخل في نقاشٍ قد يتراءى عقيمًا إن لم أحسم قناعتي ويرتديني اليقين. وهذا ما أحاول فعله في الآونة الأخيرة، دون أن أسمح لأيّ تدخّلٍ أن يبني سدّاً بيني وبين صوابيّة القرار.

لذلك أجدني أحرص على الاحتفاظ بخبيئتي داخل جدران صمتي حتى لا يصبح الأمر محطّ ثرثرةٍ في جلسات النساء الصباحيّة والمسائيّة، وتجمّعات الرجال المرتَقبين عملاً تحت أشعة الشمس الحارقة.

بالمناسبة، معظم رجال المخيّم شبهُ عاطلين عن العمل، ومن يملك الحظّ من بينهم يتعثّر بمهمّةٍ يُنجزها سريعًا ليعود إلى صفوف الآخرين بنصرٍ مبتور.

ربّما يبدو هذا الأمر طبيعيًّا في بلدٍ تتآكله الأزمات، ويخسر كل يوم شيئًا من بريقه.. الأعمال التجاريّة في تراجعٍ مستمرٍّ، والعملة إلى انهيارٍ كليٍّ.. المحلات توصد أبوابها، والرواتب تسير بسرعةٍ خاطفةٍ نحو الحضيض.. أبناء المدينة بات معظمهم بلا عملٍ، فكيف الحال بمن ينتمون إلى المخيّمات!

لذلك، باتت الطرقات والحدائق العامّة وحتى ظلال الأشجار المبعثرة على الأرصفة مكانًا لتَجَمهُر الباحثين عن أيّ فرصة عملٍ بائسة.

يتجمّع الرجال منذ الصباح الباكر، ويجثون على الأرض وبجانبهم تستقرّ «الزوادة» رفيقة نهارهم بأكمله.. ويستمرّون في جلوسهم وترقّبهم حتى يأتيهم من يطلب أجيراً يُسنِد إليه بعض المهمّات.. عندها يتأهّب الجميع، ويحاول كلّ منهم أن يَفرد عضلاته ويَظهر بصورةٍ تليق بشخصٍ صلبٍ يحتمل أشدّ الأعمال قسوة. ومن يحالفه الحظّ وينال الرضا والقبول، يرتحل مع الغريب إلى حيث سيؤدّي عملاً لا يدرك له وصفًا، ويتقاضى أجراً قد لا يُسمن ولا يُغني من حاجة.

اليوم هو بداية الأسبوع، وأجندتي حافلةٌ بمواعيد تسليمٍ وأخذ قياسات.. تنقّلاتي ستكون كثيرةً، ولن أحظى بأدنى وقتٍ للَملمة فكري الشريد.. ولكن لا بأس بذلك، طالما أنّ السيّدة شَهربان ليست ضمن نطاق زياراتي، ممّا يعني أنّني لن أرتكب بحقّ نفسي قهراً نقسيّاً كانت ستستمرّ آثاره لأسبوعٍ كامل.

سأحاول قَدرَ المستطاع أن أجتاز حدود حيرتي، وأنغمس في عملي حتى لا أقع فريسة أيّ خطأ. وإن أُتيحت أمامي فرصةٌ، سأعبُرُ إلى الشاطئ فربّما ألتقي بعجوزي وأبوح له بهواجسي، عساه يهديني شيئاً من اليقين، في هذا التوقيت الماكر من الضياع..

الارتباكات النفسيّة التي أمرّ بها جعلتني عصبيّة المزاج. أشرد كثيراً، وأحادث نفسي كلّما اختليتُ بها، وأدخل معها في حوارٍ غالباً ما يتحوّل إلى جدلٍ وحتى صراخ. وبالتأكيد فإنّ مثل هذه التبدّلات النفسيّة لا يمكنها أن تعبُر دون أن تثير انتباه أمّي التي التقَطَت شرارات توتّري، لكنّها لم تحاول أن تَنفذ بين مسامات صمتي وتتلصّص على خَفقي. ومع ذلك، صارت وبمجرّد تواجدي معها، تبعث إليّ نظراتها كساعي بريد لتُخبرني أنها تستشعر حيرتي، وأنّها على استعدادٍ لاحتصان هواجسي.

إلى متى سأستمرّ كالهاربة من جرمٍ لم أرتكبه، وكأنّ قدري كلاجئة يحتّم عليّ أن أعيش طريدةَ الشعور، مشتّتةَ الروح، وأسيرةَ تردّدٍ يأبى إلّا أن يرسم خطوطَه المشوّهة فوق ملامحي وبين تعرّجات الجبين!

قد يعتقد البعض أنّني أبالغ في انصياعي لمشاعر الارتياب، وأنّ العودة مسألةٌ لا تستدعي كلّ هذه المكابدة وهذا العناء الروحيّ.. وأنّها مجرّد حدثٍ

كسواه وإجراءٍ قد يحتمل الخطأ أو الصواب.. لكن من يختبر التجربة ويعيش دقائقها، وحده من يملك القدرة على استشعار التردّدات السلبيّة التي تخلّفها، ومقدار الرماد المتراكم في قعر الوجدان طوال سنوات عجاف من التهجير القسريّ.

أن تنفض عن أوردتك غبار الوجع، وتنهمك في إعادة هيكلة نبضاتك، فذلك يتطلّب طاقة احتمالٍ وقدرةً على تبصّر كلّ الاحتمالات سلبيّةً كانت أو إيجابيّة.

ليس من السهل، بعد انقضاء زمنٍ من اللجوء، وبعد أخبارٍ مأساويّةٍ عن دمارٍ وقتلٍ وتعذيب، وبعد تقديم التنازلات لبناء وجودٍ وإن تراءى وهميّـًا.. أن تعبُر كلمة العودة كنسمةٍ أو همسةٍ أو رفّة هَدب. لا بدّ من كتابتها على سطرٍ للتمعّن بحروفها، وقراءة فراغاتٍ تتداخل معها، وتحيط بها، وجعلها عنوانـًا ملائمـًا لنصٍّ إبداعيٍّ يرضى عنه كاتبُه ويكون حافلاً بالتوقّعات المجازيّة والواقعيّة وبالانتظارات المتعدّدة.

وهذا تمامًا ما أحاول أن أمارسه منذ لقاءٍ بعثر خَفقي، وشرذم التئامي، ووضعني في خانة المطارَدين من أفكارهم إلى أجلٍ غير معروف.

***

ها أنا أجثو فوق الرّمال، وأصغي إلى هدير الموج الذي تجلّى قويّـًا في هذا التوقيت الخريفيّ الحزين. يومي كان حافلاً بالتنقّلات والمهمّات التي شغَلَتني طوال النهار، والغروب قد أوشك على الانبساط.

دائمـًا عندما تتكاثر فوق كاهلي الأعمال، أُمضي يومي دون أن أفكّر بالطعام. حتى معدتي تحتفظ بجَأشها وتأبى أن تُبدي أيّ ضعفٍ طالما أنّني في مسرح الانشغال. لكن، وما أن أستكين في محاولةٍ لالتقاط راحة، حتى تبدأ بإصدار أصواتٍ في إنذارٍ إلى صعوبة الوضع وجسامته. هذا ما أحسّه الآن، مع شعورٍ بتعبٍ يسري في أوردتي وشراييني. صوت البحر تراءى مناسبـًا لتحقيق رفاهيةٍ مصطنعةٍ، والانغماس في سكينةٍ ربّما أتعافى فيها من صخبٍ رافق يومي المُثقَل بالأعمال.

لا أدري لم استقطبَت طيور النّورس اهتمامي بشكلٍ مفاجئ!

رحتُ أرقبها في تحرّكاتها وأنا في ذُروة الاسترخاء، وعلى وشك الفوز بإغفاءةٍ أكيدة. ها أنا أراها تحلّق بأعداد مثيرة على علُوٍّ منخفضٍ، ثمّ تهبط في الماء حتى تتوارى خلف الموج وتصير جزءاً من زَبده، لتعود إلى خروجٍ سريعٍ، ترجع بعده إلى اقتناص الأمواج وتحدّيها.

ما أروعها! وكم هي محظوظةٌ بانتمائها إلى فصيلة كائنات غريبةٍ عن البشر بتعقيدات حياتهم والتباس نواياهم وحتى بعُقدهم التي تطال إنسانيّة البعض وتنال من قلوب آخرين.

مدهشةٌ هي النوارس.. أعشق انطلاقَها وقدرتَها على ممارسة الحريّة بكامل جنونها وجموحها.

الحريّة! هذه الحال المقدّسة، لا يعرف وزنـًا لها إلّا من خسر بريقَها. ونحن كلاجئين من أكثر الأشخاص الذين افتقدوا حضورَها البهيّ، وبِتنا عاجزين حتى عن التغنّي بها، أو صياغة أبسط معانيها. نعم، الحريّة هي ما نفتقد!

ليس عليكَ أن تكون مطوّقًا بسلاسل وأغلال، أو محاطـًا بأسوار شاهقة تحجب عنك الرؤية، حتى تكون سجينـًا أو تغدو معتقلاً.. يكفيك أن تخسر نبضَ الوجود وتصبح بدون انتماءٍ لأرضٍ أو مكانٍ أو حلمٍ، كي تصير أسيراً معذّبـًا، وتنضمّ إلى قافلة المحرومين من الحريّة.. والحياة.

كنت سارحةً بين أفكارٍ مشوّشةٍ وطيورِ نورسٍ وموجٍ صاخبٍ، عندما حطّ ثِقَلٌ على كتفي وأجفَلَني. صرختُ من فزَعٍ، وارتميتُ بقوّةٍ فوق الرمال. من وَطأة السقوط، شعرتُ بألمٍ في كتفي الذي عثرتُ عليه عالقـًا تحت جسدي وفي وضعيّة انثناء. كادت الدموع تفرّ من عينَيّ لولا أن لمحتُ العجوز وقد صفعه الخوف. نعم، إنّه السيّد عُدَيّ بملابسه الغريبه وقبّعته الحاجبة لملامحه التي بِتّ أحفظها عن ظهر قلب.

أعتذر صغيرتي.. لم أتقصّد إخافتكِ. لمحتكِ في حال شرود، وأعتقد أنك في انتظار حضوري.. صح؟

يا لحظّي الجميل، وجوده أمامي منح قلبي سعادةً عظيمة أنسَتني ما أنا فيه من تعب. فكأنّني فزتُ بجائزةٍ لطالما دغدغت يقظتي والأحلام.

لملمتُ وجعي ونفَضتُ عني غبار الألم، وبابتسامةٍ شاحبةٍ استقَمتُ في جلستي، ثمّ وقفتُ لأحتفي بحضور من انتظرتُ لقاءه منذ زيارته الخفيّة

لمخيّمنا. دعوته ليجثو قربي فوق الرمال المنبسطة، ورحت أتأمّل حركته البطيئة وهو يجلس القرفصاء ضامّاً قبعته على صدره. في يده قبع كيسٌ من الخَيش تراءى منتفخاً ممّا يوحي باحتوائه على كثيرٍ من الحاجيّات.

وفي حركةٍ سريعةٍ، مدّ يده داخل كيسه وأخرج شطيرةً كبيرةً قدّمها لي مصحوبةً بابتسامته المُحَيِّرة..

«هيّا يا تَرَف تناولي هذه الشطيرة.. أعرف أنّك عملتِ طوال النهار دون أن تقتاتي أيّ شيء.. لا تخجلي، سنتقاسم ما أضعه في الكيس فكلانا لديه تراثٌ عريقٌ من الجوع والقلق».

مددتُ يدي كمَن سلبه السّحر إرادته وأخذتُ الشطيرةَ في حركةٍ لا إراديّة، ثمّ بدأتُ بتناولها قضمةً خلف أخرى.. صرتُ آكل بشهيّةٍ لم تعبر معدتي من قبل، رغم غياب أيّ طعمٍ أو نكهةٍ أو رائحة. التهمتُ بنهمٍ شديدٍ، وأنا أتطلّع إلى عجوزي الذي بدا شارداً في الموج الهائج، وغافلاً عن كلّ ما أقوم به، ودون أن يتناول أيّ شيءٍ أو يظهر عليه أيّ تفاعلٍ مع جوعي وشَرَهي الكبير.

لم أكَد أُنهي طعامي، حتى لملم العجوز نفسه، اعتمر قبّعته، لفّ كيس الخَيش حول رقبته، واستدار لينصرف!

«أرجوك لا تُغادر.. هناك أمورٌ عديدةٌ أرغب بإطلاعكَ عليها.. أنا متردّدة ومشوّشَة ويهمّني رأيكَ كثيراً».

وكعادته المثيرة للاستفزاز أحياناً، استمرّ في وضعيّة وقوفه المعاكسة لي، وبصوت عميقٍ كمن ينبعث من بئرٍ، قال: «لا بأس يا فتاة.. مسألة العودة لا تحتاج نقاشاً أو حتى تبادل وجهات نظر.. إنّها موضوع مصيرٍ لا يملك أحدٌ

أن يقرّره إلّا صاحب العلاقة. سبق وقلتُ لكِ أن العودة ما زالت حلماً يراودني منذ ما يزيد عن النصف قرن، وحتى هذا التوقيت من المَشيب هي أمنيتي الأولى والأخيرة. ولكن.. الظروف هي من يتحكُم في نهاية المطاف، الأمر لا علاقة له بالرغبات حتماً. لذلك قدّري ظروفك وظروف عائلتكِ وظروف بلدٍ يتنفسّ بعيداً خلف الحدود، وبعدها امضي في قراركِ».

بعد هذه الكلمات التي أَردَتني في جمودٍ، تقدّم العم عُدَيّ قليلاً ثمّ استدار نحوي مادّاً يده وقال: «صحيح.. أين علبة الصفيح خاصّتي التي وضعتُها أمام بابكم؟ حسناً، لا داعي لها الآن، ولكن أتمنّى أن أجدها بحوزتكِ في المرّة القادمة؟».

وبابتسامةٍ خبيثةٍ نظر إليّ شزراً، ثمّ التفتَ مغادراً..

يا لعجوزي المُريب! لماذا تداهمني دائماً معرفتُه بخبيئاتي!

قبل أن أبثّ له أيّ شكوى، يحاول أن يطرح أمامي حلولاً قد يبدو بعضها صعب التحقّق، بينما يتراءى بعضها الآخر سائغَ التطبيق. ولكن، برغم غرابته المفزعة أحياناً، يبقى العجوز «عُدَي» الطيفَ الذي اقتحم فراغاً قابعاً في زاوية روحي، وأهداني قوّةً في لحظات ضعف. أراه يملك تأثيراً مدهشاً في رَفع أحمال ترمي بثِقَلها على البدَن، دون أن يتكبّد عناءً أو يبدي تضجُّراً. حضورُه يكفيني لأصبح بخيرٍ، وأمضي إلى حيث يريدني القدَر وتقذفُني الأيام.

فجأةً استشعَرتُ برودةً تدكّ عظامي، لأُدرك أنّ الليل قد أسدل سوادَه وغدا الشاطئ موحِشاً ومثيراً للارتياب. وباستعجالٍ، جمَعتُ خوفي وذاتي

وانسرَبتُ سريعاً على درّاجتي إلى أحضان مخيّمٍ بات منذ سنوات رمزاً لأمانٍ أحاول أن أرتديه، رغم أنّ مقاسه لم يكن يوماً يليق بي.

على باب المخيّم استقبلني الحَجّي. كان ممدّداً على كرسيّين مستقرَّين أمام بعضهما، واضعاً جسده على أحدهما وساقَيه على الآخر. لم يُعِرني أيّ اهتمام، واستمرّ في تمثيل النّعاس عبر إغماض عينيه، وإظهار الاسترخاء الكُليّ في يديه. لا أدري لمَ رحتُ أتأمّله وكأنّه اللقاء الأوّل بيننا. ودون سابق توَقُّع سألته:

ما هو اسمك الفعليّ حَجّي؟

وكأنّ سؤالي باغَتَه كما باغَتَني، ففتح عينيه ثمّ استقام في جلوسه وأخذ يتأمّلني باستغراب. صار كلانا في حال جمودٍ كُليٍّ قبل أن ننغمس في ضحكةٍ مجلجلةٍ ضربت أصقاع المخيّم، في حدثٍ فريدٍ غير متوقَّع..

ودون أن أنتظر إجابةً، انطلَقتُ على درّاجتي بعد أن ألقيتُ تحيّةَ مودّةٍ على الحَجّي الذي استمرّ برغم مآسيه حاملاً فوق ملامحه ابتسامةَ رضا، وفي قلبه خَفقاً أبيضَ اللّون.

في الحقيقة، لا يعنيني مطلقاً تحديد أيّ اسمٍ له، فلقب الحَجّي يليق بهَيبته وطيبته، ووجودُه حقّاً يكفينا جميعاً حتى نستشعر اطمئناناً في مخيّمنا، ويظلّ الأمل يرتع في قلوبنا ريثما يتحقّق الرّجاء.

***

دخلتُ إلى البيت والجوع يدكّ أحشائي. لا أملك تفسيراً لذلك، فالوجبة التي تناوَلتُها بشراهةٍ على الشاطئ حملت إليّ إحساساً بالشبع لدرجة الغثيان.. من أين أتاني هذا الخواء!

كانت أمّي ما تزال تعمل على ماكينة الخياطة عندما ألقيتُ التحيّة. صوت الآلة تراءى صاخباً جدّاً وسط سكونٍ سطر حروفَه في المكان، بسبب غيابٍ غريبٍ لإخوتي لم أدرك أسبابه! وأبي كعادته، رأيته على كرسيّه في الركن البعيد متّكئ الرأس على الحائط، وغارقاً في نومٍ، تجلّى قلقاً من خلال اهتزازٍ يضرب جسده كلّ حين.

يا لأمّي المسكينة! أغادرها صباحاً على وَقع ماكينة الخياطة، لأعود وألتقيها في مكانها.. المشهد يبدو مأساويّاً وهي محنيّة الظهر وشاخصة البصر في محاولةٍ منها لتتبُّع الإبرة مع خيطها الرفيع.. منظرها موجعٌ للقلب، وفيه إشارةٌ إلى ألف هزيمةٍ تتبختر بين أروقتنا ونعيش نكبَتَها كلّ يومٍ وبعنفوانٍ مصطنع..

فعلاً.. يكفيها أمّي ما نالَته من عذابات منذ بداية ارتحالنا وحتى هذه اللّحظة من استقرارنا المشَوَّه.

كم أكره ضعفي إزاء وجعها، وأبتئس كلّما راودني العجز أمام عناءٍ ينهش عمرها، يَبتر راحتها، ويقضّ مضجع روحها بإعاقةٍ نفسيّةٍ قد تغدو رفيقة دربها..

ربّما آن أوان العودة فعلاً.. ولن يكون الزمن وفيّـاً لقضيّتنا، إن لـم نحمل صولجانها ونرفع خَفَقاتنا رايات لها.. وما عاد هناك من وقتٍ يستحق أن نخسره في سبيل اللّاشيء.. واللّا وجود.

إن كان ما يترقّبنا خلف الحدود مجهولٌ وغامضٌ وربّما مريبٌ، فإنّ استمرارنا في بَذل أرواحنا هنا وتقديمها قرابين في سبيل عيشٍ ليس بالكريم، هو موتٌ بطيءٌ يصيب أرواحَنا قبل الأجساد..

إذاً.. بات عليّ أن أتعاطى مع العودة بجديّةٍ، وأضع أمام عائلتي احتمالاتها المتعدّدة لتتمكّن من تحديد طريقنا، بدلاً من ضبابيّةٍ نغرق بين تلابيبها في كلّ يومٍ أكثر.

ولكن.. قبل البَوح والنقاش والتحليلات، لا بدّ من مسألةٍ تتراءى مستعجلةً في هذا التوقيت من الجوع.. علَيَّ بالطعام!

أشعر أنّ قُوتـاً لم يَعبر معدتي منذ ما يقارب الأسبوع وأكثر.. شهيّتي تجدَّدَت، ورأيتُني على استعدادٍ للانقضاض على أيّ شيءٍ قد يصلح للهَضم.

أسرعتُ إلى ثلاجتنا العجوز المركونة على جنب، وأنا على علمٍ مسبقٍ أنّها ستكون غنيّةً بغياب الأطايب.. ولن تقدّم لي بالتأكيد ما أستعين به لأنعم اللّيلةَ بإغفاءةٍ طريّةٍ..

بين الفراغات الكثيرة، عثرتُ على وعاءٍ فخاريّ صغيرٍ يحتوي على القليل من الحشائش المطبوخة مع البصل.. أكلةٌ اعتادت أمّي على إعدادها كلّما حَفلَ نهارُها بانشغالاتٍ كثيرة، لسهولة صنعها ولأنّها لا تكلّف إلّا

خروجـًا سـريعًا إلـى «البَرِيّـة» القريبـة لاختيـار المناسـب مـن الحشـائش والصالح منها للأكل.. وهي مهمّةٌ عادةً ما تُسعفنا فيها جارتنا التي تُكثر من طَهوها لأنها، وكما تقول، مفيدةٌ وغنيّةٌ بالمعادن، بينما في الواقع كلّنا نعرف حقيقةَ سَعيها نحو توفير المال الذي يرفع راية النّدرة في جيوبها، وجيوبنا أيضًا..

ولأنّني خشيتُ أن يكون ما في الوعاء حصّة أحدٍ من إخوتي امتنعَ عن تناولها لسببٍ ما، بدَّلتُ مخطّطي، وتناوَلتُ من كيسٍ صغيرٍ قطعةَ خُبزٍ، رحتُ ألتقمها بسرعة بهدف حَشوِ بطني ومنعه عن إصدار همدراتٍ مُخزية.

في الواقع، لا أعرف لمَ تكبّدَ أبي ومنذ سنواتٍ عناء ابتياع هذه الثلّاجة الدخيلة على حاجاتنا، والتي غالبًا ما تظل خاليةً من أيّ حياة. هي مرّةُ واحدةٌ تلك التي اعتَزنا فيها برودتَها لتخزين بعض المواد الغذائيّة من لحوم وأجبان وأمورٍ أخرى جادَت بها إحدى المنظّمات الدوليّة الإنسانيّة لأهل المخيّم، ذات صدفة. ومنذ ذلك المَنح، تلاشى الشعور الإنسانيّ وهيئاته الدّاعمة، وكأنّ العالم خلا من كل المعوّزين، وما عاد هناك من داعٍ لمنظّماتٍ دوليّةٍ تسعى للخير، سَعيَها للشرّ!

بكلّ الأحوال لا خسارة في الموضوع.. يبقى وجود الثّلاجة أيقونةَ أملٍ ومبعثًا على التفاؤل بأيّام قادمة قد تجود علينا بخيراتٍ كثيرةٍ كتلك التي ملأت بيتنا، ذات ماضٍ، في أرضٍ قَصِيّةٍ وبلدٍ مهزوم..

ما خطر على بال أحدنا في ذلك الزمن أنّنا سنخطو نحو الحاجة على بساط السرعة، ونقف في صفوف الحالمين بوجبةٍ دسمةٍ وشبعٍ أكيد!

وكيف يحصل ذلك، وكانت لنا زريبةٌ تحوي عشرات الأبقار والأغنام والجِمال، منحَتنا ترفًا في العيش ورفاهيّةً في اقتناء ما نريد، وجعَلَت من أبي كبيرَ تجّار الماشية في البادية والقرى المجاورة لنا!

أذكر ثلّاجةً كبيرةً لا تتماثل مع التي نقتنيها حاليًّا، تضجّ فيها المأكولات والأطعمة المتنوعة وتتزاحم وتتدافع، بحيث لا فراغ يُحشر فيه إصبعٌ أو ينسرب إليه نور.

هناك فرقٌ شاسعٌ بين ما يمكن أن نمتلكَه على حين غنى، وبين حاجيّات نستحوذ عليها في توقيت فَقرٍ وشَتات.. عندما نملك المال، تصبح كل الأمور متاحةً، تكثر الخيارات، وتضيق الأمكنة بكلّ ما هو ضروريّ وغير ضروريّ. قد نقتني أغراضًا لمجرّد رغبةٍ تَعبُرُنا ذات ملَل، ونحن على درايةٍ بأنّها ستُركَن ويغزوها نسبج عنكبوت.. أمّا في حال الضَّنك فنلجأ للاكتفاء بما هو أكثر من ضروريّ حتى يستمرّ النبض خافقًا في الوريد، ونطرح خارج حساباتنا كلّ احتمالٍ آخر لئلّا يقع المحظور..

كنت لا زلت أمام الثلّاجة أَرقُبها، حين سمعتُ صوت أمّي يهتف لي، فكأنّها انتَشَلَتني من عالمٍ آخر، وسحَبَتني من شرودٍ اقتلعني من مكاني.. والزمان.

«ماذا تفعلين كل هذا الوقت أمام الثلّاجة يا تَرَف؟».

أغلقتُها سريعًا بعد أن تناولتُ قطعةً أخرى من الخبز، رحتُ ألتقمها بشهيّةٍ مبتورة. وأمام أمّي تصلَّبتُ من جديد..

«هل أنتِ بخير يا ابنتي؟».

تطلَّعتُ إلى بشرتها الباهتة وذبول عينَيها المنهكَتَين. ثمّ جِلتُ بنظري على شعرها الذي بات من سوء العناية أشبهَ بكرةٍ صوفيّةٍ راقدةٍ فوق رأسٍ فقَدَ توازنَه من فرط التعب. كم صرتِ غريبةً عن نفسكِ أمّي، ولم يتبقَّ من صورتكِ سوى قلبك الذي مهما قسى، يظلّ كسحابةٍ بيضاء تظلّلُنا وقت حاجة.

تنهيدةٌ عميقةٌ تسلَّلَت من صدري دون أن أملك طاقةً لرَدعها، وإذا بأمّي تكفُّ عن العمل وتركّز بصرها على وجهي المُربَك. صوت السكون الذي ترافق مع توقّف آلة الخياطة أفسح المجال أمامي للشروع في الكلام.. ومن دون مقدّمات، قلت لها: «أمّي.. لماذا لا نعود إلى أرضنا وحياتنا وماضينا؟ لماذا نبقى هنا ولم ننَل منذ وصولنا شرَفَ اختبار أيّ حياةٍ كريمة؟ نحن لا ننتمي إلى هنا، ولا فرصةَ لنا مطلقًا كي نصبح جزءاً من مكانٍ رافضٍ لوجودنا.. كثيرون خاضوا تجربة العودة، فلماذا لا نفعل مثلَهم. إن هي أصابَت فذلك خيرٌ كبير، وإن لم تفعل فلا خسارة أكثر من هذه التي نعيش مرارتها الآن».

صمتٌ مُطبِقٌ عمَّ أرجاء القاعة، قبل أن تشرع العَبَرات بالانهمار دَفقًا على وجنتَين ضامرتَين لأمّي من فرط الخيبات.. وبارتعاشة يد، مسحَت عينيها بطرف كُمّها لمَحو آثار وجعٍ عصف بها. فكأنّها استَحَت من ضَعفها أو ربّما خشيَت من تداعيات مشاعرها على قلبي. ثمّ، وبلامبالاةٍ مفتعَلَة، عادت إلى آلتها ليصدح الصوت مجدّداً، ويشوّه لحظةَ حنينٍ نادرة، تراءت ملائمةً لمناقشة احتمالاتٍ وربّما لاتّخاذ قرار!

سلوك أمّي التي قلّمَ التهجير روحها وغرس في أعماقها فيضاً من الهواجس، بدا لي مُريباً وخارجاً عن مدار المقبول.. أيُعقل أنها ترى في العودة مشروعاً خائباً!

أمّي التي أَبَت ومنذ البداية مغادرةَ مكانٍ لملم ضَعفَها ومنحها بطاقةَ وجود، وأُصيبت بتوعّكٍ نفسيٍّ وجسديٍّ من فكرة الارتحالٍ، والتي عملَت منذ لحظة لجوئنا الأولى على تعزيز تعلّقي بالوطن، وأوصَتني مِراراً بحفظ الانتماء لظِلّي وعدم القبول بأيّ ظلٍّ بديلٍ.. لا يمكنها أن تفقد فجأةً لذّةَ الانتساب إلى حلمٍ ارتدى روحها دَهراً، وتقف غير مباليةٍ بأيّ تغييرٍ ممكن، وكأنّها صارت تحمل في أعماقها امرأةً أخرى بنبضٍ مختلفٍ وروحٍ محشوّةٍ بألف همٍّ ووَهم!

شعرتُ بحبلٍ يلتفّ حول عنقي، يمنع عنّي الأنفاس، ويحجب أيّ إمكانيّةٍ لممارسة التفكير. لكنّني رغم ذلك أَبَيتُ الإذعان للصمت، وبصوتٍ مكتومِ الأنفاس قلت: «منذ متى ومسألة العودة لا تمثّل أولويّةً في حياتكِ أمّي؟ لا أصدّق لا مبالاتكِ وقسوةً تحاولين ارتداءها.. لا يمكنكِ إلّا أن تظلّي وفيّةً لأرضنا حيث ترعرعت أحلامكِ وأينعت وطابت.. أرجوكِ أمّي، لا تمثّلي دوراً لا يليق بقلبكِ.. فكّري مليّاً بعودتنا واجعلي من نبضاتكِ دليلاً للرجوع».

برغم ارتجافٍ رافق كلماتي، إلّا أنّ صوتي تراءى عالياً لدرجةٍ خرج بها أبي عن إغفاءته القلِقَة، وراح ينظر مبهوتاً إلى كلَينا في محاولةٍ مستعصيةٍ على الفهم.

لم يَعتَد أبي مطلقاً أيَّ شجارٍ أو خلافٍ بيني وبين أمّي. حتى في الحالات النادرة التي توتَّرَت فيها علاقتنا، لم نتواجه مطلقاً بأيّ كلام.

لم تفاجئني ردّة فعل أبي وقد سبَق وخرج عن صمته أمامي عدّة مرّات، مقدِّماً لي نصائحه الدافئة. غير أن المسألة شكّلَت عند أمّي حدثاً غير متوقَّع. فمن رجلٍ غائبٍ عن الحركة والكلام وحتى الحضور، إلى آخر قادرٍ على الانتباه والتساؤل وربّما الاستيعاب.

صرخَت أمّي، ثمّ ما لبثَت أن وقفت مُطلقةً سَراح قطع القماش المتراكمة فوق حِجرها، والتي راحت تتناثر هنا وهناك دون أن تعيرَها أدنى انتباه.

وبحركةٍ سريعةٍ لا تتناسب مع بدانةٍ استشرَسَت في جسدها، لمحتُها وقد استقرَّت أمام أبي بعينين عصف بهما الرّجاء، وأخذت تتوجّه إليه بعبارات مُلتبسةٍ على الفهم، في محاولةٍ منها للاستحواذ على انتباهه. غير أن والدي واصل اندهاشه في وجومٍ تام، ممّا زاد من عصبيّتها، فأخذت تشدّه من قميصه برفقٍ، ما لبث أن استحال إلى عنفٍ وهي تبكي وتصرخ مستجديةً منه الحياة.. وكأنّها بهذا السلوك الطاعن في البؤس حاولَت إفراغ جامَ حزنها وعجزها وخوفها وخيبات لجوئنا المتراكمة في الروح.

أمام هذا المشهد المأساويّ غدَت كلّ المعاني مشوَّهة.. وبدمعةٍ غافَلَت يأسي، غادرتُ المكان، ورحتُ أمشي في أزقّة المخيّم الضيّقة، والتي تراءت لأوّل مرّةٍ أوسعَ من عالمٍ شحيحٍ بالإنسانيّة، وضَنينٍ بالخَفق على أمثالنا ممّن بَتَرَ الشَّتاتُ حقوقهم، مَسَخَ أحلامَهم وقوَّضَ ما تبقّى من قدرتهم على الأمل.

***

شهرٌ انقضى على ذلك النهار الذي بدا فارقًا في حياتنا، ووحدي من كنتُ فيه شاهدةً على حدثٍ مأساويٍّ قلَبَ حالَ أمّي إلى النقيض. منذ أن صفعَتها الخيبة ويئسَت من رجوعٍ ولو مبتورٍ لإدراك أبي، حتى دخلَت بدَورها مرحلةَ اكتئابٍ جعلها تمتنع عن أيّ حديثٍ. صارت تكتفي بالضروريّ من الكلمات. تقوقعَت على ذاتها، وغرقَت أكثر في عملها الذي قلّ نِتاجُه، مبتعدةً حتى عن جارتنا، صديقتُها الوحيدة ومَكمَن أسرارها..

حاولتُ مِراراً أن أبادِلَها أطراف حزنها وأُشعِرَها أنّها ليست وحيدةً في ضَعفها، وأنّ وجع خيباتنا واحد، لكنّها أَبَت الإصغاء وزادت من انطوائيّتها. الأمر الذي دفعني إلى تجنّب أيّ حوارٍ معها حتى لا تَغوص في هواجسها أكثر، ونفقد بذلك ما بقيَ من حضورها كما سبق وخسرنا كيانًا دافئًا لأبي المشلول.

في ظلّ ذلك، صار موضوع العودة عَصيًّا على النقاش، وما عاد بإمكاني حتى أن أتقاسم حيرتي حوله مع أحدٍ، أو أنفض عنّي بعضًا من غبار القلق.. حتى العم «عُدَيَ» غاب حضورُه عن بالي وأنا أراني أنغمس كلّ يومٍ بمزيدٍ من الوجع والشتات الفكريّ.

الشتاء دخل بقساوةٍ هذا العام، ليزيد من بشاعة وضعنا، يُضفي على مأساتنا طابعَ الكارثيّة، ويمارس على أجسادنا عنفًا تعجز عن تخفيف وطأته كل الملابس الصوفيّة.. ومع البطء في وتيرة إنجازات أمّي، تراجع مدخولنا أكثر، وأصبح تأمين مستلزماتنا الضروريّة متعسّراً ومدعاةً للقلق.

أمام هذا الوضع، عثرتُ على نفسي في مواجهة خيارين كلاهما مُثقلٌ بالصعوبة: فإمّا عليّ أن أسعى للحصول على عملٍ جديدٍ يُدرُّ علينا دخلاً

إضافيّاً، ويُبعد عنّا شبَحَ الجوع الذي أوشك أن يدقّ باب بيتنا.. وهذا ما يتراءى مستحيلاً في بلدٍ متأزّمٍ احتلّت البطالة فيه مركزاً متقدّماً على سائر المشكلات المتراكمة.. وإمّا أن أحسم وبمفردي أمر العودة، عساها أرضُنا أن تستقبلَنا وتمدّ لنا يداً تُعينُنا على بدء مسيرتنا فوق تُربتها من جديد. ثمّ أسعى لفرض رأيي على العائلة، وهذا أيضاً ما أخشى الإقدام عليه خصوصاً مع تردّي الوضع الصحيّ لأمّي وسوء حالتها النفسيّة..

الهموم باتت متزاحمة في رأسي الصغير، وكلّما سعيتُ لتجاوز أحدها ضلَلتُ طريق الخلاص، أو تعثَّرتُ بدربٍ شديد الوعورة.

ولعلّ أكثر أمرٍ يعنيني حاليّاً، هو عدم استشعار إخوتي للوضع الذي صرنا عليه.. لذلك أحاول قدر الممكن أن أحتفظ بثبات مستوى معيشتنا البائس، والحَؤول دون تدهوره أكثر، من خلال تعديلٍ في سلّم الأولويات وجعل احتياجات الصغار الغذائيّة تحتلّ المرتبة الأولى وربّما الوحيدة في التصنيف الحاليّ للضروريات.

طال صمتُ أمّي كثيراً، وأنا لم أعتَد مطلقاً أن يغيب همسُها وصخبُها بهذا الشكل المُريب. لكنّي أفهمها، وأقدّر تعبَها وخيبتَها وهموماً من كثرتها احتلّت مكان النبض في الوريد. لكنّني أثق بها، وأعرف أنّها لن تُذعن لضعفها وستكون حتماً بخير. هي امرأةٌ قويّةٌ، اعتمد عليها أبي في تدبير كل شؤوننا عندما كنّا في أرضنا، ورغم سفره الدائم إلّا أنّها لم تعترض أو تُبدي أيّ استياء، وكانت له خير عَون في السّراء والضرّاء. وفي طريق اللّجوء الوَعِر

احتملَت مشقّة الحَمل بصمتٍ ولم نسمع لها تذمّراً أو شكوى، وولادة عابِر الغريبة أكبر دليلٍ على صلابتها وإيمانها. وحتى مع خيباتنا المتلاحقة في أرض اللّجوء، كابدَت وما زالت تتحدّى المستحيل ليستمرّ قاربنا في الصمود. لم تَخر قواها وتيأس بعد حادثة أبي وشلَله، بل اندفعت للعمل بإصرارٍ وقهرت حزنها عبر مزيدٍ من الانشغالات.

امرأةٌ كأمّي لا يمكن أن تتركنا في مهب الرّيح. لذلك سأكون وفيّةً لتضحياتها. وريثما تسترجع طاقتها للحياة، سأكون أمينةً على إخوتي ولن أسمح للخوف بالتسلّل إلى قلوبهم الغَضَّة، خصوصاً الصغيرة العَنود التي أحبّها كثيراً وأرى فيها صورةً عنّي في الشكل والروح. كم أتمنّى أن تعيش دفءَ المشاعر وسكينةَ الحياة التي عرَفتُها قبل اللّجوء. أرفض فكرةَ بقائنا في المخيّم وتصنيفنا كلاجئين من أجلها قبل كلّ شيء. وحتماً لن أحتمل أن تخسر فرحَ طفولتِها وأنوثتَها وحقَّها في التفتُّح كوردةٍ لتصير نسخةً عن قَهري وحرماني!

بائسةٌ هي العَنود، منذ ولادتها تكاثَرت المشاكل في أسرتنا، ولم تتذوّق نكهةَ الطفولة الحقيقيّة. جاءت حادثة أبي لتجعلَنا نعيش مأساةً فعليّة استحالَت فيها أمّي إلى مركز الثِقَل في الإنفاق علينا. كلّ ذلك جعل منها طفلةً وحيدةً تعاني حرماناً من عاطفة الأبوّة والأمومة في آنٍ معاً. حتى أنا ما استطعتُ أن أملأ فراغاً في حياتها، لأنّ الظروف أحالتني إلى فتاةٍ لاجئةٍ بالتزاماتٍ تتجاوز عمرَها وطاقَتها وحتى أوانَها.

العَنود هادئةٌ جداً لدرجةٍ مُقلقَة. سكونُها لا يتلاءم مطلقاً مع ما تعرّضت له من خساراتٍ نفسيّة عديدة. وهذا ما حمل إلى قلبي الخوف، وجعلني في مرّةٍ أسأل إحدى «الزّبونات» في مَعرض إيصال فستانٍ لها، وهي طبيبة أطفال، عن حال العَنود. ومن خلال إجاباتي عن أسئلتها أخبرَتني أنّ الأمر اعتياديّ وليس هناك من داعٍ للقلق.

مزاج العَنود الوديع خفّف حِملاً عن كاهلي كان ليُرهقني وربّما يمنعني عن إنجاز أعمالي. لكنّني دائماً أتركها في البيت وأنا مطمئنّةٌ أنّها ستبقى بسلامٍ، ولن تُحدث بلبلةً أو تعيقَ عملَ أمّي. كما أنّها الوحيدة، بلطفها وصفاء روحها، من تُشعرني أن تعباً استهلَكَني طوال اليوم قد اندثَر.

لن تتمكّن العَنود من أن تعيش حياةً آمنةً وطفولةً سليمة إن نحن استمررنا في اجترار تعبنا وخَنقِ أنفاسنا هنا.

حتى بَيدَر رغم كونه الأكثر قدرةً بيننا على التعاطي مع الآخرين، وإجبارهم على الالتفاف حوله رغم صغر سنّه، إلّا أن مستقبله في هذه الأرض لن يكون مُزهراً حتماً. في النهاية يبقى لاجئاً مفتقداً للانتماء، ولن يحصل على الأولويّة في أيّ مجالٍ أو أيّ اختيار. خَشيتي عليه تفوق الآخرين، فشخصيّته القويّة قد تدفعه للتمرّد على أيّ سوء معاملة، وربّما أوصَلَته يوماً لاستخدام العنف، وهنا تكمُن الكارثة!

سبق وأوقع نفسه في مشكلةٍ كادت تؤدّي إلى فاجعةٍ حقيقيّة عندما حاول ولدٌ في المدرسة يكبره في السنّ أن يهزأ من لونه الأسمر، وكانت النتيجة إصابةً في الرّأس تسبّب بها بَيدَر له.

فعلاً، نحتاج عَودةً سريعةً نلتئم بها مع جذورنا.. تُفرغُنا من هزائمنا النفسيّة، وتجعلنا نستعيد ذاتَنا الساكنة.

***

لا أستطيع أن أجازف بمحاولة إيقاظ أبي من غَفوته النّفسيّة ليشاركني هواجس العودة، والتي باتت تدق مدماكَها داخل رأسي. الأمر يتراءى مستحيلاً مع تواجد أمّي الذي صار شبهَ دائمٍ في البيت. لم تعد تخرج إلّا نادراً جداً لتعود على عجلةٍ، وتسترجعَ شرودَها أمام ماكينة الخياطة.

لا بدّ وأنّها ستصاب بانتكاسةٍ كبيرةٍ إذا لمحَت تجاوبَه معي، في الوقت الذي أبى فيه سابقًا أن يمنحها ولو إشارةً واحدةً توحي باسترجاعه شيئًا من الإدراك. ولكن حاجتي له تفوق أيّ مخاوف. لم يبقَ أمامي سواه لأسكب عليه وساوسي وأنتظر كلماته التي قد تُهديني يقينًا انتظَرتُه طويلاً.

اليوم ليس بإجازة.. ورغم ذلك، وبسبب التراجع في قدرات أمّي الإنتاجيّة، وجدتُ نفسي خاويةَ الوِفاض من أيّ مسؤوليّة. فلا ثياب أُسلِّمُها، ولا حتى طلبات جديدة في الجبن والحليب ألجأ لتوزيعها..

شغورٌ كبيرٌ وجدتُني ملتفَّةً به، دون أن أستشعر سعادةً بذلك. صار الفراغ مَدعاةً لرَهبةٍ ترتادني. فكلّما جالستُ نفسي، تهاجمني الهواجس من اللامكان، وتدكّ في داخلي تردّداتها لأصير في فزعٍ كبير. اللاعمل أضحى رديفًا لفوضى داخليّة تُنشِب أنيابها في خَفقي المُتلبّد.

لا أدري كيف سنستمرّ في الحياة بهذا الوضع الماديّ التعِس. الأعمال أضحت نادرة، والمدخول بات مدعاةً للسخرية، بينما الحاجات في تزايد مُستمرّ.

جثوتُ في القاعة الكبيرة والملل يضرب أصقاعي. رحتُ تارّةً أرقب أمّي في انحنائها أمام ماكينة الخياطة، وألاعب الصغيرة العَنود تارّةً أخرى.

صرتُ في قعودي أترصّد ظرفاً ملائماً يمكن استغلاله للاقتراب من أبي دون أن أحمل أمّي على الارتياب. طال الانتظار، والوضع على حاله. فلا أمّي غفلت عن الانتباه، ولا حتى أبي أظهر استعداداً لذلك.

ومن فَرط الترقُّب، اجتاحَني النعاس، وصارت الجفون تعاند صَحوي، فكلّما أصررتُ على التيقّظ، غافلَتني وأطبَقَت لتحجب عنّي النظر.

لا أعرف وصفاً دقيقاً لحالي.. لكنّ النوم لم يعصف فقط بالعيون، بل تمدّد إلى ثنايا الروح، وإذا بنبضي يصير شديد الهدأة والانتظام، فكأنّما القلب بسَكَناته تمرّد عابراً بي إلى وجودٍ آخر!

وقبل أن أنغمس في غَفوتي، أتتني العَنود لتضع أناملها الصغيرة على حِجري، وتهمس لي بضع كلمات لم أتبيّن منها سوى «أحبّكِ»!

اعتَلَتني رعشةٌ خفيفةٌ، وأحسستُ بأطيافٍ ملائكيّةٍ تطوّقُني، حتى أنّ ضحكاتٍ ناعمة راودت سمعي على حين نشوة.. احتضَنتُها بحنانٍ، وأخَذتُ أُقبّل أناملها ووجنتَيها وأداعبها إلى أن غَفَت بين ذراعَيّ. وعندما حمَلتُها إلى سريرها – وعاء التنك المُغطّى بالأقمشة – لمحتُ أمّي وقد شردَت في نومها متّكئةً على ماكينتها، لتنعم براحةٍ قصيرة.

وضعتُ العَنود تحت أغطيتها الصوفيّة، وبخِفّةٍ تقدَّمتُ نحو أبي الذي بدا غارقاً في نومه الثقيل. ولكن، بمجرَّد أن لامست كفّي كتفَه، حتى فتح عينَيه

متفحّصـاً وجهي وعلى ثغره ابتسامةٌ مَشوبَةٌ بحزنٍ عمره سنوات.. وكأنّه استشعر حضوري ولهفتي، فخرج سريعاً من شروده وصحا من غيابه محاولاً تلبية ندائي الصامت له.. وبصوته المكتوم توجّه إلى حيرتي قائلاً: «ما الذي يؤرق روحكِ صغيرتي؟ أفرغي ما في قلبكِ من ضعفٍ وهاتي ما عندكِ».

فكأنّي امتلَكتُ الكون بكنوزه الخبيئة، شعرتُ بنَصرٍ أدخل الحزن إلى فرحي. وبهدوءٍ تامٍّ، وضعتُ مقعداً قرب كرسيّ أبي المتحرّك وصرتُ أسكب هذياني دون أن أشعر بتعبٍ أو شَتات.. حدّثتُه عن العودة وهواجسها.. عن حالنا التي صرنا إليها، والمخاوف التي باتت تدق ناقوسها مُنذرةً بالأسوأ.. أخبرتُه عن عائلاتٍ سلكَت طريق الرجوع، وأخرى ما زالت تُعافر في الاغتراب.. وسألتُه أن يُعينَني على اختيار الصواب!

سكوتٌ طويلٌ امتدّ بين كلامي وانفعالاته، حتى أنّني خِفتُ من غيابٍ جديدٍ له يحمله بعيداً قبل أن يعطيني إشارةً أو يرسمَ أمامي طريقاً.. رحتُ أتوسّل له وأسأله الاستمرار في نُصحي، وأن لا يترُكني لحيرةٍ تستمرّ في نَبش كلّ ما بداخلي من صفاءٍ وتنثره في مهبّ الهواجس..

وقبل أن أخسر أملاً، سمعتُه يردّد بنبرةٍ خافتة: «ليتنا نعود يا تَرَف.. اسألي الحَجّي، وسيدلّكِ حتماً على من يرشدكِ إلى الصواب».

قال كلماته المقتضبة، ثمّ أفَلَ إلى صمته كشهابٍ التمع على حين بَغتةٍ، قبل أن يتلاشى نورُه في فضاءٍ رحب.

أخيراً.. ها هي الطريق وقد ارتسَمَت بوضوحٍ أمام حيرتي.. إن حسَمتُ أمر العودة، فسيكون القرار مُكلّلاً برِضا والدي.. وحتى والدتي، رغم هروبها إلى الصمت، أعرف أنّها ستسعى إليها سَعيَها للحياة..

عزمتُ أن لا أقع في فخّ التأجيل، وأنطلق سريعاً لملاقاة الحَجّي، فربّما لم يعد أمام انتظارنا وقتٌ لقطف بذور الحياة وغرسها حيثما نشاء. قد أبدو متفائلةً بفكرة العودة وأبني حولها قصوراً من مَرمر، لكنّ المسألة بالنسبة لي تتجاوز فكرة التفاؤل إلى قناعةٍ حقيقيّةٍ بمقولةٍ لطالما ردّدتها أمّي أمامي: «قف على ناصية الحلم، وقاتِل».. نعم، إنّ تحقيق الأحلام ليس بالأمر اليسير، وعلينا أن نَجهدَ في سبيلها قدر المستطاع..

سريعاً، وبدون تسويف، خرجتُ مهرولةً إلى الحَجّي الذي تراءى لي من البعيد منشغلاً وسط حشدٍ من الرجال. لا أستطيع أن أقتحم محيط «الكشك» طالما أنّ العجوز يعمل، وإلّا سمعتُ منه ما لا يسرّ خاطري. صرت أدرك خارطة الطريق إلى عقله، وأعرف التوقيت المناسب لسؤاله عن أمرٍ أو حتى ممازحته.. فهمت بعد انقضاء سنوات، مقدار قدسيّة زمن العمل بالنسبة إليه. ومهما كنتُ قريبةً من روحه، عليّ أن أحترم عقلَه وتفكيرَه، وأن لا أتخطّى قواعد السلوك التي رسمها، مطلقاً.

صرتُ أروح وأجيء في بستان الليمون القريب من الكشك، والحَجّي يَرقبني من البعيد ويُشيح بوجهه عنّي في محاولةٍ لافتعال عدم الاهتمام. لكنّ

نظرتـه تجلَّـت حـادّة وتطـرح ألـف اسـتفهامٍ حـول زيـارتي المباغتـة في هـذا التوقيت.

في انتظـاري، جثـوتُ علـى حجـرٍ كبيـرٍ، ورحـتُ أُحصـي عـدد النمـل المتسرب من فجوةٍ داخل التراب.

وعلى حين شرودٍ، أقبل الماضي متأنّقـاً ومتألّقـاً كـوَمضٍ في عتمة ليلٍ ساكن.. رأيتُني طفلةً تجلس على حجرٍ وسط بستان ليمونٍ كبير، وتسعى لقتل ملل الترقّب عبر إحصاء الحشرات والحصى وحتى حبّات التراب المتراكمة ككرات صغيرة.. في انتظار ولادةٍ مستعصيةٍ داخل كهفٍ رَطبٍ شديد السواد.

يا لها من سنوات غائرةٍ في العمق، كنت وقتها ما زلتُ أحلم بالأرض الجديدة وحكاياها الأسطوريّة.. وما طرق بالي آنذاك أنّها مجرّد خرافة لم تُحكَ لأحدٍ إلّا وأصيب بلعنة اللّجوء.

نصف ساعةٍ تسلّلَت من الزمن وأنا مستقرّةٌ مكاني أتطلّع إلى الحشود التي راحت تتوافد إلى الكشك وكأنّها على موعدٍ مسبقٍ مع حيرتي.. وقبل أن يبلغ الضجر مُنتهاه، لمحتُ الحَجّي يحرّك رأسه في إشارةٍ لي للاقتراب. وأخيراً، صار المكان فارغـاً من أيّ حضورٍ إلّا منا – أنا والحَجّي – الذي استعجل القعود على كرسيّه، موجّهـاً نظراته نحوي في دعوةٍ صريحةٍ لي للبَوح..

بدا شديد الحماس وأنا أُغدقُ عليه كلماتي.. التمعَت عيناه لأكثر من مرّة، وتبدّلَت ملامحُه لتحملَ نوراً ما لمحتُه بين تجاعيده من قَبل.

دخل الحَجّي حالة ترقّبٍ لعباراتي، وكلّما ردَّدتُ كلمة «عَودة»، ارتسمت البهجة بين عينيه كطفلٍ يضمّ لعبهُ بين يديه.

لم أصدّق أنّ من أحادثه هو العجوز صاحب الكشك. صمتُه الطويل، ابتساماتُه المتكرّرة، ووهجُ ملامحه.. كلّ ذلك دفعني لارتداء ثوب الثقة وحسم قرار العودة التي باتت دربًا للخَلاص من عتمةٍ أبديّة.

***

أخبرني الحَجّي عن سائق سيّارة أُجرةٍ يقطن في طرف المخيّم الشرقيّ ويُدعى العم حسن. قال إنّه يعمل على خطّ الحدود، وكثيراً ما يذهب خلفها ويعود في يومٍ واحد. ودائماً عند عودته، يَعبر إلى الكشك ليروي حكايا الوطن والغربة وما بينهما من شَتات. ثمّ نصحني بعدم المماطلة، ودعاني للإسراع إلى ملاقاته وطرح مشروع العودة عليه، فربّما امتلك معطياتٍ لا يستطيع أحدٌ غيرُه أن يفيدنا بها. ومن يدري، فقد يجري الاتّفاق معه ليصير قائد مسيرتنا نحو درب الرّجوع!

وبعودٍ مُتيبّسٍ التقطَه عن الأرض، أخذ الحَجّي يرسم فوق التراب خارطةً توضّح لي منزل العم حسن وسبيل الوصول إليه، دون أن أضيع بين متاهات البيوت وزواريبها.

غادرتُ الكشك وقلبي جمرةٌ ملتهبةٌ، تتكسّر بين تلابيبه نبضاتي. وقبل أن يغيب ظلّي، سمعتُ صوت الحَجّي يصدح من البعيد حاملاً بين تردّداته فرحًا افتَقَده منذ أن بَتَر جذورَه قَسراً، لينغرس في تربةٍ ضحلةٍ جدباء.

وبلهفةٍ ولوعةٍ، صرخ: «إذا حسمتُم أمر عودتكم يا تَرَف، إيّاكِ أن تغادري وتتركي الحَجّي.. خذوني معكم، واتركوني خلف الحدود.. هناك ستُدفئني التربة ويظلّلني الغمام.. لا تنسي يا تَرَف أن العجوز لا يريد أن يموت لاجئًا.. أن أُذبَح فوق أرضي، أشرف لي من أن أقضي نحبي هاربًا، مبَعثَر الرّوح، وفاقد الانتماء».

كم أوجعني نداؤه! لم أكن أعلم مقدار الرَّماد المتراكم في أعماقه، وظننتُه بفعل الزمن اعتاد رتابةَ حياته التي زُجَّ فيها، وما عاد الماضي يرتسم في مخيّلته

إلّا كأطياف عابرة. من يرى مشاكساته للعابرين من أمام الكشك، والمشاكل التي يحاول افتعالَها مع كلّ من يسعى لتحدّي حضورِه وإغفالِ تعليماته، لا يمكن أن يشْتَمّ رائحةَ الهزيمة التي تفَشَّت في بدنه وسكَنَت نَبضَه وتكدّسَت لتغدو عصيّةً على الاندثار.

شعرتُ بأنفاسي تضيق حزنًا على هذا العجوز، لكنّني أبَيتُ أن أستسلم لهذيان الألم، في الوقت الذي يتراءى ملائمًا لأنفض عنّي غبارَ الأسى وألبس وشاح التفاؤل، ولو لسويعاتٍ نادرة.

سعَيتُ أن أتناسى صوتًا سمعتُه وكلمات أوجعتني، وسِرتُ في الطريق التي رسمها أمامي الحَجّي. حاوَلت قدر استطاعتي أن ألملم أفكاري وأستحضر عباراتي التي سأقابل بها العم حسن، لكنّ تشويشًا غريبًا تملّك من رأسي لدرجة ظننتُني سأصاب بفقدان ذاكرةٍ حتميّ. أعرف أنّ القلق ضرب أصقاعي، وأنّ التوتّر الذي ينبض داخلي يحجب عنّي كل حروف الأبجديّة التي أحتاجها. ولكن التركيز ضروريّ، لأتمكّن من استثمار لقاءٍ قد يتراءى حاسمًا.

أسرعتُ الخُطى في طريقٍ ترابيةٍ ضيّقةٍ، ممتدّةٍ خلف بيوت الصفيح، كما أوعز إليّ «الحجي». بالرغم من عَجلَتي، وقفتُ قليلاً لأَرقب المخيّم من زاويةٍ مختلفةٍ عن تلك التي اعتدتُ أن أراه منها. بدَت البيوت متراكمةً في بشاعةٍ تامّةٍ، وازدادَت قُبحًا في واجهتها الخلفيّة المترامية أمام نظري، والمُهمَلة بشكلٍ مقزّز.. مئاتٌ من قطع النايلون متباينة الألوان وملصَقة بشكلٍ عشوائيٍّ فوق الصفيح لتسدّ ثغراتٍ فيه، كراكيب تمّ جمعها من كلّ

مكان لتحتلّ حَيّزاً خلف كلّ بيتٍ عساها تنفع في شيءٍ يومـاً ما، وروائح تثير الغثيان لأوساخ فضلاتٍ بشريّةٍ مكوّمةٍ بفعل الوقت وتعود حتماً لأولادٍ قرروا إتمام فَعلتهم بسرعة ليتمكنوا من إكمال اللّعب دون أيّ تأخير.. وفوق كلّ ذلك تلك الأعداد الكبيرة من قوارير الغاز القديمة شبه الفارغة، والتي سمعت أبي سابقاً يتحدّث عنها ويقول أنّ جميع أهل المخيّم يقومون بجَمعها من هنا وهناك ويكدّسونَها بهدف بيعها والتكسُّب منها.. كلّ ذلك دفعني لأشرد في كميّة الإهمال ومقدار الشّظف الذي بِتنا نتعايش معه، دون أن يُشكّل هاجساً أو يولّد تذمّراً لدينا من فرط التعوّد.

كم أنّ الإذعان للضعف دميمٌ، والأقبحُ من ذلك تبدّلُ القناعات ليُصبح حرماننا من أبسط مؤشّرات الإنسانيّة مقبولاً عندنا، تحت ذريعة اللّجوء. فكأنّ اللّاجئين عند تخطّيهم الحدود، تتبدّل جيناتُهم ليرتدوا بدلاً منها سِماتٍ حيوانيّة تجيز التعاطي معهم بدونيّة. علماً، أنّ حيوانات كثيرة تعيش برفاهيّةٍ تفوق حياة أبناء أرقى العائلات!

عندما اجتَزتُ ساقية الماء الصغيرة التي أشار لها الحَجّي، لمحتُ بين أشجار الليمون كوخَ القصب الذي يعيش فيه العم حسن في انعزالٍ تامٍّ عن بقيّة بيوت المخيّم. لا أدري لمَ اختار هذا الرجل نبتة القصب في بناء كوخه، ولم يَسعَ لاعتماد الصفيح أداةً لذلك! سأحاول أن أسأله عن الموضوع، لكنّ بالي الآن شاردٌ فيما هو أكثر أهميّة، وربّما أستعيد هَدأتي لن أشغل تفكيري سوى بأمرٍ واحد فقط.. العثور على العم حسن!

لا أدري كيف لم أتنبّه مسبقًا لحضور هذا الكوخ! ربّما لصغَر حجمه وتخفّيه بين الأشجار، أو لكونه مستقراً في زاويةٍ من الطرف الشرقيّ للمخيّم والتي نادراً ما أحتاج للعبور فيها.. ولعل أقرب مكانٍ له، هو منزل السيّدة لولية التي أقصدها لغسل الملابس مرّةً كلّ أسبوع، وأكون عندها مشغولةً عن أيّ أمرٍ آخر بإنجاز عملي أو بالإصغاء إلى ثرثرات النساء..

عندما دنوتُ من الكوخ، تراءى بابه مُواربًا.. أعتقد أنّ العم حسن لا يبالي بفَتح أو إغلاق الباب، فالأمر سيّان. ولمَ يفعل والكوخ متهالكٌ وتكاد الريح التي تعصف بين حينٍ وآخر أن ترفعه عن الأرض! ومع كلّ هبوب، يهتز القصب وتحتك قضبانه ببعضها مُصدرَةً حفيفًا أقرب إلى صوت الأفاعي.. لذلك من أراد اقتحام هذا الكوخ لن يعاني أزمةً أو يبذل عناءً، وبضربةٍ صغيرةٍ سيتهاوى وكأنّه لم يكن.

أمام الباب وقفتُ أُصغي بإمعانٍ لعلّ صوتًا يأتيني.. لكنّ الفراغ تجلّى سيّد الموقف! يبدو أنّ المكان شاغرٌ تمامًا، وحماسي الذي حمَلتُه طول الطريق سينتشر رذاذاً، ولن يُبقي لي سوى ذكرى خَفقه.

ولكن.. قبل أن أنغمس في خيبتي، عليّ أن أدخل إلى الكوخ، وأُعاين فيه الغياب.. عندها فقط أقرّر إمّا العودة لاحقًا أو الانتظار ريثما ألتقي ضالّتي. كنت غارقةً في التفكير عندما سمعتُ وَقعَ دعَساتٍ تقترب منّي. وقبل أن ألتفت أتاني صوتٌ ضعيفٌ يتخلّله ارتجافٌ وانقطاعٌ في النبرة والأنفاس.

«ماذا تصنعين هنا يا فتاة؟».

استدَرتُ سريعـًا لأفاجأ بكائنٍ عجوزٍ جداً بأوصاف غريبةٍ، قد لا يحملها أيّ إنسانٍ ما زالت تنبض به الحياة.. إلّا هو!

عجوزٌ طويلٌ جداً.. وربّما كان أطول المخلوقات على الإطلاق. نحيلٌ لدرجة غياب أيّ مكوّنٍ فوق العظام، باستثناء غطاءٍ جلديٍّ شبه شفّاف، ممّا يحمل على الاعتقاد أنّ هيكلاً عظميّـًا قد يتراءى واضحـًا ومكتملاً تحت الثياب. تجاعيد الوجه بارزةٌ ومفزعةٌ، وتكاد من كَثرتها أن تَحجب خلفها الملامح، ممّا يوحي بعمرٍ وارفٍ لهذا الشيخ الذي قد يُقارب التسعين..

أمّا الأكثر غرابةً هو شعره الكثيف، فاقع البياض، والذي يغطّي الرّأس بالكامل ويفيض على جانبيه دون أيّ فراغاتٍ قد تشير إلى احتمال صلعٍ قريب!

وهذه مسألةٌ استدعت ذهولي.. فأبي الذي لم يتجاوز الخمسين، ضرب الصلع جوانبَ من رأسه، فتراجع شعره وقلّت كثافته..

ارتبكتُ في الشعور وتعثّر الكلام في حلقي، فلم أقوَ على الردّ ولو بكلمة.. وقفتُ كالبلهاء أتطلّع تارّةً إلى العجوز وتارّةً أخرى إلى أناملي التي عجزتُ عن إيقاف حركتها من فرط التوتّر. وبإرادةٍ هزيلة، لملمتُ قدر المستطاع ما ضاعَ من هدأتي، وبصوتٍ كاد يغيب حتى عن سمعي أجَبت: «أنا أبحث عن العم حسن.. أخبروني أنّه يسكن هنا».

وبنظرةٍ تفيض شكّـًا، قال: «من هؤلاء الذين أخبروكِ؟ ولمَ قد تحتاجه فتاةٌ بعمرك! يبدو أنّك أتيتِ بهدف السرقة، لقد لمحتكِ تَرقبين الباب الموارب.. أخطأتِ التقدير يا صغيرة، فالعم حسن لا يملك ما قد يسرّكِ».

ثـمّ ضـحك ببلاهـةٍ، وراح يسـعل بشـدّةٍ لدرجـةٍ ظننتُنـي سـأكون الشـاهدةَ الوحيدةَ على نهاية أطول إنسانٍ على الكوكب الأرضيّ. تهيّبتُ كثيراً من هـذا المشهد، وكنتُ على وشك الفرار، عندما هدأ جنون سعاله بعض الشيء، وأردف: «أنا العم حسن، ماذا تريدين؟».

أيُعقل أن يكون هـذا العجوز هـو مقصـدي! رجلٌ يقطـع مسـافاتٍ طويلـة يقود فيها سيارته ذهابـاً وإيابـاً، يجتـاز الحـدود ويتكبّـد معانـاة السـفر يوميّـاً، وهو في كلّ ذلك يحمل سنوات عمره فوق كاهله ويمضي كأنّه شابٌّ يعـاني في سبيل عيشٍ ليس بالكريم!

من هَول المفاجأة، صعَقني الصمت حتى كـادت الأنفـاس تتوقّـف أيضـاً عن الاختلاج.

دهشتي المُفرطة لم تغب بالتأكيد عن العجـوز الـذي ابتسـم بطيبـةٍ متناهيـة هـذه المـرّة، مربّتـاً على كتفـي المتيبّس كسـائر الجسـد.. ثـمّ، وبنـبرةٍ حانيـةٍ مُرتجفة دعاني لتناول كوب شايٍّ بالنّعناع كوسيلةٍ غير مباشرةٍ للاعتذار عن خوفٍ زَجَّه في قلبي عن غير قَصد.

***

كم هو غريبٌ كوخُ القصب هذا! على بَساطته، يبدو ساحراً ومُلهِماً وفائضاً بالحياة رغم سكونه. كمٌّ من التناقضات تتزاحم في مساحةٍ صغيرةٍ، هي كلّ ما يملك العم حسن، أطول عجوزٍ على الأرض..

عندما دخلنا إلى الكوخ، كان في استقبالي بساطٌ أحمر دائريّ مشغولٌ يدويّاً بعنايةٍ.. ذكّرني بالبُسُط التي كانت تصنعها جدّتي، وتملأ بها بيتنا الصعير فوق التلّ البعيد.. وحوله تستقرّ مجموعةٌ من حُصر القشّ البالية والمرصوفة بانتظامٍ ملفت. على اليمين فرنٌ قديم وبجانبه تستقرّ ثلّاجةٌ صغيرةٌ جدّاً بشكلٍ يدعو للاستغراب.. فكيف لها وهي بهذا الحجم الضئيل أن تحوي أطعمةً تكفي لإشباع هذا الكائن الطويل!

ابتسامةٌ عابرةٌ ارتسمَت على ثغري، أكملتُ بعدها مُعاينتي للكوخ.. ثمّة ما يشبه الصندوق الكبير قابعٌ في زاويةٍ على اليسار، ويتجلّى واضحاً أنّه ثنائيّ الاستخدام.. ففيه تركن بالتأكيد كل الحاجيّات التي يستخدمها العجوز، وفوقه مجموعة أغطيةٍ صوفيّةٍ تدل على استعماله كسريرٍ عند الحاجة.

ما أثار استغرابي، أنّ القصب المرصوف يبدو من الداخل أكثر تماسكاً عمّا ظننتُه، ولمهارة صنعه يصعب على المياه أن تتسلّل من أيّ مكانٍ فيه، بعكس سقفنا الذي يستقبل وبرحابةٍ الأمطار ويدعوها للانسراب بوَحشيّة!

أعجبني طعم الشاي بالنعناع، استنشَقتُ فيه عطر القرية بشجرها ونباتاتها وحتى تربتها المبلّلة عند أول انهمارٍ للمطر بعد جفافٍ طويل.. أحبَبتُ هذا الشعور، وتمنّيت أن لا ينفذ ما بالكوب لأنعم بمزيدٍ من رائحة الماضي الجميل.. وفي كلّ ذلك، كان الصمت حاكماً بيننا، فمنذ أن تخطّيت عتبة

الكوخ وحتى لحظة احتسائي للشاي، لم ينبس أيّ منّا بكلمة. لا أدري سببًا لذلك عند العجوز، أمّا بالنسبة لي فرأيتُ في السكوت وسيلةً لمزيدٍ من التمعّن في هذا المكان المُلهم رغم بساطته الشديدة.

شربتُ الشاي حتى آخر رشفةٍ فيه، وكم رغبتُ أن أستزيد منه لكنّني تيقّظتُ فجأةً إلى أنّ حضوري هنا لم يكن لمجرّد التسلية، بل هي زيارةُ مصير.. وقبل أن أشرعَ في الحديث، بادرني لـ عم حسن بابتسامةٍ ممزوجةٍ بالكلمات: «حسنًا يا صغيرة، هاتي ما عندك.. وقبل أيّ شيء عرّفيني بنفسك لو سمحتِ».

من شدّة لطفِ نبرته، سرَت السكينة في قلبي. ووجدتُني أروي ما في جعبتي براحةٍ، تُماثل تلك التي ترتادني برفقة العم عُدَيّ.

تكلّمتُ طويلاً، وأفرغتُ ما في سلّتي من هواجس وأمنيات دون أيّ تحفّظٍ.. ثمّ وقفتُ على ناصية الحيرة، في ترقّبٍ لما سيجود به العجوز من عباراتٍ قد تبعث في القلب الرّجاء..

في انتظاري لإجابة العم حسن، أخذتُ أتأمّل المكان سَعيًا لبَعثرة قلقي المُلتَهب. لا أريد أن أعود بخيبة أملٍ تجعلُني أُمضي ما تبقّى من رتابة أيّامي خاليةً من أيّ نبض.. هناك شعاعٌ توهّج في روحي، ولا أحتمل له الخمود.

فجأةً، ومن قلب السكون، تعالى صوت خربشاتٍ من زاويةٍ ما بالكوخ، ثمّ تلاه مواءٌ خشنٌ وحادّ. وإذا بقطٍّ كبيرٍ يخرج من خلف الصندوق الكبير ويقترب من الحصير حيث أستقرّ مع العجوز. كم يبدو هذا الحيوان هَرِمًا وتعبًا وربّما يائسًا! أصابتني ابتسامةٌ من هذه الفكرة، حاولتُ حجبَها قدر

الإمكان لأحافظ على هيبة الموقف وجديّة الكلام.. راح القطّ يمشي ببطءٍ غريب، ومع كلّ حركةٍ تهتزّ وجنتاه المتدليّتان. دنا من مكاني وتطلّع إلى وجهي بلا مبالاة، ثمّ أكمل طريقه ليستقرّ في حِجر العجوز. لأوّل مرّة أصادف قطّاً كئيباً يكاد الأسى ينال من طاقته للحياة.. وكأنّ العم حسن قرأ ما يدور في بالي، فخرج عن صمته قائلاً: إنّه يُدعى «وَعد».. هو صديقي الوحيد في هذا المخيّم البائس، رغم أنّني أعرف جميع السكان هنا إلّا أنّني لا أصادق أحداً منهم. تعبت من المشاكل والمآسي التي شَهِدتُها خلال سنوات عمري، لذلك بِتُّ أعشق الوَحدة. هذا القطّ يُصغي لكلّ ما أقوله، ولكنّه لا يشتكي مطلقاً.. يؤنس وَحدتي، ولا يسبّب لي أيّ إزعاج بثرثرات وأوجاع.. عثرتُ عليه صغيراً جدّاً منذ سنوات غائرة في البُعد، فحمَلتُه معي، ووَعَدتُه باستمرارنا معاً إلى أن يأذن الله باسترجاع أمانته. لذلك أسمَيتُه «وَعد».

كانت كلّ جوارحي قد تنبّهت ودخلَت في حال استنفار. لا أريد أن أسأله شيئاً، فقط سأستمع إليه، ففي عباراته روحٌ طريّةٌ كتلك التي يحملها العم عُدَيّ وحكمةٌ عميقةٌ كتلك التي تقبع في قلب الحَجّي.

يا الله كم يتشابه العجائز، ويصبحون في لحظةٍ من العمر كأطياف تُهدي السكينة، وترفع بَأس الأفئدة وتعبَها!

وكأن العم حسن كان يصغي لنَبضي وهمس جوارحي، فهزّ برأسه علامة الرضا، واستطرد: «هذا الكوخ يا تَرَف هو عالمي الذي ما إن أَلِج إليه حتى أستكين.. أتناسى مشاهد البؤس وحكايا الحزن والألم، وأعيش في الخيال

حياةً موازية أحبّها.. لديّ في الصندوق كتبٌ كثيرةٌ قرأتُها مراراً وما زلت أحمل حماسًا لقراءتها عشرات المرّات».

سعالٌ شديدٌ اجتاحه على حين غفلةٍ وأجبره على الصمت.. أخذ جسده ينتفض بالكامل، ممّا دفع «وَعد» إلى التململ والابتعاد عنه ليستقرّ كحجَرٍ على البساط الأحمر.

ثوانٍ قليلة استراح فيها العجوز من سعاله، واستكمل بعدها حديثه الطيّب: «دعكِ الآن من أخباري وحكايا قطّي البائس.. اسمعي صغيرتي، كلّنا أتَينا من أرضنا هربًا من شيءٍ ما.. جئنا خوفًا على ضياع مستقبلٍ أو حلمٍ أو حياة. تشبّثنا بأملٍ وسَعَينا لاحتضانه في «الأرض الجديدة»، لكنّنا صُدمنا بوَهمٍ يختال بين أزقّة المخيّمات، يتبختر ويتحدّى ضعفَنا وانكسارَ نفوسنا.. حاوَلنا أن نتعايش مع بؤسنا، لكنّ أرواحنا أبَت.. ما تحمله ذاكرتُنا من قصَصٍ عن الماضي، دفعَنا إلى التمرّد وعدم الإذعان للذلّ..

وعدنا نحلم بالعودة، لكن الفزَع أقعدَنا.. خَشينا من الموت، من الضياع، من فقدان أملٍ لا زال يحثّنا على التشبّث بالحياة.. فعِشنا ترَقّبًا لزمنٍ يصبح فيه الرجوع آمنًا.. وطال الانتظار!

واليوم، بعد سنوات من الشَتات، صار الكلّ على استعدادٍ للعودة، دون تفكيرٍ بأيّ عواقب.. ربّما ما زال الخطر مُحدقًا، لكنّنا هنا لم نكن يومًا في سلام.. أرواحُنا تموت تدريجيًّا مع كلّ حاجةٍ وإهانةٍ وخوفٍ من غدٍ مجهول.

في الماضي، أقليّةٌ من اللّاجئين سلكت طريق الرجوع. أمّا الآن أراني في كلّ يومٍ تقريباً أُقِلّ عائلاتٍ إلى حيث تغفو آمالهم الأخيرة خلف الحدود.. لو تعلمين مقدار السعادة التي أستشعرها كلّما لمحتُ نشوةَ اللّقاء بين لاجئٍ وتراب وطنه.

تنهيدةٌ عميقةٌ انسحبت من صدر العجوز، وكأنّ حِملاً ثقيلاً جثا على قلبه وأعاق أنفاسَه. ثمّ تطلّع نحوي بنظرات حانية وأردف قائلاً: «إذا حسمتُم أمر العودة، سأكون سعيداً بأن أساهم في تحقيق هذا الحلم.. سأُقِلّكم خلف الحدود ولن أتقاضى مقابل ذلك أيّ أجر.. لكنّ طلباً وحيداً أتمنّى أن يلقى قبولاً منكِ صغيرتي.. هاتفيني دائماً فليس لي من يسأل عنّي، وإن أخبرتكِ في مرّةٍ أنّني لستُ بخير، أرسلي من يأخذني إليكم لأُدفَن قريباً منكم وفي تربةٍ ليست غريبةً عنّي.. ستكون نهايةً جميلةً لعجوزٍ وحيدٍ ظلمَته الحياة وربّما ينصفه الموت».

يا لتعبِ قلبكِ الصغير يا تَرَف.. ما كلّ هذا الألم الذي يطوّقكِ من كلّ اتّجاه!

كنتِ تظنّين أنّكِ الأكثر انغماساً في عذاباتٍ لا يماثلها وجع، وإذا بيقينكِ ينهار أمام حكاياتٍ نُسِجَت سطورُها من قَهرٍ، ما ورد لكِ على بال..

يا لبؤس قلبكِ يا تَرَف!

***

عدتُ أدراجي محمّلةً بقلبٍ مَحشوٍّ بالوجع، وبوجهٍ احتارت ملامحُه بين يأسٍ ورجاء..

كلمات العم حسن فتحت أمامي بابًا للأمل كنت أرتجيه، لكنّها في الوقت عينه أوجعَتني في العمق. وقَبلَه أيضًا، كان الحَجّي قد ترك على جدار القلب بصمةَ حزنٍ مرير..

ما بال هؤلاء العجائز مُضَمَّخون بالألم حتى النّخاع! ما بالهم متماثِلون في الشقاء، وكأنّ القدر كتب بين سطورهم بؤسًا لصيقًا بأرواحهم الصافية!

أنا الآن أشعر بحاجةٍ شديدةٍ للعَودة.. ما عادت المسألة مجرّد رغبةٍ تقطن الجوارح وتدغدغ البال.

لا أريد أن أكبر هنا! أرفض أن أصبح صورةً مُستنسَخةً عن الحَجّي والعم حسن و«العم عُدَيّ»، وأمثالهم ممّن ضرب زلزال البؤس أوردتهم، وكَلّلهم اليأس بأمزجةٍ من رماد.

أن أستمرّ في غربتي، يعني أن تغدو ملامحي ذابلةً، تخسر جوارجي نبضَ وجودها، وأفقد نكهة الانتماء حتى للذّات..

إن كانت الحياة بقسوتها قد حجبَت عنّا رغَدَ العيش، فمن حقّي على أقلّ تقديرٍ أن أعيش رفاهيةً في الشعور، فقد سئمتُ القلقَ والأرَقَ والفزعَ ممّا سيكون. أتوق لأن أختبر مشاعرَ عذبة، أتشابه فيها مع الفتيات الأُخريات ممّن تشغلهنّ مسائل قد تبدو تافهة..

نعم.. أرغب أن أكون تافهةً لبعض الوقت!

ما زال أمامي متسّعٌ من الحزن لأتأمّل في مسائل الوجود ونكبات الشعوب واستبداديّة السلطات، وقضايا الحرب والفقر والخضوع.. أودّ أن أتذوّق طعم الفراغ الحقيقيّ.. أن أنعتق من أيّ مسؤوليّة، وأن لا أحمل فوق قلبي نبضاً متوجّساً على أبٍ وأُمٍّ وإخوةٍ.. أو حتى وطن!

كم أشتهي أن أعود لألتئم مع تَرَف التي كُنتُها قبل أن تُغدق الحياة على أيّامي مآسيها، وتدعوني إلى مراقصة الخوف على وَقع النَهَدات!

وصلتُ إلى البيت وبي رغبةٌ عارمةٌ للبكاء.. كان ثمّة أولاد يلعبون أمام الباب، ومن فرط شقاوتهم لم يتنبّهوا لحضوري، واستمرّوا في التدافع حتى وجدتُني مركونةً كحجرٍ فوق الأرض الترابيّة المبلّلة بالمطر. كلّ ذلك تراءى لي هامشيّاً ولم يحرّك فيَّ ساكناً، فوقفتُ أنفض عن ثيابي وحول الطريق، لكنّ روحي ظلّت على حالها مغلّفةً بشوائب التصقَت بنبضها وتجذّرَت منذ سنوات حتى باتت غير قابلةٍ للاستئصال..

في القاعة الكبيرة لمحتُ أمّي كعادتها مصلوبةً فوق كرسيّها تَخيط بصمتٍ يصُمُّ الوجدان. في هذه المرّة لم يَعبُرني شعورٌ بالشفقة عليها أو التعاطف مع شقائها، لأنّني كنتُ فائضةً بمشاعر احتياجٍ ملأت كل الفراغات. وما إن التقَت نظراتُنا حتى عثرتُ على نفسي أشهق بكاءً في حُضنها الدافئ، رغم صقيعٍ طغا وانسرب ليَدُكَّ عظامَها، ويترك بصماته الزرقاء فوق جلدها المتشقّق.

ولأوّل مرّةٍ، منذ ذلك اليوم الذي صعقَتها فيه الخيبة وضرب الصمتُ أصقاعَها، أشعر بحنانٍ دافقٍ يتسلّل من بين أناملها المغروسة في شعري..

وبنبرَةٍ رقيقةٍ كانت لها منذ عقدٍ من التعب، قالت: «أما زالت العودة تدق ناقوسَها في بالكِ صغيرتي؟».

انتشَلتُ رأسي من بين يدَيها، وتطلّعتُ بانهزامٍ إلى عينَيها. ودون أن أجيب بأيّ حرفٍ، استكملَت: «سنعود إلى أرضنا يا تَرَف، وستلتقين ظِلَّكِ من جديد.. سنُصغي مجدّداً لهمس خَفقنا يتردّد في الوادي البعيد.. سنرجع إلى التلّ، ونجلس سويّاً نَرقب البادية ونستمع لأهازيج البّدو في اللّيالي القمريّة».

عبَراتٌ دافئةٌ دغدغَت وجنتَيّ وأنا أُصغي لعباراتها النَّديّة، في الوقت الذي كان الخيال قد تملَّك منّي وحمَلَني لأعيش بين سطور كلماتها، وأهنَأَ بمشاهد القرية التي غيّبَتها عنّا المآسي، حتى كادت عيوننا تَألَف بؤسَ حياة اللّجوء وقذارتها.

قليلٌ من السكون، استعادت بعده أمّي كلامَها الطيّب، ثمّ أردفَت:

«أعتذر منكِ صغيرتي عن التعب الذي ارتداكِ كظلكّ، وأبى طوال سنوات إلّا أن يترك بصماته فوق ملامحك.. أعتذر عن الظروف التي ساقَتنا خلفها وأرغَمَتنا على خشونة المشاعر تجاهك».

كانت أمّي تتكلّم بينما نبضُها يضجّ بشراسةٍ، حتى أنّني رأيتُ وقعَه يختلج بين نظراتها وفي عروق رقبتها التي اشتدّ نفورُها حتى كادت تتصدّع.. احتضَنتُها بشدّةٍ وتغلغَلتُ بين الأقمشة المتكدّسة في حِجرِها.

«سنمضي قريباً عزيزتي مخلّفين وراءنا كل الجراحات والعذابات والانكسارات، وسيسكننا السلام من جديد.. نعم صغيرتي، لم يبقَ لنا شيءٌ نتشبّث به هنا، لأنّنا لم نملك شيئاً على الإطلاق، ولا حتى شعوراً

بالانتماء.. لم أصدّق يوماً خرافةَ «الأرض الجديدة»، وحاربتُ من أجل الحقيقة، ولكنّ أحداً لم يُصغِ إلَيّ».

تنهيدةٌ عميقةٌ تسلّلت من سحيق روحها، قبل أن تُكمل: «فات أوان الكلام الآن.. يكفينا توهاناً وترقّباً للفراغ، ويكفيها هذه الأرض ما احتمَلَته، مشكورةً، من أعباء ربّما تفوق قدراتها على العطاء.. حان موعد عودتنا يا تَرَف.. اقترب الرجوع حبيبتي».

وبيدها المرتعشة مسحَت شعري المنسدل، ثمّ دفعَتني برِفقٍ لتستكمل عملها في خياطة أحلامنا التي هاجر معظمها دون رجعة.

إذاً، بانضمام أمّي إلى قافلة المؤيّدين، اكتمل عقد الياسمين وصار جاهزاً لنرتديه كلّنا، ويَزين مشاعرنا وخطواتنا في درب الإياب. لم يعُد أمامنا أيّ عائق قد يمنعنا عن لملمة ما تبعثر من أرواحنا المهزومة أمام عتبة اللّجوء.

لا أعلم فعلاً إن كان ما نسمّيه «حلم العودة» يستحق هذه المكابدة وعناء السَعي، فربّما تنتظرنا الأوهام خلف الحدود، ولن ننال هناك سوى مزيدٍ من التعب والخوف. ولكن.. ما نحن فيه قد استنفذَ كامل خيباتنا، ولم يتبقَّ لنا من الخذلان شيء!

عادت أمّي للانغماس في إبرتها وخيطانها بين قطع الأقمشة المتكدّسة حولها، بينما وقفتُ أنا أتأمّل المكان الذي أطبَقَ على أحلامنا عَقداً من الزمن، وكنّا نظنّ أنّ إقامَتنا فيه لن تطول.. يا لطاقة صبرنا العظيمة! ويا لقلوبٍ شديدةٍ نحملها بين الضلوع!

عندما أستعيد تفاصيل عذاباتٍ عشتُها وأعباء رفَعتُها دون أن أُذعن للضعف، أشعر بفخرٍ كبيرٍ وباعتزازٍ بصَلابتي وقدرتي على التحدّي..

عندما نعود!

سيكون لديّ جعبةٌ من الحكايا أرويها لزميلاتي في مدرستي الجديدة، وكمٌّ من المواقف البطوليّة التي ستُبهَت أمامها الفتيات. وربّما، سأغدو بشهرةٍ كبيرة.. سأختار في دراستي الفرع الأدبي، فأنا أحبّ القراءة كثيراً، وكان لي مكتبةٌ صغيرةٌ في بيتنا البعيد.. وربّما سأغدو كاتبة، ولمَ لا!

سأحكي للناس عن تجربتي في اللّجوء.. عن وهمٍ يُدعى «الظلّ البديل».. عن انتظارات كثيرة تنتهي كلّها بخذلانٍ للأمنيات.. وسأروي قصصاً عن شخصيات صادَفتُها بعضُها شفيف الروح، وبعضها فَظٌّ لدرجة الاشمئزاز.

والأهم من كلّ ذلك، لا بدّ وأن يكون لأمّي نصيبٌ وافرٌ من الرّاحة.. لن نتركها تغرق في وحول الزّريبة، فهي لم تعُد كالسابق نضِرةَ البَدَن ومتوهّجة الروح.. سنشتري ماكينة خياطةٍ حديثة، ونخصّص لها مكاناً مريحاً تستقبل فيه النساء اللّواتي يُرِدن اقتناء فستان من غَزلها، وربّما نستقدم فتيات لمساعدتها في العمل بينما تتولّى هي الإشراف عليهنّ.

أمّا عن أبي المسكين، فسيكون حتماً مرتاحاً أكثر عندما يُمضي نهاره في الحقل بين المزروعات والخُضرة، بدل تصلّبه طول النّهار أمام باب الكوخ يَرقب القاذورات والمياه العفنة المتراكمة، ويستمع لشتائم الأولاد وهم يلعبون أو يتشاجرون.

وبالنسبة للصغار عابِر وبَيدَر والعَنود، فسيختبرون حياةً جديدةً لم يتذوّقوا طعمها ولا استنشقوا ضَوعها من قَبل. سيفرحون بالبيت والأرض، وستكون أمنياتهم الصغيرة طَوع أيديهم دون أن أضطر للتخلّي أو التنازل أو تقديم أحلامي قرباناً على مذبح الخلاص.

كم هي جميلةٌ تلك الصور التي تتبختر في البال.. وحتى ترتسم في واقعي، سأعمل بدَأَبٍ لإنجاز عودةٍ سريعةٍ، ألتهم فيها الوقت دون أن أدَعَ أيّ لحظةٍ تُفلتُ من أمام لهفتي وعنادي.

***

أوصلتُ الصغيرَين عابِر وبَيدَر باكراً جدّاً إلى المدرسة، وعدتُ أدراجي سريعاً إلى المخيّم رغم شوقي الكبير للبحث عن العم عُدَيّ وإفراغ ما في سلّتي من أخبار دَسمة سيسعد بها بالتأكيد.. لكنّني على عجلةٍ من أمري، فقط طلب منّا العم حسن أن نُنهي كافّة التجهيزات والاستعدادات ونلملم أمتعتنا الضروريّة ليقوم مساءً بتوضيبها في سيارة الأُجرة، فنبقى في جهوزيّةٍ تامّة، ريثما تحين ساعة الصفر.

سأُنهي ما عليّ القيام به، وسآتي حتماً لألتقي العجوز.. لا أستطيع أن أمضي دون أن أقوم بتوديعه. لا بدّ وأن أحصل منه على وسيلة تمكّننا من التواصل، فأنا أحتاج حضورَه وحكمتَه في أيّامي.

على ما يبدو أن ارتحالَنا قريبٌ جدّاً وربّما خلال أسبوع على الأكثر، لكنّ العم حسن غير قادرٍ على تحديد التوقيت بدقّة، فالأمر يتعلّق بالحدود وما يُتّخذ هناك من إجراءات.. وما علينا، كما قال، سوى اقتناص الوقت الملائم لإنجاز عبورٍ آمن.

بالرغم من الارتياب الذي غزا قلبي بعد كلامه، إلّا أنّني تجاهلتُ يومَها ما عبَرَني من ضِيقٍ، وحزمتُ قراري على أن لا أُعير بالاً إلّا لفرحٍ نادرٍ أعيش تفاصيلَه بترَقّبٍ وحذَر.

في البيت وقفتُ في حيرةٍ من أمري.. المكان مليءٌ بالكراكيب، ولا أعرف كيف سأنتقي من بينها ما هو ضروريّ. ما تستطيع سيارة العم حسن حملَه محدود، وعليّ أن أحرص على جَمع الأغراض التي تتراءى مهمّةً أكثر من غيرها.. المشكلة الأساسيّة تكمن في أنّنا لا نعلم شيئاً عن مصير بيتنا فوق

التلّ البعيد.. ربّما ما زال قائماً ومحتفظاً بكامل هيبته، ومُقفَلاً على خَباياه، وعندها لن نحتاج شيئاً من هنا.. وربّما يكون قد تلاشى بما يحتويه خلال سنوات شَتاتنا وضربَه الخراب أو أصابَته الحرب بالدّمار. عندها سيلزمنا الكثير لنتمكّن من تدبير أمورنا ريثما تنتظم الأحوال.

لا أستطيع أن أطلب معونةً من أمّي، فهي كثيرة الانشغال هذه الأيّام وغارقةٌ في إنجاز ما عليها سريعاً. وأحياناً تصل نهارَها باللّيل حتى تقوم بتسليم النساء ما وعدتهنّ به قبل الرحيل..

إذاً، عليّ الاعتماد على الذّات، كما سبق وفعلتُ مرّاتٍ عديدة. سأجمع في الأكياس ما أرتأيه مناسباً وسهلاً في التنقّل، ولن أندم على شيءٍ مطلقاً، فليس لدينا ما يصلح ليكونَ موضعَ تحسّر.

أودَعتُ العَنود عند جارتنا، وأمضيتُ ساعات ما قبل الظهر وأنا ألملم الأغراض من هنا وهناك، أجمعها في زاوية البيت، وأنتقي من بينها ما أريد أن أحفظه في الأكياس. وفي كلّ ذلك كان أبي متيقّظاً ويقوم بمراقبة تحرّكاتي بحماسٍ ينضح من عينيه. لم يرتاده النوم مطلقاً، رغم أنّ من عادته الاستمرار في إغفاءةٍ تتبعها أُخرى دون أن يبتُر رتابةَ نعاسه أيّ حدثٍ مفاجئ!

أشعر به سعيداً جداً، رغم أنّه لم يحدّثني ولا أبدى أيّ استعدادٍ للتواصل معي. ومن منّا لم تزلزل السعادة كيانَه، وتسبّب له اضطراباً وحيرةً! حتى الصغار، أبدوا ردّة فعلٍ تتجاوز قدرتهم على استيعاب الموضوع، والشعور بأهميّة ما يحدث لعائلتنا من التئامٍ مع الجذور. هتفوا كثيراً، تضاحكوا، وراحوا يتراقصون وكأنّنا في احتفالٍ مهيبٍ!

جمعتُ ما استطَعتُ من الحاجيّات، وضّبتُها في أكياس، وركَنتُها قرب الباب لتبقى متحفّزةً كقلبي الصغير.

ما أشعر به الآن يوازي لهفةً سبقَ واجتاحت عواطفي في أيّامٍ غائرةٍ في النسيان، عندما عبَرنا طريقًا معاكسًا قطعنا فيه الحدود إلى «الأرض الجديدة».. يومَها كنت في ذروة الشغف، في انتظار أن تفتح الحياة أمامي أبوابًا باذخة العطاء، فأَنعَمَ وأَسعَدَ وأُغدقَ على من أُحبّ الكثير من الفرح وتحقيقًا للأمنيات.. وكم كنت ساذجة!

الآن بات كلّ شيءٍ جاهزاً، ولم يتبقَّ سوى قليلٍ من الصبر وكثيرٍ من التوتّر والترقُّب والوساوس المتراقصة في ذهنٍ مُنهَك.. ولأنّني شديدة التعب، قرّرتُ تأجيل زيارة «العم عُدَيّ» ليومٍ آخر، وسأكتفي بهُدنةٍ نفسيّةٍ أختلي بها مع الذات في محاولةٍ لإعادة ترتيب داخلي بعد الفوضى التي ضربت أصقاعي منذ أن دغدغني حلم العَودة.

بعد رجوع الصغار إلى البيت، خرجتُ أتمشّى في طرقات المخيّم المبلّلة مطراً وعَبَرات كثيرة جداً بعدد قاطنيه. ربّما هي المرّة الأخيرة التي أعانق فيها مشاهد بيوت الصفيح الكئيبة، والنفايات المتراكمة على جوانبها في انتظامٍ مُبهر، أتعثّر بصِبية مشاكسين أشتمهم ويهزأون من عصبيّتي، وأدوس بقدَميّ على الطريق اللّزجة فتمتزج الوحول بنعلي وأرسم بخطواتي لوحات انهزامٍ، تمحوها خطواتٌ جديدة تخطّ في تنقّلها هزائم أخرى.

اعترَتني غصّةٌ عجزتُ معها عن التقاط أنفاسي، وراح صدري يختلج بقوّةٍ.. جثوتُ على حجرٍ كبيرٍ مستقرٍّ على حافّة الطريق في محاولةٍ لاستعادة جَأشي.

ما بال قلبي قد تآكل حسرةً، وكأنّني على أبواب فراقٍ يستحق عناء التعب!

لا أدري من أين اجتاحني هذا الحنين لمكانٍ سكَنتُه قَسراً، ولم ينجح في استقطاب نبضي على مدى سنوات!

ما أدركه الآن، أنّ بؤسَ المكان وقباحَة الحياة فيه، لم يُحبِطا شهقةَ وجعٍ ارتادَت قلبي لحظةَ حزنٍ صادق. لم أَحسَب أنّ شجناً سيعبُرُني حسرةً على حيّزٍ مكانيّ اعتقلَ أحلامي، وصفَعَني بخيبات متلاحقة!

حاوَلتُ أن أخلع عنّي خمار الحزن، لكنّ عمراً قضيتُه أتسكّع، أبكي، أتشاجر، وأضحك في أزقّة المخيّم، جعلني أغرق في مزيدٍ من الأسى..

كان البرد قد اشتدت سيطرتُه، فتغلغلتُ في شاليَ الصوفي وتقوقعتُ على بعضي لعلّ دفئاً يَعبر أوردتي فأستكين. لكن قشعريرتي لم تهدأ، وصقيعُ جسدي امتدّ ليستوطن الروح. صرتُ أرتجف، بينما أفكاري أخذت تصطك وترتعد وتتدافع دون أن تُدرك مُستَقَرّاً لها.

مشوّشة الذهن، وقفتُ في محاولةٍ لنَفضِ غبار التعب عنّي، وبدأتُ سيراً سريعاً قطعتُ فيه الأزقّة الضيّقة حتى وصلتُ حدود المخيّم الفاصلة بينه وبين الطريق العام.. وباستسلامٍ تام، رحتُ أرقب السيارات العابِرة. ولأوّل مرّةٍ أشعر وكأنّ لها أرواحاً وغيرَ مُجرّدةٍ من النّبض!

كلّ واحدةٍ منها تضمّ عالماً متفرّداً، قد يحمل أمنيات أو حسرات أو عبرات. ثمّة أشخاص بداخلها مختلفون في الانتماء.. بعضهم ينتسب للسعادة، وبعضُهم ينضوي تحت شعار البؤس.. آخرون يرفعون لواء الأمل، وكُثُرٌ نَحَتَ التشاؤم ملامحَهم.. أفرادٌ عشقوا الحريّة، وعبيدٌ استهواهم الخضوع.

وهكذا نحن في المخيّم.. مختلفون رغم تشابه المأساة!

ثمّة تمايز كبير بيننا لمَستُه مؤخّراً، بعد أن طُرِحَت إمكانيّة العودة كمصيرٍ تناحَرَ حوله الأهالي وتخاصموا.. بعض اللّاجئين بَرَقَت قلوبُهم، توّهجَت، وارتدَت فستان زفافٍ أبيض من مجرّد خيالات راوَدَتهم عن إمكانيّة رجوعٍ مُحتَمل.. وآخرون اسودَّت أحلامُهم وتجهّمَت لِحاظهم، ذلك أنّهم اعتادوا الخنوع وأدمنوا حياةً تنبض بالاتّكاء على الآخرين وطلب العَون من هنا وهناك. فضّلوا المَهانَةَ وشظَف العَيش على حياةِ بَذلٍ وتَعَبٍ ترتدي وشاح العِزّة والوَقار.. لو أنّ هؤلاء برّروا امتعاضَهم بضبابيّة مصيرٍ ينتظرهم، لتآزرَت أفئدتُنا معهم ونَسَجنا لهم أعذاراً تَحفَظ لهم مكانةً في القلب.. لكنّهم لم يفعلوا، وأصرّوا على الانغماس في مزيدٍ من قُبح المشاعر، وخسروا فرحةً لا توازيها أيّ سعادةٍ أخرى.. مساكين..

في الواقع، كلّنا مساكين.. كلّنا مستضعضفون!

***

ريحٌ باردةٌ لفحت وجهي على حين غفلة، وأعطتني إنذاراً بعاصفةٍ على وشك الهبوب. التَحَفتُ جيداً بالشال، وشرَعتُ في عَودةٍ سريعةٍ أبلغ فيها البيت قبل انهمارٍ حتميٍّ للمطر. رحت أعدو في الأزقّة، بينما الوحول تتطاير من تحت قدميّ لتنال من ملابسي وحتى وجهي مرّات.. الصخب الذي رافق خروجي من البيت تلاشى كأنّه ما كان، فالكلّ انزوى في رُكنه في محاولةٍ لإبعاد شبح الصقيع وإن بوسائل شبه بدائيّة، في زمنٍ بلغَت فيه التكنولوجيا درجةً مثيرةً للشفقة علينا.. ولكن، لا بأس طالما أن هناك سقفاً يجمع تحته قلوباً باردةً تُنشد دفئها من محبّةٍ واحتواء!

لم أتمكّن من مُغالبة المطر الذي بدأ يتساقط فوق رأسي، يتغلغل في شعري، وينسرب بين الأهداب. اجتهدتُ في سيري سعياً لبلوغ مَقصدي دون أن أُعير اهتماماً لأيّ تفصيلٍ حولي.

أخيراً تراءى أمامي البيت كئيباً بل مُريباً، ويشبه في التواءات الصفيح المتكدّسة على شكل سقفٍ، عجوزاً مُحدَودَبةً فقدت كل معالم الجمال، وجاءت الحدبة لتُضفي على تكوينها دَمامةً مؤذيةً للنظر. دخَلتُ من الباب على عَجَلٍ لأُفاجَأ بالأكياس المرصوفة قرب بعضها وكأنّها في استقبال مُهيب.

لماذا لم يحضر العم حسن حتى الآن لتوضيب الأغراض في سيارته، وهو من طلب منّا الاستعجال وعدم التلكّؤ في إعدادها؟!

ربّما انشغل بمسائل أخرى منعَت حضورَه. أو ربّما هي العاصفة من أعاقَت حركته وقيّدَت حريّة تنقّله..! لكن الوقت ما زال مبكّراً، واحتمالُ مجيئه ما زال قائماً بالتأكيد.. أغطيةٌ صوفيّةٌ كثيرةٌ تراءَت لي مكوّمةً وسط

القاعة بطريقةٍ عشوائيّة، تقدّمتُ لألمح رؤوساً مُشرئبةً من تحتها لجميع أفراد العائلة. مشهدٌ ساخرٌ يبعث على الضحك كما البكاء، ويوحي بقَدر المعاناة التي اعتدنا على ممارستها وصارت جزءاً مألوفاً من يوميّاتنا الرتيبة.

المنزل باردٌ فعلاً، وتكاد درجة الحرارة فيه تماثل الخارج بل حتّى تتجاوزها بمراحل. في ظلّ ذلك، تبدو الاستعانة بالأغطية غير كافية بالتأكيد لتدفئة أجسادٍ صغيرةٍ وأخرى متعَبة من مرضٍ أو عمل.

ما أثار استغرابي فعلاً هو منظر أمّي الساكنة تحت الغطاء، والتي لم أَعتَد مطلقاً رؤيتَها إلّا جالسةً أمام ماكينة الخياطة تعمل دون كلَل.. يبدو أنّها انتهت أخيراً من أعمالها المتراكمة، وإلّا لما لمَحتُها حتماً في وضعيّة الاسترخاء تلك.

في الخارج صار الطقس مخيفاً، فقد اشتدت العاصفة، وأخذ الهواء يصفر بقوّةٍ ويتلاعب بالأسقف المعدنيّة لبيوت المخيّم مُسبّباً صخباً شديداً.. وشيئاً فشيئاً راحت المياه تتسلّل إلى داخل البيت من شروخٍ ارتسمت في أكثر من مكان. مشهدٌ اعتدتُ عليه، حتى بات لا يحرّك بداخلي أيّ امتعاضٍ وضِيق. أسرعت لإحضار الأوعية المخصّصة لاحتواء ما يتسرب من أمطار شتويّة، وقمتُ بتوزيعها بطريقةٍ فنيّةٍ محتَرفة، تَحول دون تعرّض ما نسميّه بأثاثٍ للبيت لأيّ بللٍ أو إتلاف.

تُرى هل سأذكر هذه التفاصيل الحزينة عندما نصبح آمنين منَعَّمين في بيتنا وأرضنا! أم أنّني سأَجهَد لأمحو عن بالي كل شائبةٍ شوَّهَت زاويةً ما بداخلي!

وضعتُ جانبًا شاليَ الصوفيّ المُبتل. وبخطواتٍ بطيئةٍ تُعيقُها ارتعاشةُ بَردٍ وارتجافٌ في البدن بدأتُ بإعداد إبريقٍ من الشاي، ربّما يساهم في إدخال الدّفء إلى قلوبنا وبعضٍ من طراوةٍ تُعينُنا في مواجهة ليلةٍ مُحتَدمة الصقيع.

وفوق فَرشتي المنبسطة على الأرض، جلستُ أرتشف فنجاني، بينما جسدي غائرٌ تحت أغطيةٍ صوفيّةٍ بالَت من فرط القِدَم. أخذتُ أتنقّل بنظراتي بين الأوعية المعدنيّة الموزّعة في مختلف الزوايا، والتي بدأت المياه المُنسابة فيها تُصدر وَقعًا قويًا يُنذر بقرب الامتلاء.. كنتُ على وشك الدخول في حال استرخاءٍ، عندما أجفلني طَرقٌ عنيفٌ متواصلٌ على الباب.

ما كلّ هذا الصخب! من تجرَّأ وتخطّى جنون العاصفة ليأتي في زيارةٍ غير مناسبة التوقيت!

فجأةً تراءت في ذهني صورة العم حسن، فانتَفضتُ من مكاني وأسرعتُ أفتح للزائر المُنتَظَر الذي ما إن لمحتُه حتى أفسحتُ له ليدخل ويحتمي من عَصفٍ وبرقٍ شديد.

ما إن رفع قبّعته، حتى تجلّت ملامحُه في قمّة الجديّة، ممّا أثار ارتيابًا في قلبي الواجف.. وحتى لا أقع في هلعٍ وشيك، بادرني قائلاً: «غداً عند ساعات الفجر الأولى سننطلق.. جاءَتني معلوماتٌ مؤكّدة أن الحدود ستُقفَل أمام اللّاجئين قريبًا. لذلك لا مجال مطلقًا للانتظار. كونوا في جهوزيّةٍ تامّة، فأيّ تأخير قد يكلّفنا نتائج غير طيّبة».

ثمّ شرع تحت المطر المنهمر بنقل الأكياس إلى السيّارة، دون أن ينسى الدرّاجة الناريّة التي أصرَرتُ على اصطحابها كوفاءٍ منّي لخدمات قدّمَتها لنا

رغم تهالكها وحالتها البائسة.. وقبل أن يغادر طلبتُ منه أن يمرّ عند الحجّي الذي سيرافقنا في رحلة العودة، ويعلمَه بالموعد الطارئ للرّحيل.

عندما غابت أضواء السيّارة المتوهّجة تحت المطر، وقفتُ بكامل ذهولي ألملم دقّات قلبي التي انتَثَرَت هنا وهناك.

إذاً سنرحل صباحاً.. سنغادر المخيّم في رحلةٍ بغير إياب! سنترك تاريخاً حافلاً بالوجع والمعاناة، ولن نعود أدراج الخيبة والخذلان! لن يجمعَنا سقف الصفيح مجدّداً، ولن تضمّنا زوايا الكوخ النابضة برودة!

وبارتباكٍ، استدَرتُ لألمح بريقاً يلتمع بين نظرات أبي، فرحاً يصخب في ملامح أمّي، وكثيراً من الأمل يحلّق فوق رؤوس إخوتي الغارقين في إغفاءتهم فوق ترابٍ ما عاد يصلح لحَمل لقب «الأرض الجديدة».

فجأةً تذكّرتُ «العم عُديّ».. كيف سأغادر دون أن ألقاه! كيف سأَعبُر الحدود دون أن أحمل دعواتٍ وتمنّياتٍ يملأ بها جعبتي! وكيف سأخون عَهدَ صداقةٍ جمعني بالعجوز، وأرتحل دون أن يعلم عن أخباري شيئاً!

شعرتُ بوخز ضميرٍ وخَفق حنين.. عُذراً عجوزي، لكنّني عاجزةٌ أمام واقعٍ لا أملك أن أتخطّاه. لو أن العاصفة ما أتَت، لكنت خرجتُ سريعاً بحثاً عنك حتى في توقيت متأخّر.. لكنّك حتماً ستعذر تَرَف الفتاة التي أَلِفَت عجوزاً يُشبهها في الوجع والحلم، ورأَت فيه وجهاً صادقاً للحقيقة التي يعيشها أمثالُنا من فاقدي الانتماء.

بعد مغادرة العم حسن قرّرتُ الخلود فوراً إلى النوم، فأمامنا غدٌ حافلٌ بما أجهله من أحداث! تغلغلتُ تحت الأغطية دون أن أتمكّن من استشعار أيّ

دفءٍ، بل ازداد ارتجاف ضلوعي، وتمدّد البرد ليطال أفكاراً تنهش رأسي وتدكّ راحتي.

ماذا لو لم يأتِ العم حسن لسببٍ طارئٍ، وأُقفلت الحدود وخسرنا الحلم! ماذا لو لم نجد «الحجّي» في انتظارنا، وغادرنا مخلّفين وراءنا عجوزاً بائساً وحيداً! ماذا لو حصل حادثٌ منعنا من الوصول إلى الحدود، وضاعت الفرصة الأخيرة لنا! ماذا لو لم يكن العبور آمناً وأُصيب أحدُنا بمكروه!

يا إلهي.. صار الصداع يشتدّ ويتمدّد حتى نال من جميع شراييني. أحسستُ بألمٍ يضرب رأسي حتى اكتسب شعري ثِقلاً، وبات عبئاً حتى على الجسد.

صرتُ أتقلّب في محاولةٍ لمناورة ما أنا فيه من عذابٍ وأرَق، ومع كلّ حركةٍ كنتُ أزداد إرهاقاً، ولم أجِد خلاصاً ممّا أنا فيه سوى بالانسحاب من الفراش رغم البرد العضال الذي تكبّر وتجبّر وصار مستعصياً على الانهزام.

الكلّ بدا غارقاً في نومه وأحلامه وربّما كوابيسه، وأنا الوحيدة التي أصابني الحماس بالتّيه، حتى أضعتُ هدأتي وغفوتي واتّقاد ذهني وحضورَ سلامي الداخليّ. أخذتُ أُسَلّي أرَقي بإفراغ الأوعية التي فاضَت من مياه الأمطار، وأتفنّن برَصفها بطريقةٍ هندسيّةٍ معتمدةً تراتبيّة الأحجام.

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف اللّيل، والإعصار في الخارج قد تخطّى عتبة المعتاد.. في الوقت الذي تقهقَرت فيه مشاعر قلبي بمقدار عَقدٍ من الزمن، لترتدي ذات اللّهفة الطفوليّة البريئة لمجهولٍ ينتظرنا خلف الحدود!

***

هي الساعة الخامسة صباحاً بتوقيت اللّهفة، وبين لحظةٍ وأخرى سيحضر العم حسن برفقة الحَجّي لنمضي جميعاً إلى حيث ارتسم الحلم!

ها نحن قد صِرنا في وضعيّة جهوزيّةٍ تامّة، بعد أن أنجزنا إفطاراً سريعاً وارتدى كلٌّ منّا ملابس هي أفضل ما نملك رغم قِدَمها، لعلّها تليق بلقاءٍ مُهيب بين أرضٍ ما زالت في حال مَخاضٍ عسيرٍ وقلوبٍ طابَت وأثمرَت محبّةً وتَوقاً وحنيناً.

العاصفة لم تتراجع حدَّتُها طوال ساعات اللّيل الأَرِق، وما زالت حتى لحظة حضور العم حسن تتوهّج وتلتهب وتَستَعِر.

جارتُنا اللّطيفة أبَت أن تتأخّر في الحضور، وأتَت لوداعنا رغم انهمارٍ غزير.. تراءى اللّقاء حارّاً موجِعاً وصاخباً بصورٍ من الذّاكرة فيها ما لذّ وخابَ من حكايا اللّجوء.. صارت تبكي بألمٍ وهي تحتضن بين أناملها مفتاح الكوخ الذي صار في عهدتها وتحت تصرّفها بعد أن تخلّينا عن خدماته العجائبيّة، والتي عمل على تقديمها لأسرتنا دون كللٍ ما يقارب العشر سنوات.

وبعد أن أتممنا واجبات وداعٍ بائسة للمكان، حشرنا أنفسنا في السيّارة التي سبقنا إليها الحجّي مُحتلّاً المقعد الأماميّ بجانب السائق، حتى لا يتسبّب وزنه الزائد في إزعاجنا، ولا نكون باعثاً لسوء مزاجٍ يرتديه عادةً عندما يتواجد في مكانٍ مزدحمٍ.

ومع برقٍ التمع بقوّةٍ ورعدٍ زلزل حيرَتَنا وارتباكَ مشاعرنا، انطلقنا نقطع أزقّة المخيّم في خطّ ذهابٍ دون إيابٍ. لحظات قليلة ولجَت بعدها السيّارة

إلى بستان اللّيمون قبل أن تنطلق إلى الطريق العام في اتّجاهٍ معاكسٍ لما اعتدتُ أن أعبُره كلّ يومٍ على درّاجتي الناريّة.. ها هو الماضي قد بات خلف ظهورنا المَحنيّة من ثقل الأيّام، وأمامَنا تجلّى المستقبل ضبابيّاً يَشوبه بَرقٌ ورعدٌ وصواعق.

الأمطار الغزيرة استمرّت في الهطول دون أن تدخل في هدنة، ممّا اضطرّنا إلى إقفال النوافذ حتى لا نغرق في بللٍ نحن في غنى عن نتائجه في الوقت الحاليّ.. ومع تزاحم الأنفاس داخل السيارة المُقفلةُ على أوجاعنا، احتلّت غشاوةٌ بيضاء زجاج النوافذ، فحجبت الرؤية وأجهضَت كلّ محاولاتي لتبيُّن معالم الطريق التي ما زالت محفورةً كوَشمٍ بين تلابيب الفكر، رغم عبورٍ سَخيٍّ للزمن.

عندما وصلنا إلى هذه المدينة منذ ما يقارب عقداً من العذاب، كان عابِر طفلاً حديثَ الولادة وكنتُ بأحلام بريئة. والآن ها نحن نسلك دربَ الرجوع، ولكن بعد أن التصقَت بنا أقنعةٌ لا تشبه ما كانت عليه ملامحُنا في ذاكرة الحنين.

قطعنا مسافةً ضئيلةً في السيارة التي راحت تكابد انسكابَ الأمطار ودَفقَ السيول. ومع اشتداد سرعة الريح، كاد الهواء يطيح بنا ‘إلى الناحية الأخرى من الطريق، وصار متعذّراً على العم حسن استكمال المَسير، ممّا اضطرّه إلى الركون جانباً ريثما يستكين هذا الجنون.. أشعر وكأنّ الطقس دخل مؤامرةً لتحدّي صبرنا، والسخرية من لهفةٍ تلتهب كلّما مرّ الوقت ودنا موعد اللّقاء.. طال الانتظار ولم ننجح في الاستحواذ على تعاطف العاصفة التي استمرّت

في التهديد والوعيد، ضاربةً عرضَ السماء كلّ الدعوات والابتهالات. وأثناء ترقّبنا المرير، دخل الجميع دون استثناءٍ حالةَ غفوةٍ واسترخاء، إلّا أنا أَبَت جفوني الانصياع وبقيتُ أصارع السّهاد وأتصدّى لأفكارِ شؤمٍ، أدخلَتني في سردابٍ أسود ودوّامةٍ من سوء الظنون.

وبالرغم من تقدّم ساعات النهار، إلّا أنّ حضورَ الغيم طغى وظلّت العتمة سيّدةَ المكان. كم أخشى أن تحتدم مؤامرة الطبيعة علينا، ونخسر حتى فرصة الهروب إلى المجهول.

شعرتُ بالسيّارة كصندوقٍ محكم الإغلاق علينا.. وبالرغم من جلوسي قرب النافذة، إلّا أن احتجاب الرؤية بسبب الأنفاس الملتصقة بالزجاج من جهة وازدحام المقعد الخلفيّ بأفراد عائلتي المتكوّمين فوق بعضهم البعض من جهةٍ أخرى، كل ذلك حملَ إليّ شعورَ غثيانٍ وضيقًا في التنفّس. رحتُ على عَجَلٍ أمسح النافذة بكُمّ فستاني الذي ابتلّت أطرافه، حتى تراءت بساتين الليمون ضبابيّةً وغارقةً في شبه عتمةٍ وبمطرٍ أشبه باندفاعِ شلّال.

أخذتُ أتأمّل الخارج بفَيض جنونه، وأُنَقّل بصري بين شجرةٍ وأخرى بحثًا عن اللاشيء. ومع رتابةٍ ملأت العالم من حولي، اجتاحتني رغبةٌ شديدةٌ بالصراخ، وصرتُ أتنفّس بصعوبةٍ بالغةٍ، بينما راح العرق يتصبّب من جبهتي، وأخذت دقات قلبي تتسارع منذرةً بكارثةٍ وشيكة.. لا أستطيع الخروج من السيّارة، فالعاصفة شديدةٌ وانهمارُ الأمطار لن يترك أمامي فرصةً حتى لالتقاط الأنفاس.

عدتُ بنظراتي إلى الخارج في سَعيٍ للعثور على أيّ مشهدٍ يحرّرُني من معاناتي ويخفّف وَطأةَ توتّري، وإذا بي ألمح طيفـًا يعبُر كالبرق تحت المطر ويتغلغل بين أشجار الليمون.

أيُعقَل ذلك! من قد يجرؤ على التنقّل سَيراً في هذا الجوّ العاصف، وفي مكانٍ مُقفرٍ كهذا!

لا شكّ أنّني أهذي.. تنهيدةٌ عميقةٌ انسَرَبَت من صدري، وقبل أن أغضّ الطرف، عاد الطيف ليتحرّك تحت غصن ليمونٍ قريب. أمعنتُ النظر ورحتُ أُدقّق في العتمة التي أبَت أن تتراجع مع حضورٍ كثيفٍ لغيمٍ متلبّدٍ بوَحشية. في هذه المرّة بِتُّ متأكّدةً من وجود كائنٍ في الخارج. ربّما هو إنسانٌ، وقد يكون حيوانـًا تائهـًا في ظلّ عاصفةٍ أفقدَته بوصلة الطريق!

تملّكَني دوارٌ خفيفٌ، فأسندتُ رأسي على المقعد وأغمضتُ عينَيّ سَعيـًا للفوز بإغفاءةٍ صغيرة. وإذا بنَقرٍ خفيفٍ على النافذة يُجفِل راحتي ويقوّض محاولتي اليائسة للاسترخاء.

من هناك؟

ببَصَرٍ شاخصٍ حدَّقتُ، فتراءى لي طيف رجلٍ يتسكّع ذهابـًا وإيابـًا دون أن يُعيرَ بالاً لرياحٍ أو مطر! لم أتبيّن من تفاصيله سوى قبّعةٍ كبيرةٍ مستقرّةٍ فوق الرأس، وشيئـًا صلبـًا جاثيـًا بين أنامله.

فجأةً، أحسستُ بقلبي ينتفض، ويخفق بزخمٍ من يحاول الانعتاق.. صرتُ أضرب رأسي بيدي حتى أُخرِج الوساوس التي ارتادَتني على حين

صدمة.. لا بدّ وأنّه الهذيان، وإلّا كيف أُفسّر حضورَ العمّ «عُدَي» في هذا المكان وهذا التوقيت!

فتحتُ زجاج النافذة، وبصوتٍ دوّى في الأرجاء صرخت: «عمّي عُدَيّ.. أنا تَرَف».

وقبل أن أَلحظَ استجابةً أو أتلقى جواباً، جاءَتني أصواتٌ من داخل السيارة، أَوجَفَت روحي وانتشَلَتني من هذياني.. يبدو أنّ ندائي كان شديداً بحيث أنّه اخترق غفوةَ الجميع، وأعادهم إلى يَقظةٍ قسريّةٍ أردَتهم في عصبيّة.

قدّمتُ اعتذاراتي محاولةً تبرير سلوكي، دون أن ألقى تجاوباً سوى من الصغيرة العَنود التي ربَّتَت على يدي مرّات، وزرعت فوق ملامحها ابتسامةً صافية. التفَتُّ مجدّداً إلى النافذة في محاولةٍ للبحث عن الطيف الغريب، لكنّ العم حسن كان أسبَقَ منّي، فقد أدار محرّك السيارة وانطلق مجدّداً رغم أنّ العاصفة لم تستكن، معَلّلاً ذلك بتخوّفه من تأخيرٍ لا تُحمد عُقباه.. طلبتُ منه التمهُّل، تحت ذريعة حاجتي لقضاء حاجة، إلّا أنّه لم يُصغِ إلى نداءاتي العقيمة.

ومع ابتعادنا عن المكان، حاولتُ قدر استطاعتي الاحتفاظ بنظري ثابتاً ومستقرّاً حيث تهادى طيف العجوز. وقبل أن يضرب اليأس أصقاع روحي أبصرتُ، وبيقينٍ لا يحتمل الارتياب، «العم عُديّ» غارقاً في البَلل ومنتصباً على حافّة الطريق، يلوّح لي بعلبة الصفيح موَدّعاً، بينما الرّيح تتلاعب بعنفٍ في سترته وتمزّقها بشراسةٍ واستهزاء.

مشهدٌ لن ينسحب من ذاكرتي مهما تخطّاني الزمن، وطبعَت السنين بصماتها فوق الملامح وبين ثنيات الوجدان!

تقدُّم السيارة استمرّ بطيئاً مع اشتداد الريح، لكن انقشاعاً جزئيّاً للغيم ساعد على التراجع في دَفق المطر، الأمر الذي ساعد على تسلّل بسيطٍ لأشعة الشمس.. ورغم انكشاف الرؤية أمامنا، إلّا أنّني لم أُعِر الأمرَ بالاً، فقد شغَلَني الحضور الغريب للعم عُدَيّ.. متى عرف بأمر الرحيل! ولماذا لم يحضر لوداعي في المخيّم، طالما أنّه على عِلمٍ بالسفر! وكيف تجرّأ على الخروج في طقسٍ تجاوز الجنون بمراحل!

مُحيِّرٌ هذا العجوز، لكنّه طيّبٌ بدرجة أبٍ أو جَدّ. أشعر حقّاً بقلبي يعتصر كلّما تردّدت صورته في البال. لا يستحق مأساةَ لجوءٍ يعيشها منذ دَهر. ليته يستطيع الرجوع مثلَنا إلى أرضه، لكنّ المسألة تتجاوز التمنيّات، فالمُعضلة شائكة وقضيتُه تبدو أكبر من أيّ رجاء.

قطَعنا مسافةً طويلة، واجتزنا بساتين وتجمّعات سكنيّة عديدة. وكلّما اقترَبنا من مَقصدنا صار التوتّر سيّد النفوس. لا أعرف من أين أتينا بهذا الكَمّ الهائل من الصمت! حتى الصغار استكانوا بطريقةٍ مُريبةٍ، وكأنّهم امتلكوا الوَعيَ بأهميّة الحدَث.

***

كنت على شفا غفوةٍ اشتَقتُها، عندما علا صوت العم حسن ليُعلِمنا بالاقتراب من الحدود، طالبًا منّا إعداد أوراقنا الرسميّة، والتحلّي بالصبر وطول البال قدر المُستطاع إزاء أيّ تأخيرٍ أو سوء معاملةٍ أو حتى تصرُّفٍ مهينٍ قد يقع.

كلماتُه أوجعتني كثيراً، وحملَت إليّ شعوراً بانكسارٍ يماثل ما عرَفته مع كلّ سخريةٍ تعرّضتُ لها من زميلاتي في المدرسة أو من نساءٍ كنّ «زبوناتٍ» لأمّي. لماذا علينا دائمًا كلاجئين أن نتقبّل إهانات الآخرين، ونرضخ قَسراً لعذاباتٍ نفسيّةٍ!

دقائق قليلة توقّف بعدها العم حسن جانبَ الطريق، حيث اصطَفّت عشرات السيارات والشاحنات في ترتيبٍ عشوائيّ.

ها قد بلَغنا الحدود!

ضرب الهرج والمَرج أصقاع السيّارة، وتعالَت الهتافات يرافقها التصفيق وضحكات عشوائيّة من الصغار والكبار على حدٍّ سواء. حتى أبي تجلّت السعادة بمعالمَ واضحة في بريق عينيه وحركات رأسه.. ووسط هذه الاحتفاليّة، كنتُ – أنا تَرَف الفتاة اللّاجئة منذ عَقدٍ من الزمن – ألهث من فَرط التوتّر والحماس، حتى أنّني لم أملك وسيلةً لحَجب الدموع التي انهمَرَت دون أن يبتر انسيابَها أيّ تدخّلٍ منّي. راح قلبي يتقافز، وتراكمَت الكلمات داخل حنجرتي دون أن أتمكّن من نُطق أيّ منها. جفافٌ في الحلق امتدّ ليطال أوردتي وشراييني، حتى خِلتُ الجمودَ سيشلّ حركة جسدي.

كم أشعر برغبةٍ في الخروج من السيّارة، لكنّ ارتعاشةً في البدن فاضَت كبركانٍ، وكبّلَتني!

تطلَّعتُ من النافذة في ترَقّبٍ لدَهشةٍ تملِك منّي الوجدان. وإذا بالمكان يتجلّى غريباً ومختلفاً عمّا تصوَّرتُه في البال. كنت أظنّ الحدودَ الشرعيّةَ شريطاً شائكاً مرتفعاً وممتداً إلى ما لا نهاية، يفصل أرضَنا عن بلد اللّجوء، ويحيط به رجال الأمن من الجانبَين.. وإذا به عبارة عن مبنى صغيرٍ وقديمٍ تآكَلَت جدرانه واسودّت بفعل الزمن.. بينما الأوساخ تراكمت بوقاحةٍ هنا وهناك مضيفةً إلى المشهد كآبةً وبؤساً. ثمّة قنطرة حجرية ألصقَت على جوانبها صورٌ لمسؤولين سياسيين، لم أتبيّن أحداً منهم، باستثناء تلك التي تضم الرئيس المبتسم بأسنانه البيضاء المَرصوفة بترتيبٍ لا يَشوبه عيب.. وكيف يُعابُ من كان في عظمة مكانة الرئيس وقُدسيّته؟

كان علينا أن نجتاز القنطرة الحجرية لنقطع الحدود ونصل إلى الضفّة الأخرى حيث تنبت جذورُنا، وتمتدّ إلى البعيد الذي يضمّ قريتَنا وتَلَّنا والبادية الساحرة بكلّ خباياها.

معظم السيارات المركونة حولنا تبدو محشوةً بالبشر.. بعضها يحتوي عائلات، وبعضها يضم أفراداً من كلّ شكلٍ ولون.. لا بدّ وأن الجميع أتى وفي قلبه حلمه الخاص وأمنيات يرتجي تحقيقَها.

بمحاذاتنا توقّفَت سيّارةٌ عتيقةٌ، امتصّ الدّهر كلّ جمالياتها بحيث باتت أشبه بعلبة صفيحٍ. وتضافرت عليها عوامل الزمن مع وحشيّة الناس لتجعل منها جسماً بلا معالم واضحة.. كدماتٌ في مختلف الزوايا، مصابيح بعضها مفقود وبعضها نال نصيبه من التكسير، أبواب رغم إغلاقها توحي بقابليّتها للفَتح عند أدنى حركة، ومقاعد استحالَت إلى شبه هياكل حديديّة.

لمحتُ طفلاً يقارب بَيدَر في العمر، يجلس في حضن والدته على المقعد الأماميّ بينما تتكوّم الأكياس على المقعد الخلفيّ بعشوائيّةٍ كبيرة. تراءت المرأة في حال توتّر، ولاحظتُ محاولاتها المتكرّرة للنظر نحوي وكأنّها تستنجد بأيّ حضورٍ للتخفيف من حيرتها. تقصّدتُ التطلّع إليها، وما إن التَقَت نظراتُنا، حتى أرسلتُ لها ابتسامةً قصيرةً ولوّحتُ بيدي للصغير الذي طبع قُبلةً على كفّه وأرسلها نحوي. يا له من كائنٍ لطيفٍ، رغم البؤس الذي يتجلّى واضحاً في ملابسه، وفي الدّمية الصغيرة المهترئة التي يحتضنها ويلجأ إلى لَعقِها بين فينةٍ وأخرى. إلى جانب المرأة جثا رجلٌ أصلع بخدَّين ممتلئَين ورقَبَةٍ قصيرةٍ ومنتفخة.

وبحركةٍ فجائيّةٍ، خرج من السيارة حاملاً مجموعةً من الأوراق.. أذهلني حجمه الصغير، رغم أنّني توقّعتُ مسبقاً قِصرَ قامته، إلّا أنّ ضآلته فاقَت كلّ توقّعاتي.

في معرض تأمّلي لما يحيط بنا، تناسيتُ الصخب المتأجّج في سيارتنا، والذي استمرّ طويلاً. فجأةً تنبَّهتُ إلى نداء العم حسن لي كي أسارع بإعطائه جميع أوراقنا الرسميّة من حقيبةٍ كنت أعلّقها حول رقبتي. استلم العجوز الأوراق، وانطلق ليقف في خطٍّ طويلٍ أمام مبنى الجمارك القديم في انتظار دوره.. عند مغادرته السيارة هدأ الضجيج واستكانَت النفوس بعضَ الشيء، خصوصاً بعد أخبرنا العم حسن أنّ انتظارَنا قد يطول بسبب الازدحام الكبير، لهذا قرّر الجميع الدخول مجدّداً في إغفاءةٍ تخفّف عنهم وَطأةَ الترقّب. إلّا أنا!

ما بال النوم قد صار مستعصياً عليّ؟ قرّرتُ النزول من السيارة والتنقّل في المكان عساني أجد في السَير وسيلةً لاسترداد بعضٍ من سكوني الدّاخليّ.

تقدّمتُ بين السيارات، ثمّ انتقَلتُ إلى الناحية الأخرى لأصبح قريبةً من سيّارة المرأة المتوجّسة، والتي ما إن رأَتني أدنو حتى وضعت صغيرها على المقعد ونزلَت لتُلقي عليّ التحية.

تُسمّى حَوراء، وهي امرأةٌ متوسّطة الطول، نحيلة الجسد، وترتدي عباءةً سوداء مع حجابٍ أسود يظلّله لونٌ رماديٌّ يزيد من قتامة بشرتها التي تعتريها بعض التجاعيد. لا يمكن وصفها بالمرأة الجميلة بالنظر إلى ملامحها التّعبة، كما أنّها ليست بالدميمة. إنّها امرأةٌ عاديّة شبيهةٌ بمئات السيّدات المكافحات في هذا العالم الجائر.

بعد أن تعارَفنا، أخبرتني أنّها لجأت منذ ما يقارب الأربع سنوات عندما كان طفلها يبلغ العام. جاءت هي وزوجها مع الصغير خوفاً من سوء الأوضاع الأمنيّة في قريتهم. لكنّ اللّجوء لم ينصفها، بل كان شديد القسوة، حيث أنّه اختطف زوجها الذي مات غرقاً أثناء محاولته عبور البحر في هجرةٍ غير شرعيّة سَعياً لإنقاذ عائلته من فقرها المُدقع. كانت تلك الحادثة منذ عامين، عاشَت بعدها المسكينة فترات صعبة متنقلةً بين عملٍ وآخر جلّها في البيوت كخادمة، إلى أن جاء أخوها في الأشهر الماضية ليُقنعها بالعودة مع ابنها والعيش في كنف عائلتها التي استمرّت ثابتةً في أرضها دون أن تتعرّض لأيّ اعتداء، نظراً لمكانه رب الأسرة – ضابط المخابرات المتقاعد – وخدماته الجمّة التي قدّمها للوطن. ورغم حذرها وشكّها إلّا أنّها لم تملك خياراً آخر، فقرّرَت العودة والقبول بأمرٍ واقعٍ فُرض على ضعفها.

إذاً هذا الرجل الصغير هو الأخ المكلّف بإعادتها إلى حِصنِ العائلة، وهذه السيارة القديمة ملكٌ لزوجها المتوفّي، أقلَّتهم في درب اللّجوء، وهي نفسها الآن من تساعدهم رغم حالتها البائسة في العبور إلى الضفّة الأخرى. وتخطّي صعوبات الرجوع.

حَوراء خائفة.. لكنّ توجّسها اليوم لا يتعلّق بسُلطةٍ حكوميّةٍ تخشاها أو جماعات مسلّحة غريبةٍ تنقضّ ذاتَ دَهم.. كلّ ما يشغلها هو ارتيابٌ من سلطةٍ ذكوريّةٍ لأبٍ وإخوةٍ قد يتعرّضون بالسوء لها أو لابنها، نظراً لكَونها – ذات عشقٍ – تحدّت الجميع وارتبطَت بمن حملها يقينُها إليه، رغماً عن التهديد والوعيد.. لكنّها تسلّم أمرَها لله، وتدعوه طويلاً لأن يحيط صغيرَها بحمايته ورحمته..

مسكينةٌ حَوراء! أرى الخوف يتقلفز من عينَيها ومن بين أنفاسها.. تشبه كثيراً من النساء المعنّفات معنوياً. حياتُها مطوّقةٌ بمئات الأمنيات المستحيلة فقط لكونها أنثى، ومشاكلُها تتخطّى المُعتادَ من الماديّات إلى وجعٍ مستمرٍّ يتناول خشيتَها الأبديّة من أذيّةٍ قد تأتيها أو تصيب ابنَها في أيّ وقتٍ. قلقٌ واضطراب يرافقان أيّامها تحسّباً من ذكَرٍ، يُفترض به سنداً، ينقضّ على سكينتها ويسلبها حتى ابتسامةً عابرة.. لا مكان لأبجديّة الأمان عندها، فضُعفُها كأنثى عاجزة وبدون مصدر دخل يضعها في خانة التوجّس، ويجعلها طريدة مجتمعٍ شوَّهَته العُقَد الذكوريّة.

في كلّ يومٍ أزداد يقيناً أنّ في هذا العالم ما يستحق العمل وبذل الجهد لتغييره، وتتعاظم إرادتي في تخطّي مختلف العقَبات عساني أحقّق شيئاً أو أُحدِث تغييراً ولو طفيفاً!

***

ثلاث ساعات مرَّت وما زال المشهد على حاله.. السيارات والشاحنات نفسُها، والبشر متكوّمون هنا وهناك، بعضهم مستَرخٍ في سيّارته وبعضهم الآخر جاثٍ على حجرٍ أو رصيفٍ مكسور.. أصوات أطفالٍ يعبثون ويتضاحكون، وآخرون يبكون جوعًا أو عطشًا أو مللاً..

أمّا في سيّارتنا فالوضع بات تعيسًا.. تلاشى الفرح وتوقّف الهرج والمرج. والنعاس تطايرت شياطينُه، وصار الكلّ كتلةَ تذمّرٍ وتضجّر.. حتى العم حسن، منذ أن وقف في طابور الحالمين بالعبور ووَلَج إلى البناء العتيق، اختفى طيفه وكأنّه لم يكن!

حاولتُ الاقتراب من مبنى الجمارك لأستخبر عنه، إلّا أنّ قوّةً ضاربةً من رجال الأمن تصدّت لتقدّمي بكلامٍ عنيفٍ ومُشينٍ لا يليق بأشخاص مسؤولين عن حماية وطن.. عدتُ أدراج خيبتي، وجلستُ على صندوقٍ خشبيٍّ مركونٍ قريبًا من سيّارتنا وأخذتُ بالتفرّج على تبرُّم الناس وتأفّفهم. برغم البرد القارس، إلّا أنّ الوضع بدا مقبولاً مقارنةً بعاصفةٍ رافقَت رحلَتَنا منذ الصباح الباكر.

نظرتُ خلسةً لأرقب حال حَوراء المرأة المتوجّسة.. لمحتُها، وقد لفّت صغيرَها بشالٍ صوفيّ، منهمكةً في إطعامه على الغطاء الأماميّ للسيّارة.

فجأةً شعرتُ بألمٍ في معدتي التي بدأت تصدر أصواتًا، منذرةً بجوعٍ لا يرحم. معها حق، المسكينة لم تتذوّق الزاد منذ الصباح الباكر جدّاً، والتوقيت اقترب من الظهيرة. لا بدّ وأنّ الجميع دخلوا دوّامةَ خواءٍ مَعويّ.

في السيّارة، كان الجميع يتناولون شطائر جبنٍ قام «الحجّي» بتوزيعها من كيسٍ يحمله. يا له من عجوزٍ بقلبٍ طريٍّ رقراقٍ وعذب.. ما إن رآني أقترب حتى أعطاني كيساً مليئاً بالشطائر، وقال: «أتظنّين أنّ عجوزكِ قد نسيَ حصّتكِ يا بلهاء!».

ثمّ صدح بضحكته التي عهدتُها وأحبَبتُها.. تناولت شطيرةً كبيرةً وعدت لأجثو فوق الصندوق حيث أستطيع أن أتحرّك بحريّةٍ، بعيداً عن أيدٍ وأرجلٍ متداخلة وأنفاسٍ تكاد تُحيل السيّارة إلى معتقلٍ للتعذيب.

يا لهذا الانتظار الذي لا ينضب بؤسُه.. ماذا يفعل كل هؤلاء الرجال داخل هذا المبنى الذي يشبه علبةَ كبريت! كيف يتدبّرون شؤونهم في مكانٍ يكاد يعتصرهم، ويمتصّ كلّ طاقةٍ للحياة!

لم أعلم أنّ عبورَ الحدود إلى أرضنا يحتاج هذا الكمّ المَهول من الترقّب والإجراءات الرسميّة.

كان الوقت قد تخطّى الظهيرةَ بساعات، عندما لاحَ أخيراً العم حسن بقامته الطويلة جدّاً من باب المبنى القديم، في يده أوراقٌ وبطاقاتٌ وفوق وجهه علامات تعبٍ وتذمّرٍ وامتعاض. ما إن رأيتُه حتى صار قلبي ينتفض خوفاً من خذلانٍ يكاد يتراءى جليّاً في طلّته المتهالكة.

لم أتجرّأ على سؤاله أو حتى النظر في عينَيه، لأن ملامحه حكَت الكثير من أخبار السوء رغم صمت لسانه.. حاول الابتسام لينتزعني من ارتباكٍ نهش، إلّا أن ابتساماته أتت باهتةً وخاليةً من أيّ روح.

كان يتقدّم ببطءٍ مقصودٍ باتّجاه سيّارته، حتى كأنّني توهّمتُه في صمته يبتهل كي تطول الطريق ويتعثّر بألف عائق يُبعده عن شرح وتفصيل ما حدث معه داخل المبنى. لكنّه في نهاية المطاف وصل، ووقف كالتائه ينظر إلى الفراغ البعيد، بينما راحت أنامله تتحرّك بعشوائيّةٍ بين الأوراق والبطاقات. استمرّ على هذه الحال ما يقارب بضع لحظات قبل أن يتّخذّ قراراً بالكلام. فجأةً نفض الحيرةَ عن ملامحه، وبجدّيةٍ قال: «أعتذر من الجميع عن التأخير، لكن كما تَرَون الموضوع مرتبطٌ بالإجراءات والمعاملات الروتينيّة. كما أنّ الازدحام خانق، فالكلّ يريد أن يجتاز الحدود قبل إقفالها».

ثمّ، أخذ نفَسًا عميقًا قبل أن يُردف: «حسنًا.. كلّ شيءٍ على ما يُرام.. الأوراق سليمة واستلَمتُ بطاقات المرور وختَمتُها من الجهة المسؤولة.. الجميع يستطيع العبور بأمانٍ.. مممم.. باستثناء صقر.. مممم.. عليه الرجوع إلى المخيّم».

شَهقةُ استفهامٍ انسَحبَت من حنجرة أمّي التي أخذت تلطم وجهها في تعبيرٍ عن حزنٍ ورفضٍ واعتراض.. بينما راح «الحجّي» يضرب كفَّيه ببعضهما ويُحَوقِل ويشتم بصوتٍ خَفيض..

لماذا على أبي أن يظلّ هنا، بينما نَعبر كلّنا ونجتاز الحدود! ما هذا القرار الجائر، والبعيد عن أيّ منطقٍ مقبول!

وبصوتٍ حائرٍ تَقطَعه شهقاتُ دموع، صرختُ: «لماذا يرفضون دخول أبي؟ هل يعلمون بمرضه وعَجزه؟ أم أنّ هذا الأمر لا يعني سوادَ قلوبهم؟».

لم أكد أنطق بهذ العبارات حتى انتفض العم حسن واضعاً يده على فمي، في محاولةٍ لإجباري على السكوت.. وبنبرةٍ ضعيفة قال: «اصمتي يا تَرَف.. لا نحتاج مشاكلَ إضافيّة تُعيق مسيرَتنا.. إنهم يقولون أن صقر خرج منذ سنوات من البلاد بطريقةٍ غير شرعيّة، لهذا فإنّ السلطات تمنع دخولَه إليها مرّةً أخرى.. كانوا سيرفضون الجميع، لكن مع توسّلاتٍ وبعض الأكاذيب تمكّنتُ من إقناعهم بالسماح للآخرين بالمرور.. تمّ القبول ولكن على مضَض، بعد أن اعتبروا أن صقر هو المسؤول عمّا جرى قديماً، وعليه أن يتحمّل مسؤولية ما قام به».

لم أجد أيّ منطقٍ في كلامه، فكيف نَرحل ونترك أبي المُقعد يتدبّر شؤونه بنفسه.. هذا الأمر يتراءى مستحيلاً.. إنّهم بالتأكيد يضعون أمامنا العراقيل في سبيل تثبيط عزيمتنا، وحَملنا على الاستسلام والرجوع إلى المخيّم.. ما يحدث لا ينطوي على أيّ عدالةٍ أو إنسانيّة، فكيف يلجأون إلى تنفيذ عقوبةٍ في شخصٍ دون أيّ اعتبارٍ لحالته الصحيّة!

نحن لسنا أغراباً حتى يرسموا لنا شروطاً، ويفرضوا على ضعفنا قرارات نعجز عن تقبّلها.. وأبي ليس بمجرمٍ حتى يوضع تحت المجهر، وتُطرح الاستفهامات حول اسمه، أو يُصنَّف في قائمة الآثمين.

من حقّنا أن ندخل أرضنا أو نغادرها في أيّ توقيتٍ نختاره.. ومن حقّنا أن نبحَث عن أمانِنا في أيّ مكانٍ، دون أن يُعتبر ذلك تخلّياً عن الهويّة والانتماء..

حاولتُ أن أُتدخّل لدى العم حسن ليحاول مجدّداً وتكراراً، فربّما توَصّلنا إلى إقناعهم وانتزاع موافقتهم بشأن عبور أبي، لكنّه بدا حاسمًا في الرّفض، مؤكّداً أنّه يعرف جميع المسؤولين هنا ويدرك سلفًا أنّ أيّ قرارٍ يُتَّخذ لا إمكانية مطلقًا للرجوع عنه.. ثمّ تنحنح وقال: «لا مجال لإضاعة أيّ وقت.. فإمّا أن نرجع كلّنا وننسى أمر الحدود، وإمّا أن أُكمل المهمّة وأُقِلّ الجميع إلى حيث يريدون بينما يبقى صقر هنا.. وأنا سأكلّف صديقًا لي بتأمين وصوله إلى المخيّم لحين عودتي إليه.. سأقوم بالاهتمام بشؤونه، وسيكون بخيرٍ معي.. هاااه أيّ خَيارٍ تُفضّلون؟».

وبدون أي تفكيرٍ، صرخت أمّي بحزم: «سنعود إلى المخيّم.. فوراً».

فما كان من العم حسن إلّا أن دعانا للركوب على عجَلٍ في سبيل الانطلاق رجوعًا.. استقرّ الجميع في أماكنهم داخل السيّارة بملامح بائسة مستنكرة ومُغتاظة، بينما ظلَلتُ واقفةً مكاني وعاجزةً عن أيّ ردّة فعل. شعرتُ وكأنّني محاطةٌ بفراغٍ كبيرٍ وتائهةٌ في دهليزٍ طويلٍ مُعتمٍ.. غابَت عنّي جميع الأصوات، وما عدتُ أسمع إلّا أصداءَ العم عُدَيّ وهي تردّد: «كلّنا لاجئون، ومصيرُنا واحد رغم اختلاف القضية.. قدرُنا أن نحيا ونموتَ كلاجئين حالمين بالعودة».

لم أشعر بنفسي إلّا وقد صدحتُ بصراخٍ مُدَوٍّ ملأ فضاء المكان، واستأثر بانتباه جميع المتواجدين في القريب والبعيد. صار الكلّ يرقُبُني بحذَر، بعضهم تجلّت في تعابيرهم علامات شفقةٍ وتعاطف، وبعضهم أكل الخوف

ملامحهم فانكمشوا على ذواتهم أو غابوا في سيّاراتهم وكأنّهم بذلك يسعَونَ لنَفي تهمةٍ قد تلتصق بسجلّاتهم إلى الأبد.

أسرعَت أمّي بالنزول، وأحاطتني بعنفٍ فيه فزعٌ وريبةٌ وعتابٌ.. رحتُ أبكي بوَجعٍ بين يدَيها، وأثرثر بكلماتٍ بغير معنى وهي تحاول تهدئتي، إلى أن خفَتَ التياعي وسكَنَ حزني بعض الشيء. وبعد أن لملَمتُ بقايا أملٍ انتشَر، مسحتُ عَبراتٍ تراكمت فوق الوجنات وألهَبَت الجفون، وبحزمٍ قلت: «ستُكمل الطريق عم حسن، وستقطع الحدود.. سيرافقك الحَجّي مع أمّي وإخوتي.. أمّا أنا فسأرجع إلى المخيم مصطحبةً أبي.. هذا قرارٌ نهائيّ، فرَجاءً لا يعترض أحدٌ!»

عادت أمي لتصرخ وتلطم، ولكن بنبرةٍ عالية هذه المرّة، في الوقت الذي ضرب الذهول أصقاع الحَجّي والعم حسن فجمدا دون أيّ تعابير أو ردّات فعل.

وقبل أن تنطق أمّي بأيّ احتجاج، استكملتُ الكلام متوجّهةً هذه المرّة إليها: «أرجوكِ أمّي.. غادري إلى أرضنا مع إخوتي، وأنا أعدك بأنّني سأبذل ما أستطيع في سبيل اللّحاق بكم مع أبي، حتى لو اضطرَرنا إلى عبور الحدود خلسةً.. لا أستطيع أن أتركه هنا ليتدبّر شؤونَه بنفسه.. أرجوكِ أَبعدي إخوتي عن هذا الجحيم، فما عاد البقاء هنا يليق بطفولتهم.. صدّقي تَرَف أمّي، سأسعى جاهدةً لموافاتكم، وهذا وعدٌ لا بدّ وأن يتحوّل إلى يقين».

مسكينةٌ أمّي.. دائمًا تعثر على ذاتها تائهةً بين خيارات عسيرة مُتعِبة.. وذات ضَعفٍ تضطر للانصياع.. وهذا ما كان.

***

على المقعد الخلفيّ في سيّارة صديق العم حسن جلستُ مع أبي يعترينا صمتٌ صارِخ. لم أتجرّأ على النطق بأيّ كلمةٍ أمام انكسارٍ نفسيٍّ لمحتُه جليّاً في تعابير أبي المشلول..

لأوّل مرّة أعجز عن التلفّظ بأيّ مواساة، وأتلافى حتى مجرّد التطلّع إلى وجهه الذي شَوَّه اليأس ملامحَه.

مسكينٌ أبي.. أُدرِك مقدار الخيبة التي تتلبّد في أعماقه، ومشاعرَ الذنب المتراكمة في عينَيه إزائي، وأشعر بالخجل يتوارى بين جَفنَيه منّي. وأمام كلّ ذلك أجدني وقد غدَوتُ خرساء الروح وخاليةَ الوِفاض من أيّ قدرةٍ على التعاطف..

في الواقع، أنا من أحتاج إلى من يُشفق على تصدّع حلمي، وانهيار آخر حجرٍ في حلمٍ كان سيُؤوي فَزعي ويُعيد هيكلةَ حياتي. أنا الأشدّ عَوَزاً إلى سلامٍ داخليٍّ بعد جنونٍ سطر حروفَه بين سنوات عمر.. وأنا من أستحق المواساة إزاء ما ينتظر ضَعفي من همومٍ ومكابدةٍ وتحدّيات!

ها أنا أعود بكامل خذلاني إلى المخيّم لأحتضن خيباتي وأغفو بين تردّداتها.. صار عليّ أن أمزّق قلبي بين مكانين، أحدهما هنا في أرض التّيه حيث سأركن مع أبي وأمارس طقوس اللاحياة، وهناك خلف الحدود حيث ستكدّ أمّي وحدها وتقدّم أيّامها قرباناً في سبيل تحقيق حياةٍ بهيّة الطّالع لصغارٍ لم يعرفوا من هذا العالم سوى البشاعة.

في الواقع لا أعلم كيف ستتدبّر أمّي شؤون عذاباتها منفردة. ربّما تواجد الحَجّي معها، كما وعدني، يبعث بعض الطمأنينة في نفسي، لكن ذلك لا يلغي ما أنا فيه من ارتياب. وبالرغم من وعودٍ قطَعتُها لحظةَ صدقٍ على أمّي بلقاءٍ قريب، إلّا أنّ الشك أخذ ينسرب منذ أن افترقنا وسِرنا في طريقين متعاكسَين. عندها فقط شعرتُ أنّه اللقاء الأخير، وأنّ أسواراً شاهقة ارتفعَت بيننا، وأنّ أوانًا مُزهراً للحلم قد فات!

كانت العتمة قد اشتدّت وتمرّدت عندما وصلنا إلى المخيّم. لأوّل مرّةٍ نَعبُر دون أن يوقفنا الحَجّي ويرمي علينا كلمات ظاهرُها قسوةٌ وباطنُها لِين. تراءى الكشك كئيبًا وهو مُقفَلٌ على ذكرياته، وصاخبًا بحكايا صفعها الصمت فغدَت كالأساطير.. ما أقبح المكان في غيابكَ حَجّي، وما أصعبَها من أيّامٍ ستُلقي بشراستها على ضعفي ووَحدتي واشتياقي.

الظلمة الشديدة داخل المخيّم، إضافةً إلى البرد الجارح، لم يمنعا الأهالي من استيطان الطرقات الضيّقة والزواريب الغارقة بمياه الأمطار الراكدة هنا وهناك. الضجيج بدا صارخًا جدّاً حتى أنّني أقفلتُ نافذة السيارة، بينما رحتُ أضغط على رأسي لأخفّف وطأة صداعٍ صعَقني ذات عودةٍ إلى اللامكان!

لمحتُ السائق وقد علَت جبينَه علامات استفهامٍ، ثمّ وبصوتٍ أجَشّ نطق به لأوّل مرّةٍ منذ أن أقَلّنا: «لا بأس يا صغيرة، هذا من تأثير السفر.. بمجرّد أن ترتاحي قليلاً سيغادرك الصداع».

أيّ صداعٍ سيرتحل يا سيّدي بعد الذي حصل! وعن أيّ راحةٍ تتحدّث! الآن فقط أيقَنتُ صوابيّة كلمات أطلقَها على حضوري مسؤول الإدارة في مدرسة عابِر، عندما صرّح أنّ اسم «شقاء» يليق بي أكثر..

صوت السائق الأجَشّ أخرجني فجأةً من شرودي، وهو يطلب منّي تحديد موقع الكوخ. بضع ثوانٍ كنت بعدها أقف مع جارتنا الطيّبة، غارقةً في حرجٍ لا يطاق، لأطلب منها استرجاع المفتاح. وكم كانت صدمتُها شديدةً لرؤيتي أنتصب في مواجهتها وأمامي الكرسيّ المتحرّك الصدئ حيث تجثو أوجاع أبي وأحزانه المتراكمة. احتضنَتني بشدّةٍ، وبكَت حُرقةً على شتاتنا، ثمّ دعتني مع أبي لتناول الطعام رأفةً بخُواءٍ ملأ فراغَ البطون منذ ساعاتٍ طويلة.

عندما عدنا إلى الكوخ، كانت الدرّاجة الناريّة التي ركَنها السائق قرب الباب في استقبالنا. وفي الداخل تراءى المشهد في ذروة البؤس بعد أن غابت عنه ثرثرات الصغار وصوت ماكينة الخياطة الذي لا يستكين. سكونٌ جنائزيّ أشبَعني حنينًا، فرُحتُ أذرفه عبرات لم تتوقّف طوال اللّيل.

حقيقةً لا أعلم بأيّ روحٍ سأعيش هنا، وكيف سأقتطع من الزمن وقتًا لا أكون فيه منكبّةً على ذكرياتي ووَحدتي وتعبي! أمضيتُ ليلتي وأنا أعتصر فكري وأبحث عن حلٍّ لمشكلة عبور أبي، دون أيّ جدوى.. كان ذهني مشتّتًا وفي حال ارتيابٍ حول مصيرٍ مجهولٍ لأمّي وإخوتي. أفكارٌ سوداء قاتمة راحت تنسج غزلَها في رأسي وتصيب قلبي بوجَعٍ وانقباضٍ، رغم علمي أنّه عليّ انتظار عودة العم حسن لأستخبر عن أحوالهم.

وبرغم جرعة الدّعم التي سكبَتها جارتنا في قلبي عندما دعَتني إلى اللامبالاة بشأن المصاريف لأنّنا جزءٌ من أسرتها، وأنّ ما تعدّه من طعامٍ سنتقاسمه بكلّ ودٍّ ومحبّة، إلّا أنّ خوفي من المجهول هشّم فتات السكينة المتناثر في أعماقي.

لا أستطيع أن أكون عبئًا على أحد، ولم أعتَد الاتّكال على تقديماتٍ ومعونات.. عليَّ أن أعثر على فرصة عملٍ تعيننا في العَيش بدون أن أضطرّ إلى انتظار عَونٍ من هنا أو هناك.

كان اللّيل قد انتصف عندما عاد الصداع ليعتصرَ شرايين رأسي، ويرفع مؤشر أرَقي إلى أعلى المستويات. استقَمتُ في جلستي، وبقطعة قماشٍ ملقاةٍ على كرسيٍّ جانب الفراش، أحكَمتُ وثاق الرأس في محاولةٍ لاعتقال الوجع وبعثرة تردّداته، غير أن الفشل رافقني وعجزتُ حتى عن مقاومة الألم.

على هذه الحال بقيتُ حتى انسلّ قليلٌ من الضوء مع النسمات الباردة من شقوق بابنا الخشبيّ القديم. كان أبي لا يزال غارقًا في غفوته، عندما ارتديت ملابسي سريعًا وتدثَّرتُ بشاليَ الصوفيّ، ثمّ انطلَقتُ إلى منزل العم حسن لأستطلع الأخبار. قطعتُ الطريق دون توّقّف، وعندما وصلتُ إلى ساقية المياه وصار كوخ العجوز قاب قوسين منّي، راحَت نظراتي ترقب محيطَ الكوخ علّها تلتقط إشارةً إلى تواجدٍ بشريٍّ في المكان. تجلّى البستان هادئًا لا يشوبه سوى هدير الساقيّة وزقزقة خجولة لعصافير تسلّلَت في الصقيع لتنعم بحريّتها قبل تجدُّد العاصفة.

كم رغبتُ أن أتعثّر بالقامة الطويلة للعجوز، ولكن مشهد الفراغ تراءى جارحًا. وعلى حجرٍ كبير قرب الساقية تقوقعتُ على ذاتي، وذرَفتُ دموعًا من فَيضها رفعَت منسوب المياه المتدفّق.. أو هكذا توهَّمت!

قليلٌ من الوقت مضى وأنا أبكي وَحدتي، شعرت بعده برغبةٍ في لقاء العم عُدَيّ. لطالما غرس هذا اللّاجئُ الأملَ في روحي، رغم يأسٍ تجذّر في قلبه منذ دهرٍ ونيِّف..

إذاً ريثما يصحو أبي، ولا أظنّ أنّه سيفعل قبل عدّة ساعات، سأسارع للقاء العم عُدَيّ. حتمًا سيرسم لي بكلماته الطيّبة خارطة طريقٍ آمنٍ، وسينفض عن مشاعري غبار القلق، وربّما سيمنحني حلولاً تعيد هيكلةَ نبضي بعيداً عن أيّ فزَع.

أفكارٌ رطبةٌ تملّكَت منّي، فانطلَقتُ أتقافز بين الأزقّة وبين ضلوعي قلبٌ طريٌّ حالمٌ، وعلى شفا رجاء..

***

لا أستطيع أن ألومَ هزالةَ دراجّتي الناريّة، وخطواتَها البطيئة، وارتجافَها المستمرّ.. حياة الضَّنك في مخيّمنا العجائبيّ سلبَتها نضارَتَها كما فعلت بنا جميعًا. أحمد الله أنّها ما زالت قادرةً على العَطاء، رغم أعباء أرخَت بثِقَلها فوق هيكلها الصّدئ.

المسافة بين المخيّم والشاطئ، حيث آمل أن ألتقي بعجوزي، ليست طويلة. لكنّها استهلكَت منّي وَقتًا يفيض عن كلّ التوقّعات، أو ربّما من شدّة لَهفتي رأيتُ في الزمن طفلاً يزيد من دلاله ويتمادى في الإبطاء! ويبدو أنّ برودة الطقس دخلت أيضًا دائرة المؤامرة ضدّي، وجعلتني في تقوقعي داخل ملابسي أخسر قدرتي على الحركة وأعجز عن التحكّم في مسيرتي بحريّة.

عندما وصلت إلى الشاطئ، كانت السماء تُنذر بعاصفةٍ تجعل ارتيادَ البحر مسألةً شائكةً.

أسندتُ درّاجتي على الأرض بدلاً من ركنها كما اعتدت، خوفًا من رياحٍ قد تطيح بها إلى البعيد، وتقدّمتُ فوق الرّمال الرّطبة والصقيعُ يكاد ينفذ إلى عظامي رغم التحافي بالشال الصوفيّ. ما إن تراءى البحر أمامي حتى ضربتني قشعريرةُ فزَع. الموج بدا شاهقَ الارتفاع، وصوتُ هديره أيقظ في داخلي مخاوفَ لا تنضَب. عتمة الأفق أصابتني بيأسٍ، ومشهد الظلمة ارتسم أمامي كبومةٍ تُنذر بالأسوأ.

فجأةً التمَعَت السماء ببَرقٍ مُريع، وأرعدَت بصوتٍ أجفَلَني من قوّته. وشيئًا فشيئًا أخذت الأمطار تنسكب فوق رأسي الأعزل دون أن أملك وسيلةً لحجبها عنّي. أسرعتُ الخُطى قبل أن تشتدّ العاصفة، ويغدو تواجدي

على البحر جنونـاً، ورحـتُ أبعثر نظراتي هنا وهناك في محاولـةٍ لاقتفاء أثر العجوز، دون أيّ جدوى..

أعرف أنّ التوقيت غير ملائم لنزهةٍ اعتادها العم عُدَيّ على الشاطئ، لكنّني أدرك مقدارَ الغرابة التي يرتديها طيفُه، بحيث يصبح المستحيل عنده ممكنـاً.. لـذلك لـم أتـوانَ عـن نَبش أدقّ تفاصيل المكـان، وبعثـرةِ نـداءاتٍ جوفاء حملَتها الرّيح بين ثناياها، وطوَت أصداءَها ممعِنةً في التحدّي لجرأتي.

من فرط انشغالي بالبحث عن عجوزي، لـم أُلقِ بـالاً إلى ذاتي الغارقة في البلل إلّا عندما أحسستُ برطوبةٍ تتسلّل من تحت الملابس، لتلامس جسدي وتتسبّب في ارتعاشة بَردٍ نفذَت إلى الضلوع. عندها فقط تنبّهـتُ إلى وضعيَ البائس، فأسرعتُ عائدةً إلى درّاجتي، في محاولـةٍ لالتقاط أيّ مكـانٍ أتـوارى فيه ريثما يخبت أجيج الطبيعة.

عانَيـتُ في محـاولاتي لانتشـال الدرّاجـة التـي غاصـت في الرّمـال المبلّلـة وأحاطَتهـا الميـاه مـن كـل جانـبٍ. رحـتُ أشـدّها ذات اليمين وذات اليسـار، وأضغط على جانبٍ منها في سَعيٍ لتسهيل سَحبها من النّاحية الأخرى، وهـي متسمّرةٌ في مكانها تأبى الانصياع، حتى خِلتُها عالقةً ولا طريـقَ لإغاثتهـا مـن الهَلاك. كلّ ذلك، والمطر ينهش هيكلي ويُصدّع ثَباتي، والرّعد يزمجر مدوّيـاً في رأسي كصرخة فَقدٍ أو صيحة انهزام.

فجأةً، اشتدّت الظّلمة بسبب الغيـوم التي تكـاثرت وتشـابكَت بحيـث لـم تترك أيّ فسحةٍ ضئيلةٍ للنور كي يغدرها ويتسـلّل. شـعرتُ بهلعٍ كبيرٍ، خاصّـةً مع ارتفاع حدّة هدير الموج واشتداد سرعة الرّيح التي التفّت كإعصـارٍ حـولي

وراحت تطوّح بي يُمنةً ويُسرة. جثوتُ على رُكبتَيّ في محاولةٍ لتخفيف وطأتها، ثمّ انحنيتُ متقوقعةً في شكلٍ جنينيٍّ بين أحضان درّاجتي، وأغلقت عينَيَّ حتى لا يباغتني أيّ مشهدٍ قد يزيد من ارتيابي وارتباك مشاعري.

المكان مكشوفٌ بالكامل ولا وجود لأيّ شيءٍ يصلح لأتغلغل بين ثناياه ويقيني جنونَ المطر. إذاً، عليّ الانسحاب سريعاً من الشاطئ، فثمّة أسقفٌ لمبانٍ ومحلّات غير بعيد عن هنا.. أنا لا أستطيع أن أستمرّ على هذه الحال إلى أن تتلاشى العاصفة أو تخبت وتيرتُها. فالمسألة قد تطول، والمرض سينال منّي حتماً ويلتهم جسدي لا محالة. لكنّني وبسبب قوّة الرّياح، عاجزةٌ عن إخراج الدرّاجة من الرّمال، وأخشى أن أتركها هنا لئلّا أفقدها إلى الأبد!

انقضى وقتٌ ليس بالقليل وأنا أُحادث نفسي وأطرح عليها حلولاً لم تؤاتيها.. وذات استسلام، شعرتُ بجسدي يتراخى فوق الرّمال إلى أن لامسها خدّي وانسرب بعضها بين شفتَيّ. وقبل أن أغيب نهائيّاً، لمحتُ يداً تمسح جبهتي بأنامل خشنة، وترفع فوقي غطاءً أبيض حال بيني وبين المطر.

بضع ثوانٍ عثرتُ بعدها على نفسي بين يدين دافئتين بعيداً عن صلابة أرضٍ ورطوبةِ رملٍ وغلاظةِ ريح.. وَقع أنفاس رتيبة رافقني لبعض الوقت قبل أن أفقد وعيي وأرتحل في إغفاءةٍ غَيّبَت أيّ هديرٍ وعَصفٍ وفزع.

هذا كلّ ما أذكره حتى اللّحظة التي صحوتُ فيها لأعثر على نفسي في شارعٍ فرعيٍّ محاذٍ للطريق العام المطلّ على البحر، مسنودةً على باب إحدى المحلّات المقفلة وفوقي غطاءٌ بلاستيكيٌّ يلفّ جسدي بالكامل، غير بعيدٍ عنّي كانت درّاجتي مركونةً وقد ملأتها الرّمال لتُمعن فيها بشاعةً وتشويهاً.

وبرغم أنّ السقف الحجريّ ساعد في حجب الأمطار عنّي، لكنّ الصقيع تغلغل بين مساماتي وأصابني بخِدرٍ في الجسد.

لا أعرف كيف وصلتُ إلى هذا المكان، ولا مقدارَ الوقت الذي قضيتُه مسترخيةً فوق الرّصيف. والغريب هو غياب أيّ حضورٍ بشريّ في الشارع، حتى المحلّات تراءت مقفلةً بالكامل على الرّغم من تراجع حدّة المطر الذي استحال زخّاتٍ متقطعة بين فينةٍ وأخرى. لكنّ البرد استمرّ جارحًا، وخيوط الشمس التي تسلّلت من بين شقوقٍ غفل عنها السّحاب لم تنجح في كَسر حدّته وهزيمة جبروته. ما زال النّاس في بيوتهم يتدفّؤون ويؤنسون بعضهم البعض. وحدهم من لا مأوى لهم، ومن لا يملكون أرواحًا يألفون لها وبها، هم العابرون في الأزقّة والمصاحِبون لجنون الطبيعة وهذيانها.

لكنّني لا أرى أحداً منهم! الطرقات يشغلها الفراغ إلّا من حضوري البائس والكئيب. حتى الكلاب الشاردة احتجبَت في مكانٍ ما، بعيداً عن شوارع نهشها البرد، وغرقت زواياها في صمتٍ ووَحشَة.

حاولتُ أن أستقيم في جلستي، لكنّ وجعًا في ضلوعي أصابني بالجمود. الألم يدكّ جسدي، والدّوار يثير في نفسي غثيانًا ورغبةً في التقيّؤ. وبرغم ارتعاشةٍ تملّكت منّي وجعلتني أنتفض وأرتجف، إلّا أنّ رأسي تراءى ككرةٍ ملتهبة على وشك الانفجار.. لا بدّ وأنّ المرض قد استشرى في بدني، وأقام على تعبي وجبته الدسمة.. حاولتُ أن أستريح قليلاً، وأرخيتُ برأسي على الحائط، لكنّني سرعان ما تذكّرتُ أبي.

يا إلهي.. إنّه بمفرده في المنزل، ولا يوجد من يقدّم له أيّ عَونٍ إذا ما احتاجَه.. حتى الطعام الذي أعطته لي جارتنا ليلة أمس وتركتُه على الطاولة، لن يتمكّن من تناوله بدون مساعدة!

عليّ الإسراع إلى المخيّم، متناسيةً ما أنا فيه من تعب. لقد وعدتُ أمّي أن أرعاه جيّداً وأن لا أغفلَ عن الاهتمام به مهما كانت الأسباب. طوَيتُ وجعي داخلي، وما إن رفعتُ عنّي الغطاء حتى شعرتُ بشيءٍ يتسرب ويقع على الأرض. استجمَعتُ كامل طاقتي كي أتمكّن من الوقوف، ودنوتُ قليلاً لأُفاجأ بعلبة صفيحٍ مستقرّةٍ على الأرض.

أصابني الجمود برهةً قبل أن تتسلّل السعادة إلى قلبي لمجرّد التفكير أنّ العم عُدَيّ كان قريباً منّي، وأنّه من أتى لإغاثتي ممّا كنتُ فيه. ليتني أستطيع ملاقاتَه الآن، لكنّ التوقيت لم يعد ملائماً وعليّ التوجّه فوراً إلى المخيّم.

برغم الرّمال التي غطّت الدرّاجة وملأت جميع الثغرات فيها، إلّا أنّها طاوعَت رجائي ولم تخذلني.. فكأنّما صارت بيننا توأمةٌ، ولم تشأ أن تزيد من عذاباتي، فسارَت بهدوءٍ يعتريها ارتجاجٌ تآلفَ مع ما أنا فيه من ارتعاش.

***

يبدو أن العاصفة قد هدأت ولن تتجدّد إلّا بعد حين. الغيوم المتلبّدة تبعثرَت تاركةً مساحةً للدّفء كي يتغلغل بهدوء. تجلّت الرؤية واضحة، وكلُّ شيءٍ تراءى لامعـًا بعد مطرٍ انسكب، رافعـًا الغبار عن الطرقات والمباني والسيارات. وحدها درّاجتي بدَت مشوّهةَ المعالم من رمالٍ تكدّسَت بين حناياها، مضيفةً إلى مظهرها العتيق بشاعةً مؤذيةً للنظر. ورغم ذلك، سأظلّ أراها الأكثر قبولاً وقدرةً على مَنحي الرّاحة والطمأنينة.

كم أتمنّى لو أنّ أبي ما يزال غارقـًا في نومه بعيداً عن أيّة تصوّرات بائسة. لا أريده أن يشعر بأيّ فَقدٍ أو وَحدةٍ في غياب أمّي، ولا أن يرى في نفسه حِملاً على كاهلي.. إن كان قد استفاق، فسأحكي له عن جنون العاصفة الذي تسبّب بتأخيري، وإن لم يفعل فسأغادر البيت رغم تعَبي الشديد لأستطلع أخبار العم حسن. كم أخشى أن تكون الحدود قد أُقفلَت قبل أن يعبُرَها السائق العجوز عائداً، عندها سيعلو حاجزٌ كبيرٌ بيني وبين أمّي وإخوتي، ولن أتمكّن حتى من الاطمئنان على أحوالهم.. سيُقطَع التواصل تمامـًا خصوصـًا أنّهم احتفظَوا بهاتف أبي، وبِتنا في حال عُزلة تامّة.

كثيرون في المخيّم يملكون هواتف نقّالة، لكنّنا لم نكن على تواصلٍ مع أيّ منهم، ولا يحوي هاتفنا أرقامـًا سوى للنساء اللّواتي كنَّ يتّصلنَ بأمّي للاستخبار عن مواعيد استلام الفساتين. لذلك، إن ضاقت بيَ السبُل، سأقوم بزيارة هؤلاء النّسوَة، فلربّما تلقَّين اتّصالاً من أمّي، وإن كلّفني الأمر رؤية السيّدة شَهربان مجدّداً.

كنت سارحةً في تأمّلاتي عندما غدَوتُ قريبةً من المخيّم.. على الطريق العام وغير بعيدٍ عن مَساكِنِه، لمحتُ ازدحاماً لكثيرٍ من الأشخاص دون أن أتبيّن أحداً منهم! لا أدري لِمَ أصابني انقباضٌ رفع مؤشّر القلق عندي. حاولتُ أن أتجاهل المشهد، وأكملتُ طريقي ثمّ جنَحتُ إلى اليمين منسربةً داخل بستان اللّيمون، بينما راحت الوحول تتطاير عن الأرض لتلتصق تارّةً بعجلات الدرّاجة وتارّةً أخرى بفستاني المتدلّي، لتزيد من زخرفاته التي خطّها الزمن وأمعَنَ في نَقشها.. وعلى حين بغتة، تجدّد الدّوار في رأسي متسبّباً ببطءٍ في حركتي مع عدم قدرتي على الاحتفاظ بتوازني، فهويتُ بقوّةٍ على الأرض المُوحلة، وشعرتُ بجسدي يتشظّى..

ماذا جرى! هي المرّة الأولى التي أفقد فيها قدرتي على التحكّم بالدرّاجة، وتتلاشى سيطرتي عليها بهذا الشكل المخيف!

أمسكتُ برأسي التي اجتاحها الصداع فجأةً، ورحت أضغط عليها في سَعيٍ لتهدئة الألم الذي اشتدّت وتيرتُه بسبب رائحةٍ بشعةٍ تسلّلَت من بين شعيرات أنفي لتغزو جسدي بالكامل..

ما هذه الرائحة المثيرة للوجع! متّكئةً على درّاجتي، تمكّنتُ من الوقوف مجدّداً، بينما أكملَت رأسي ترنُّحَها ألماً ودُواراً.. شيئاً فشيئاً استعَدتُ بعضاً من هَدأتي وثَباتي، وبات بإمكاني أن أتبيّنَ رائحةَ الدّخان التي ملأت فضاءَ المكان..

حتماً.. إنّها رائحة دخان!

أكملتُ طريقي، وصرتُ كلّما خطوتُ باتّجاه المخيّم، أنغمس في ضبابيّةٍ غيمةٍ سوداء ورائحةِ رمادٍ وحريق. وأمام كشك الحَجّي توقّفتُ بعد أن اخترقَت سمعي أصواتُ هَرجٍ ومَرجٍ.. وعَويل!

ماذا يجري!

استحال قلبي جمرةً مُلتهبة، وصار نبضي يتقافز ويقرع طبولاً تصدّع معها جدار الروح. أخذت أصوات الصياح تعلو كلّما تقدّمتُ داخل الأزقّة، مع غيابٍ كاملٍ لأيّ حياةٍ فيها.. فالمحلّات معظمها مقفلة، أمّا المفتوحةُ فمشرّعةٌ على الفراغ واللّاحضور. حتى الصغار غابت شقاوتهم ولم يظهر من بينهم أحدٌ ليُمطرَني سخريات!

أشعر بالفزع يدكّ أعصابي، ويَحولُ بيني وبين اليقين.

أكاد أجزم أنّ هناك حريقًا كبيراً شبَّ في المخيّم فترةَ غيابي، وأنّ الوضع شبه كارثيّ.. أكاد أشمّ رائحة الجروح والدّم والجلد المحترق، تخترق مساماتي وتحملني على الغثيان.. وأكاد أسمع في الصرّاخ نداءات استغاثةٍ وتأوّهات وأنين!

ازدادَت نبضاتي حدّةً مع تصاعدٍ فجائيٍّ وكثيفٍ للدّخان من زقاقٍ قريب. رحتُ أسعل بقوّة بعد أن استنشَقتُ كتلةً سوداء قاتمة كأيّامي، وصرتُ أتنفّس بصعوبةٍ وألهث كهاربةٍ من قبضة الزمن. وفي محاولةٍ لغرس بعض السّلام في تُربَتي، أخذتُ أحادث ذاتي وأحاول إطفاء أَجيج خوفها وارتيابها.. حدّثتُها عن توقّعاتٍ قد تُخطئ وتصوّراتٍ بائسةٍ قد تتلاشى بمجرّد أن يعبُرَها اليقين.

احتضَنتُني، واسيتُني، ومسحتُ توجّسي وعبرات بدأت تتسلّل وتفيض دون أن أملك لرَدعها وسيلة.

نعم، خائفةٌ أنا! لم تنجح كلّ محاولاتي لنزع الهلع من جوفي المتيبّس، وشعرتُ بي على شفا انفجارٍ. الصراخ والبكاء بصوتٍ مرتفع كانا ليخفّفا عنّي وطأة ما أنا فيه، لكنّني وجدتُني عاجزةً حتى عن إفراغ ما في أعماقي من التِياع.

وفي زقاقٍ صغير قريبٍ من حيِّنا ترجّلتُ عن الدرّاجة، وبجانبها جلستُ القرفصاء واضعةً وجهي بين ركبتيَّ.. وأجهشتُ بالبكاء.

وافَتني أصواتُ رجال ونساء وأطفال، وصخبٌ فاقدُ الهوية والانتماء. ارتباكُ البشر تجلّى واضحًا من ضجيجهم العشوائيّ، ومن نبرة أصواتهم المضمّخة بالألم والحسرات! عندما رفعتُ نظراتي، كانت سحب الدّخان قد أحاطتني من كلّ اتّجاهٍ، وأغرقَتني في سعالٍ متواصلٍ. الكتَل السوداء باتَت أشدّ كثافةً وصرتُ أشعر معها بحرارةٍ تلفحُني وتسحب من مَساماتي حَبّات عرَقٍ لا تنضب.. استجمعتُ كلّ ما تبقّى لديّ من طاقةٍ، وبارتعاشةٍ في القدمَين تقدّمتُ سَيراً باتّجاه كوخنا الذي ودّعتُه باكراً بعد أن أودَعتُه أبي أمانةً!

زقاقُنا باتَ على مرمى حجر، والدّخان الذي رافقني منذ دخول المخيّم صار لاسعًا حارقًا ومحمّلاً بسَخامٍ ثقيل بلَونٍ قاتمٍ، التصق بوجهي وملابسي وزاد من تشوّهات مظهري وروحي.. طفلٌ صغيرٌ لم يتجاوز الثامنة عبر مسرعًا بجانبي، وعندما تخطّاني توقّف واستدار نحوي وظلّ سارحًا في

وجهي يتأمّلُني وكأنّه يبحث عن شيءٍ ما، ثمّ انطلق مجدّداً وهو يشير نحوي ويصرخ ينبرةٍ مرتفعة: «ها هي الفتاة.. لقد رأيتُ الفتاة».

سلوك الصبيّ زاد من توتّري، وأنذرَني باحتمالات سوءٍ ربّما تنتظرني خلف الشوارع القديمة والبيوت المتهالكة. تباطأتُ في خطواتي، وكأنّني بذلك سعَيتُ لإنقاذ نفسي من ورطةٍ سأقع فيها لا محالة.

وعند عتبة حيّنا، وقفتُ مذهولةً من هَول ما رأيت!

تجلّى المكان وقد تبدَّلَت معالمُه نهائيّاً.. فالسواد القاتم غزا الطريق والمنازل والتصق حتى بالبشر وببعض الشجيرات التي نَمَت خِلسةً وسط علب الصفيح. على الأرض بدا الرّماد المتراكم سميكاً لدرجة راحت معها قدمي تنغرس مع كل خطوةٍ مخلّفةً وراءها رَسماً لحذائي العتيق. معظم بيوت الصفيح فقدت هيكلَها وتلاشَت، ولم يتبقَّ منها سوى بعض الأكواخ التي شُوّهَت بالكامل. الازدحام واكتظاظ الأهالي المتجمهرون في أكثر من مكان حالَ دون تقدّمي باتّجاه الزقاق الفَرعيّ الضيّق حيث يركن كوخنا الكئيب.

سيّدةٌ أربعينيّةٌ تقدّمَت نحوي.. في البداية لم أتبيّن ملامحَها جيّداً بسبب كثافة الدّخان، ولكن عندما دنَت تعرّفتُ فوراً إلى صاحبة محل السمانة الذي أبتاع منه حاجيّاتنا.. ابتسامةٌ شاحبةٌ عَلَت وجهها، ودون أيّ مقدّمات ربَّتت على كتفي، ثمّ أخذت تواسيني مترحّمةً على أبي الذي ارتاح من عذابات عاشَها، وأخرى كانت ستنتظره بعد الحروق التي نالَت منه جرّاء انفجار عبوات الغاز المتراكمة خلف المنازل..

شعرتُ بدوارٍ شديدٍ يجتاحني وبشلَلٍ يغزو كاملَ جسدي، حتى لساني صار عاجزاً عن النطق، بينما عانقَت الدّموع أهدابي وأَبَت انهماراً يخفّف عنّي آثار فجيعةٍ أصابت روحي بمَقتل.. وخلال ثوانٍ، كنت على الأرض ممدّدةً جسداً صَلبًا وقلبًا خريفيًّا على وشك الذبول.

الحلم

ما زلتُ حيّاً
وأؤمن بأتيٍ سأجد الطريق
يوماً ما . .
إلى ذاتي ، إلى حلمي
إلى ما أريد

محمود درويش

استيقظ أبي باكراً على غير عادته، وراح يفتّش عنّي عبر نظراته التي نقّلَها في كل زوايا الكوخ. وعندما لم يلتقِ بأيّ أثَرٍ لي، اختبر معاودة النوم مجدّداً لكنّ الفشل تلطّى له وراء كلّ محاولة. هو أيضاً قلِقٌ على أمّي وإخوتي، وينتظر عودة العم حسن ليوافينا بأخبارهم.

في أوّل ليلةٍ لنا بعد رجوعنا إلى المخيّم، ظلّ مستيقظاً معظم الوقت، لكنّه أبى التقلّب في فراشه حتى لا أتنبَّه لأرَقه. المسكين حاول الهروب من أيّ لقاءٍ قد يجمع بين نظراتنا، خجلاً منّي، معتبراً وجودَه السبب في الحؤول دون اكتمال الحلم..

وعلى حين ملَل، عندما عجز عن التقاط أيّ مؤشرٍ للنّعاس، قرّر الخروج من انتظاره العقيم، والقيام بأيّ أمرٍ أثناء ترقّبه لعودتي.. برغم عَجزه والصمت الذي ضرب أصقاع جسده ذات حادثٍ منذ ما يُقارب السنتين، إلّا أنّه ظلّ متمسّكاً بإرادةٍ صلبةٍ تتجلّى عندما تتملّكُه حاجةٌ ما. وهو الآن، في غياب أيّ حضورٍ حوله، يريد أن يُثبت لنفسه قدرتَه على تلبية احتياجاته، دون طلب العَون من أيّ إنسان.

متمسّكاً بساق الكنبة القديمة، ومستخدماً يديه الساكنتين منذ زمنٍ، ارتفع بجسده.. وبعزيمةٍ متأجّجة، وبعد محاولاتٍ متكرّرة وموجِعة، نجح في الاستقرار فوق كرسيّه المتنقّل، وباتَت إمكانيّة حركته أكثر سهولة. ثمّ استرخى قليلاً في ركونه قبل أن تلتقط نظراتُه وعاءَ الطعام الذي أعدّته جارتُنا، وترَكتُه صباحاً قبل مغادرتي البيت فوق الطاولة تمهيداً لتناوله ساعةَ الغداء.

بذل والدي مجهوداً لدَفع الكرسيّ باتّجاه الطاولة، وعندما وصل إلى غنيمته وجدَها وقد أُشبِعَت برودة. الصقيع الذي اجتاح ثنايا المكان امتدّ ليتغلغل فيما يحتويه الوعاء، فصار غير صالح للأكل.. مُهمَّةٌ جديدةٌ حاول أبي أن يشغَل نفسه بها، فوضع الوعاء على ركبتَيه واتّجه بكُرسيِّه إلى الفرن وقام بإشعاله. وعندما رفع الوعاء بيدَيه المرتعشتين سَعيًا لوضعه على النار، انزلق ليتبعثر معظم ما فيه فوق قدميه وعلى الأرض.

صرخ أبي متفاجئًا بمّا حصل، ثمّ استحال صراخُه بكاءً فيه أنينٌ موجِعٌ على ذاته الضعيفة وفشله وبؤس حاله.. صوتُه المكتوم على مدى سنتين، تمرَّد على حين عَجزٍ محطّمًا قيوداً التفَّت حول أوتاره وكبّلَتها.. فصدح عاليًا متخطّيًا حدود المكان وتعالَت أصداؤه لتنهش فضاءَ المخيّم. تنبَّهَت جارتُنا إلى الصوت وأصابَها الهلَع، فطرَحَت ما كان بيدها من أدوات تنظيف ثمّ هرولت إلى الخارج لتقَصّي الأخبار. الصوت المنبعث من كوخنا زاد من توتّرها وبعثر صلابتها، لكن الخوف لم يمنعها من التقدّم والدخول..

قرعَت الجرس عدّة مرّات، وعندما لم تأتها أيّ إجابة برغم البكاء والأنين المنبعث من الداخل، ظلّت تدفع الباب العتيق بكتفها وقدمَيها حتى انصاع لها، ووجدت نفسها في مواجهة أبي الغارق في بقايا الطعام، يبكي حظَّه وقلّةَ حيلته! المشهد على كآبته، دفعها إلى الضحك كردّة فعل عفويّة على القلق الذي شوّه سكينتَها وأجفل روحَها. وعندما هدأ

ضحكها الهستيريّ، سارعت إلى حيث يجثو أبي، وراحت تجمع بقايا الطعام المتناثر في كل مكان.

انشغَلَت جارتنا في التنظيف ولملمة ما تبعثر، وفي كلّ ذلك لم تنتبه إلى رائحة الغاز التي ملأت القاعة الكبيرة بعد أن انقلب الوعاء فوق النار المشتعلة وأطفأها بينما استمر الغاز في التسرّب على غفلةٍ من أبي ومنها.. أثناء عملها، أخذت جارتنا تبثّ لأبي كلمات ثَناءٍ وتحثّه على الصبر والمكابدة ريثما تجتمع أسرتنا مجدّداً. كانت تعلم مقدار حزنه وإحساسه بالوَهن، فحاولت قدرَ طيبَتها أن ترفع عن قلبه بعضاً من كَمَدٍ ويأس.

عندما أنجزت عملها، وضعت الوعاء بما تبَقَّى فيه من طعام على الفرن، وبمجرّد أن أشعلت عود الثقاب التهب المكان بنيرانٍ امتدّت من بين يديها لتطال الفرن ثمّ الأثاث المجاور له.

نيرانٌ انتشرت سريعاً لتأكل جميع ما يقف في مواجهتها، وما هي إلا لحظات حتى انقَضَّت على قارورة الغاز التي ما لبثَت أن انفجرَت مُحدِثةً دويّاً قويّاً صخبت به أرض المخيّم..

وهكذا.. اشتعل الكوخ طاوياً بين جنباته أباً عاجزاً بروحٍ تنبض حياة، وجارةً طيّبةً بقلبٍ من ياسمين!

وليت الكارثة اقتصرَت على هذا القدر من الخراب، إذ سرعان ما تمدّدَت النيران لتنال من بيت جارتنا ثمّ البيت المقابل له، حتى أنّها طالَت قوارير الغاز القديمة التي ركنها أهل المخيّم خلف أكواخ الصفيح بعشوائيّة.. وليتهم لم يفعلوا!

تتالَت الانفجارات الصغيرة المتسبّبة بها قارورةٌ هنا لم تفرغ نهائيّـًا من محتواها وأخرى هناك ما زالت على قَيد الصلاحيّة، حتى التهمَت النار معظم الأكواخ في زقاقنا الضيّق وارتفع الدّخان الأسود الحارق في السماء، واتسعَ مجاله بفعل الرياح التي حملَته مسافات بعيدة.

فجأةً، تبدّلَت معالم المكان وغدا كمن ضربه زلزالٌ أو فاضَت عليه سيولُ بركان. وبطرفة هدب تغيّر كلّ شيء، وصار للمخيّم حكايةُ مأساة جديدة أُضيفَت إلى معاناته السابقة.. أمّا عن أسرتنا المنكوبة فصفَعَتها الفاجعة بعد الشَتات الذي قوَّض سكينتَها، وها هي قد باتَت على شفا خسوفٍ تام..

عائلتُنا التي لم تَهنأ باستقرارٍ، ولا عَرَفَت أَمنـًا منذ أن تخطّينا عتبة الوطن المنكوب لاجئين إلى أرض الميعاد! إلى حيث ستهنأ أرواحنا وتدعونا إلى رقصةٍ على ضفاف الحلم! إلى حيث سيحتوينا ظلٌّ وارفٌ يحجب عنّا شظَفـًا وتعبـًا وخوفـًا!

إلى حيث التّيه! شاردون في أرض الشَتات، تكبَّدنا الكثير في سبيل وَهمٍ عظيم.. ثمّ عشنا حلم العودة، لنتعثّر بنا مكبّلين بسواد كابوسٍ يأبى الزوال.. لم تحتوينا تربةٌ غُرسَت فيها جذورُنا، ولا عثرنا على الدّفء في أرضٍ استهجَنَت بذورَنا..

وحدَهم من عاندتهم الحياة ولفظَت وجودَهم يستطيعون أن يلمسوا جَدبَ قلوبنا، ويستشعروا خَفقـًا موجِعـًا للروح، وشقاءً يرتدي أيّامنا ومشاعرَنا وأحلامـًا تجرّأت ذات رجاءٍ على المرور وإلقاء تحيّةٍ عابرة.

الأمطار الغزيرة مع سيّارات الإطفاء التي أرسلَتها البلديّة، عملَت على إخماد جنون الحريق بعد مكابدةٍ طويلة.. لكن المشهد تراءى لأهل المخيّم مأساويّاً بعد أن احترق زقاقٌ بالكامل بما يحتويه من بيوت. الأضرار الماديّة كبيرة مقارنةً بالأضرار البشريّة التي كان أبي المسكين أوّل ضحاياها مع جارتنا الطيّبة.. أشخاصٌ آخرون طالَتهم الحروق ونقلوا إلى المستشفيات القريبة للعلاج، بعضهم بإصابات طفيفة وآخرون حالتهم تستدعي المتابعة، ولكن دون تسجيل وفيّات أخرى.

كلّ ذلك حدث أثناء غيابي، أو بسببه!

لو لم أغادر صباحاً لما شعر أبي بالوَحدة والعَجز، ولما اضطرّ إلى المجازفة من أجل ملء فراغٍ احتلّ ثنايا روحه. كان عليّ أن أكون حاضرةً باستمرار، وأن لا أتركه متفرّداً بذاته.

هكذا وعدتُ أمّي، وعاهدتُها أن يكون لنا جميعاً لقاءٌ قريبٌ على أرضنا وفوق تلّنا البعيد.. أخبرتُها أنّني سأكون بديلاً عنها في رعاية والدي، ولن أتوانَ عن خدمته تحت أيّ ظرف وفي أيّ توقيت..

لكنّني.. خنتُ العَهد!

***

صحوتُ على ثرثرات نسائيّة.. أصواتٌ متداخلة، لنساءٍ متباينات في العمر، تحكي وتضحك وتشتم وتسخر ثمّ تحمد الإله على نعمة الصمت وحفظ اللّسان. نميمةٌ من هنا تسردها عجوزٌ متصابية، وغِيبَةٌ تتسلّل من بين شفاه فتاةٍ حاسدة، وأخبارٌ بعضها صحيح وأكثرها كاذبٌ تبُثّها نساءٌ حالمات بواقعٍ أفضل وحياةٍ آدميّة.

جلسةٌ نسائيّةٌ لطالما حضرتُها وعاينتُها، وشاركتُ بها في بعض الأحيان.. اجتماعٌ أسبوعيّ تكرّر على مدى سنوات تحت رعاية السيّدة لولية وفي كنف غسّالتها التي أضحت محجّة نساء المخيّم ومحورَ تقديرهنّ.

نعم، أنا في حَضرة السيّدة «لوليَة» وفي أحضان بيتها الرطب، حيث تعيش كأرملةٍ وحيدةٍ في انتظار اللاشيء، مثلها مثل معظم سكان المخيّم.

السرير حيث أتمدّد يبدو مريحاً بعض الشيء.. على رغم صغره وصوت الأزيز الذي ينبعث من مفاصله الصدئة عند كلّ حركة منّي. إلّا أنّه، وفي تصنيف الأَسِرَّة، يحتلّ موقعاً مقبولاً مقارنةً بفراشٍ لصيقِ الأرض احتضن غفوتي على مدى سنوات عجاف.

نقّلتُ نظراتي في زوايا الغرفة الصغيرة حيث يقبع سريري.. تبدو كعلبة كبريت بدون أيّ نافذةٍ مطلّةٍ حتى على الخراب. الجدران تكاد تُطبق على بعضها، وتعلوها صورٌ ملصقةٌ بطريقةٍ عشوائيةٍ لمطربين من جنسيات مختلفةٍ لم أتبيّن أحداً منهم، وأكاد أجزم أنّ الهدف من رَصفها هو إخفاء

معالمَ بائسة لا وسيلة للتخلّص منها إلّا عبر حجبها عن النظر. الغرفة تكاد تخلو من الأثاث بحيث لا يتعثّر النظر إلّا بخزانةٍ صغيرة الحجم مستقرةٍ أمام الحائط المقابل للسرير.. أمّا ما تبقّى من فراغٍ، فمشغولٌ بكتلٍ من الغبار المتراكم على مدى أيّامٍ أو شهورٍ أو ربّما سنوات..

أنا أعرف بيت السيّدة لولية من الخارج، لكنّني لم أدخله مطلقاً.. هو يشبه سواه من أكواخ الصفيح التي يفيض بها المخيّم، لكنّني فوجئتُ به متميّزاً بعض الشيء عن كوخنا الذي يتكوّن من قاعةٍ واحدةٍ كبيرة تختلط فيها المنامة مع المطبخ وحتى مع دورة المياه المحتجبة فقط بقطعة قماش.. عند السيّدة لولية الأمر يختلف، فالكوخ مقَسّمٌ إلى غرفٍ وإن كانت بمساحةٍ صغيرةٍ جدّاً ممّا يغذّي شعوراً بالخصوصيّة افتقدناه في كوخنا المحترق.

مع هذه الأفكار تيقّظ ذهنيا الغائب منذ وقتٍ غير محدّد المعالم بالنسبة لي. فجأةً تذكّرتُ فجيعتي بأبي، وحادثة الحريق الذي نشب بسبب تغيّبي عن البيت، وجارتنا المسكينة التي ذهبت ضحيّةَ طيبَتها وقلبها الدافئ.. تسارع نبضي وصارت أنفاسي متقطّعة، واجتاحني دُوارٌ اضطرّني إلى حجب نظري بواسطة كفّي حتى لا أستشعر بالسقف يسير بحركةٍ دائريّة.

إحساسٌ بالغثيان انتابني حتى ظننتُني سأتقيّأ كلّ ما في جوفي من خواء!

يا إلهي، مات أبي!

رغم عجزه، كان وجودُه يُهديني سكينةً وسلاماً أشعر معهما أنّ العالم لا يزال بخير. لكنّني الآن صرتُ يتيمة الأب، وشريدةَ الجسد والروح بعيداً عن أمّي وإخوتي. حتى جارتُنا التي حاولَت أن تكون أمّاً لي، خسرتُها أيضاً. وكوخُنا المقيت الذي طالما تأفَّفتُ من بؤس حاله، تلاشى رماداً وما عاد لي من سقفٍ يؤويني.

بعد أن استعدتُ كامل وعيي، صارت أصوات النساء في الخارج تأتيني أكثر وضوحاً. وتهادت إلى سمعي عبارات جعلتني أغوص في وجعي أكثر، وأصبح وجبةً دسمةً للتوجسّ والهذيان..

«من سيقوم برعايتها وقد باتت وحيدة؟».

«لا أحد من أهالي المخيّم يملك قدرةً على إعالتها، فالأوضاع لا تحتمل مزيداً من المسؤوليات».

«عليها أن تعمل لتصرف على نفسها، ولو اضطرتّ إلى الخدمة في البيوت».

«ستعيش أياماً صعبةً، إن لم تتمكّن من الالتحاق بأمّها وإخوتها».

«لو لم تترك العاجز وحدَه، لما حصل ما حصل.. فلتتحمّل نتائج إهمالها».

لم أستطع أن أتمالك شعوراً باليُتم والغُربة والوَحدة، وفزعاً سرى في شراييني عوضاً عن دمٍ تجمّدَ وتصلّب معه البَدَن، فرُحتُ أصرخ عالياً بصوتٍ حادٍّ غريبٍ عنّي.. بضع ثوانٍ ورأيتُني محاطةً بحَشدٍ من العيون

التي تآكَلَت فضولاً، بعضها ذابلٌ وبعضها الآخر حفر الكُحلُ طرقًا وزواريب بين جفونها.. شعرتُ بذعرٍ شديدٍ أصابني بالخرس، وكوسيلةٍ دفاعيّةٍ رفعتُ الغطاء لأحجب به رأسي وأغدو كشرنقةٍ مقفلةٍ على خوفها.. حشرية نساء المخيّم وصلت ذروتَها، والتهبت جينات التطفّل لديهن، بحيث راحت كلّ واحدةٍ تُمطرني تساؤلات حول أسباب الحريق ودوافع غيابي عن البيت وعن مبرّر تواجد الجارة عندنا، وعن وعن وعن.. اختنقَت أنفاسي، ورحت ألهث تحت الغطاء وأتصبّب عرقًا..

ولأوّل مرّةٍ، وبحدَثٍ غير متوقّع، أتتني النّجدة من السيّدة لولية التي صرخت في جَمهرة النساء وأخذت تضرب مؤخّراتهنّ بواسطة مقشّةٍ تحملها وترمي عليهنّ بالسباب والشتائم، وهنّ كالفئران يتقافزنَ هربًا من جنون عصبيّتها.

عندما فرغَت الغرفة من أيّ حضور، غرقتُ في بكاءٍ مريرٍ فاض على وجنتيّ.. كلّ الأسى الذي استشعَرتُه إثر حادثة الحريق تفجّرَ بركانًا لم أملك أمامه مقاومة.. بكيتُ كثيراً.. وبكيتُ طويلاً..! سكَبتُ عذاباتي سيلاً لم ينقطع إلّا بعد أن استشعرتُ خواءً في قلبي.. فكأنّني أرَقتُ وجعي مع الدموع، وأخلَيتُ دهاليز روحي من أيّ شعورٍ بالحزن أو الفرح. صرتُ صفحةً رماديّةً ليس لها انتماءٌ، وخارجَ مدار الوعي.. وصفَعَني الصمت!

لم أعرف كم مضى من الوقت وأنا جليسة السكون، حتى أتَتني السيّدة لولية واقتحمَت خَلوتي بعد أن استأذَنَت بالدخول! كم استغرَبتُ سلوكَها الرزين معي، وأنا التي اعتدتُ عليها عشوائيّةَ التصرّف.

قليلٌ من الوقت مضى ظلّت خلالَه صاحبة البيت ملتزمةً صمتَها المفتعَل، بينما راحت نظراتُها تثرثر في تعويضٍ عن سكوتٍ اضطُرَّت إليه مُكرَهة. ثمّ، ودون سابق توقّع، مدّت يدها وراحت بأناملها تلامس شعري وتمسح جبهتي المتعرّقة بكفّها وهي ترقُبُني بحنانٍ ما لمَستُه في عينَيها من قَبل..

ترى، ما بالُها! لمَ تبدّلَت بهذه الطريقة المفاجئة لتتحوّل من امرأةٍ مشاكسةٍ عنيدةٍ ساخرةٍ، إلى شبه أنثى بتقاسيم روحيّة أقرب إلى سمفونيّةٍ ناعمة! سبق وأخبرَتني أمّي أنّ كلّ من عرف السيّدة لولية قبل وفاة زوجها، خَبِرَ رقرقة مشاعرها ورهافةَ قلبها الطريّ، وأنّ التحوّلات البائسة التي نالَت منها حدثَت في توقيتٍ متأخّر. وقتها، لم أكن متيقّنةً من صحّة كلامها واعتبرتُه مجرّد ثرثرةٍ بين نساء المخيّم. لكنّني الآن على قناعةٍ أنّها من صنف الجنيّات الطيّبات التي تظهر على حين حاجة، ثمّ تتلاشى بعد أن تترك بصماتها الطيّبة بين حنايا الوجدان.

صمتٌ جديدٌ ضرب جذورَه بين قلبَينا، قبل أن يتمرّد الكلام بين شفتَيها وتقول بصوتٍ خافتٍ أذهلَ انتظاراتي: «تعازيّ الحارّة عزيزتي تَرَف.. حسنًا اسمعيني جيّدا، إنّ ما حدث يعتبر كارثةً حقيقيّة، لكنّ

الانغماس في الحزن والاستسلام لمشاعر سلبيّة لن يغيّر في الأمر شيئاً بل سيزيد الواقع سواداً.. أريدكِ قويّةً كما عرفتُكِ، ومن أجل ذلك اخلعي عنكِ خِمارَ الضعف، وحاولي أن تعيشي الأملَ من جديد.. سأكون معكِ وقربكِ، وستنيرين بيتي المتواضع عوضاً عن الفئران التي استوطَنَت زواياه. سنتقاسم همومَ الحياة، أعينُكِ وتواسيني حتى يقدّر الله لكِ لقاءً جديداً مع عائلتكِ.. ثقي بي، ستسير الحياة رغماً عن كلّ شيء».

السيّدة لولية أتَت في توقيتٍ صائبٍ لتنتزع من أعماقي فزَعاً كاد يستحكم منّي ذات يأس.. بالتأكيد هي لن تكون مطلَقاً مِثالاً للأم الحانية، لكنّها في المقابل لن ترتدي وشاح الساحرة الشريرة التي سترميني بلعناتها السوداء.. شكراً سيّدة لولية.. وعذراً عمّا اقترَفتُه بحقّكِ سابقاً من أفكار.

***

صحوتُ من النوم على غناءٍ منبعثٍ من الخارج.. هو صوت السيّدة لولية بحدّته وخشونته، والذي اعتدتُ سماعَه أيّام الآحاد أثناء ترقّبي لعمليّة الغسيل الروتينيّة.. هكذا عهِدتُها، دائماً تغنّي وتترنّم بغضّ النظر عن حالتِها النفسيّة، أو مزاجِها الذي غالباً ما يكون متعكّراً بسببٍ أو بغير سبب. لكنّني رغم ذلك أشعر أنّ المسألة مختلفةٌ هذه المرّة، فثمّة تردّدات فرحٍ تتلطّى خلف دندناتها. أكاد ألمس نشوةً تنبعث من بين كلماتها، وغبطةً تتربّع على عرش روحها..

نعم إنها سعيدة.. ودون أن أسعى لتقصّي الدوافع، أراهن أن لحضوري معها علاقة بذلك!

منذ سنوات وهي تعيش بين جدران الصفيح وحيدةً، تسامر نفسها، وتتقاسم مع ذاتها وجباتها ولحظات الفرح والحزن.. في الأمسيات الصيفيّة الطويلة، تستمرّ وحتى وقتٍ متأخرٍّ في التنقّل بين أزقّة المخيّم، وممارسة حشريّتها على كلّ من قد تصادفه. أمّا في ليالي الشتاء العاصفة فتَركُن داخل كوخها تثرثر مع ذاتها، ويمكن أن تدخل شجاراً طويلاً مع اللّا أحد..

وصفها سكان المخيّم بالمشعوذة، بسبب أصوات الضحك والبكاء التي طالما صدحَت من كوخها وتردّدت أصداؤها حتى مسافاتٍ بعيدة.. لكنّني الآن أرثي لحالها، وأعرف أنّها ظُلمَت من محيطها البائس شكلاً

ومضمونـًا. بِتُّ أستطيع، وقد شابَهتُها في الوَحدة، أن أتفهّم سلوكياتها المُستَهجَنَة، وأمنَحَها مبرّرات لكلّ شتيمةٍ أو أذيّةٍ ألحَقَتها بأيّ كائن.

استقَمتُ في جلستي على السرير، وشعرتُ بانزعاجٍ كبيرٍ جرّاء رائحة العرق المنبعثة من جسدي بسبب حرارةٍ مرتفعةٍ كادت تودي بي نحو الهلاك، لولا تدخّل القدَر الذي بدا حانيـًا عليّ لأوّل مرّةٍ منذ وقتٍ غير معلوم.

متهالكةً، غادرتُ السرير في تَتَبُّعٍ لمصدر الغناء، لأجدني في شبه مطبخٍ صغير، والسيّدة لوليّة تقف في وسطه تغسل بعض الصحون، ويكاد جسدها الممتلئ يغطّي كامل المساحة الفارغة دون أن يترك مجالاً لتسلّل أيّ كائنٍ آخر. كانت تدندن بصوتها الخشن وتهزّ مؤخّرتها وتحرّك الصحون بين يدَيها وكأنّها تراقص أحداً ما.. في البداية، استمرّت في غنائها دون أن تتنَبَّه لحضوري، غير أنّ ضحكةً مكتومةً منّي جعلَتها توقف حلقة الغناء الراقص وتلتفت نحوي.

أصابني الفزع بالجمود، فأنا اعتدتُ على ردّات فعلها المتوحشّة نوعـًا ما، وتوقّعتُ صفعةً تأتيني وتزلزل جسدي المتهالك من المرض والحزن. ويا لهَول صدمتي عندما رأيتُها تطلق ضحكةً هستيريّة، ثمّ تمسح كفّيها بطرف فستانها المبلول، وتُمسكني من ذراعَيَّ لتبدأ بمراقصتي على أنغام صوتها النشاز!

برغم تعبي استجَبتُ لهذيان جسدها وجنونها، ورحتُ بدايةً أتمايل مع خطواتها حتى لا أُخجِل اندفاعَها، ثمّ شيئًا فشيئًا شعرتُ بجسدي يتلاشى ويغدو كريشةٍ تحلّق في فراغٍ كبيرٍ.. وصرتُ أرقص وأتمايل بعينين مغمضتين وقلبٍ مفتوحٍ على الماضي بظلاله البيضاء وذكرياته الموشومة في الروح..

لم أتمكّن من حجب عبرات غافلَتني وانسابَت على سَهوٍ منّي، فالتقَطَتها السيّدة لولية التي توقّفَت فجأةً عن الغناء والرقص، وبأناملها الغليظة مسحَت وَجنتيّ ثمّ احتضنَتني بحرارةٍ، وأنا التي لم أدرك سابقًا أنّ قلبًا كالّذي في جوفها يمكنه أن يمنح دفئًا بهذا الدَّفق!

وكطفلةٍ صغيرةٍ أمسكَتني من يدي وساقَتني خلفها، دون أيّ مقاومةٍ منّي. خرجنا إلى فناء البيت حيت رُصِفَت مجموعةٌ من الكراسي البلاستيكيّة استُخدِمت البارحة من قِبَل النساء في جلسة النميمة. تراءَت الشمس في ذروة عطائها مع غيابٍ شبه كاملٍ للسحب التي رافقَت أيّامنا السابقة. جلسنا في صمتٍ تامّ، فلا أنا امتَلكتُ رغبةَ الكلام، ولا حتى عثرتُ بين شفتَيها على استعدادٍ لإطلاق كلمات مواساةٍ جديدة.. ظلّت تتطلّع نحوي ثمّ تُشيح بنظرها إلى البعيد وهي تدندن كلامًا غير مفهوم، حتى انتفضَت فجأةً وراحَت تشمّ الهواء وانطلَقَت تعدو وهي تشتم وتلعن حظّها المتعثّر الذي يعاندُها ويأبى مصادَقَتَها.. تغلغلَت رائحة حريقٍ بين

شعيرات أنفي، وتراءَت حادّةً بما يوحي أنّ وجبة الطعام قد غدت في خبر كان.

على الرغم من عدم اتّزان سلوكيّات السيّدة لولية وقيامها بتصرفات قد لا تتلاءم أحيانـًا مع عمرها وحجمها وحتى أنوثتها المفقودة، إلّا أن صفاءَ قلبها جعلها في نظري في مكانةٍ متقدّمةٍ، وضمن قائمة الطيّبين العابرين بين ثنايا الوجدان.. وعلى حين شرود، تذكّرتُ العم حسن ومنزله القريب من بيت السيّدة لوليّة. فانسحَبتُ بهدوءٍ وتسلّلتُ خلف أشجار الليمون ثمّ سِرتُ بمحاذاة ساقية المياه حتى تراءى المنزل غير بعيد عن ناظري.

صار قلبي يخفق بشدّةٍ وارتفع مؤشّر توتّري وأنا ألمح الباب المغلق. في فناء الكوخ الأماميّ كان الصمت سيّداً ممّا يوحي بغياب أيّ حضورٍ بشري. من الواضح أنّ المكان ما زال ممتلئـًا بالفراغ، وفاقداً لأيّ نبضٍ أو حياة. لم يعد العم حسن من وراء الحدود، ممّا يعني أنّ أخباراً أترقّبُها لن تأتيني وستظلّ الحيرةُ تغزل شِباكها بين تلابيب الفكر حتى توقيتٍ ضبابيّ.

عدتُ أدراجي مُثقلَةً باشتياقٍ وتوجُّسٍ وحنين. بسبب الأحداث الأخيرة المتتالية بِتُّ في شَتاتٍ حتى عن نفسي. لا أعرف كيف ستسير أيّامي، وإلى أين ستمضي بي الحياة! خارطة طريقي أضحت مشوّشةً، وبين خطوطِها ظلالٌ سوداء شوّهَت معالم الأمكنة حولي وأردَتني في غُربة.

رجعتُ إلى بيت السيّدة لولية مهزومةَ الرّوح.. لمحتُها من بعيد تكنس المساحة الترابيّة الممتدّة من بيتها حتى بستان اللّيمون، وترفع عنها بقايا أعقاب السجائر وقشور الفستق الملقاة عشوائيّاً هنا وهناك. عندما رأتني، رفعَت المقشّة عاليّاً في حركة تهديدٍ لي ووَعيد، ثمّ أخذَت تناديني بصوتها الغليظ.. دنوتُ منها على حذرٍ، فمزاجها في حالٍ متقلّبٍ باستمرار، ولا أحد يستطيع أن يفهم تردّدات انفعالاتها.

عندما دنوتُ من مكانها، توقّفَت عن الحركة وراحت ترقُبُني بنظراتٍ حادّةٍ أربَكَتني، فصرتُ أتلكّأ في سَيري وأتظاهر بانشغالي في نفض التراب العالق بين ثنيات الفستان، وهو أمرٌ لا يحتلّ عادةً أيّ أهميّةٍ في قاموس سلوكيّاتي.

خشيتُ أن تكون قد ارتدَت مجدّداً قناع السّخط والنّقمة على النّاس أجمعين، وأن تجعل منّي أولّ فريسةٍ تنقضّ عليها، وتُسرِف في إفراغ كامل عذاباتها على ضَعفي!

لكنّني أحمد الله على الخذلان الجديد الذي ضرب توقّعاتي، فها هي تصدح بضحكتها المجنونة وتلوّح بالمقشّة المستقرّة في يدها، بينما جسدها السمين يتراقص بعشوائيّةٍ ويتمايل دون أيّ ضوابط.. وبحركةٍ مباغتة، أسرَعَت نحوي وشدّتني من يدي لتسوقَني كنعجةٍ مهزومةٍ وهي تثرثر بكلمات سريعة، لم أتبيّن منها سوى كلمة «فطور».. وفعلاً، عندما دخلنا إلى البيت كان ثمّة طاولة صغيرة يحيط بها مقعدان صغيران

ويعلوها صحنٌ كبيرٌ تنبعث منه رائحة البيض المقليّ. دعَتني للجلوس، وأحضرَت رغيفًا كبيراً من الخبز وضعَته في حِجري وطلبت منّي الإسراع في تناول الطعام قبل أن تعود إليها شهيّتُها، ويحصل ما لا يُحمَد عُقباه..

طيّبةٌ جدّاً هذه الأرملة، وعفويّةٌ في سلوكياتها لدرجة البَلَه.. لكنّني أحببتُها فعلاً، وأَلِفتُ بساطتَها واختلافَها.. نظرتُ إلى وجهها الممتلئ، وطبَعتُ ابتسامةً صغيرةً على شفتَيّ قبل أن أنقضّ على الطعام لأملأ خواءً سكنَ معدتي منذ ما يقارب اليومين.. وهي في كلّ ذلك تترصّد حركة يدي في نزولها إلى الصحن وطلوعها نحو الفم، وتبتلع ريقًا يكاد يسيل اشتهاءً.

***

مضى أربعة أيّامٍ وأنا مستقرّةٌ عند السيّدة لولية، لا أفعل شيئًا سوى مساعدتها في الأعمال المنزليّة، وتناول ما تيسّر من الوجبات، والنوم في توقيتٍ متأخّرٍ بعد إتمام مهمّتي الجديدة المتمثّلة بتسليّتها ومبادلتها الأحاديث حتى يطرق النعاس جفنَيها. لكنّني حزينةٌ جدّاً، وبالي ما يزال مشغولاً، وأكاد أتشظّى قلقًا على أمّي وإخوتي خصوصًا بعد الغياب الطويل والمستمرّ للعم حسن.

هو لم يعُد منذ رحيله، لسببٍ أجهله، ربّما أُقفِلَت الحدود، وهو الأمر الذي أفَضّل التفكير به والاقتناع بحيثياته بعيداً عن أيّ هواجس أخرى.

والآن، بعد أن استرجَعتُ بعضًا من نشاطي، وانسحَبَت الحرارة منّي بكلّ تردّداتها، بتُّ قادرةً على التنقّل ومغادرة المخيّم. وهذا فعلاً ما أنوي القيام به بهدف التقصّي عن أخبار عائلتي. سأتردّد على مختلف النّساء اللّواتي خِطنَ فساتينهنّ عندنا، فربّما تمكّنَت أمّي من التواصل هاتفيًّا مع إحداهنّ تاركةً رسالةً لي.

القائمة تبدو طويلة، لكنّني سأحصرها بالأكثر تردّداً على أمّي التي إن فعلَت، فستنتقي حتمًا واحدةً من بينهنّ لتُودِعَها الرّسالة.

ومن تعثُّر حظّي أنّ السيّدة شَهربان تحتلّ المقدّمة من بين النساء الأكثر تعاملاً مع أُمّي. وبالتالي سأضطرّ إلى لقائها مجدّداً وسريعًا، والإصغاء إلى سمومٍ تبثّها على مسمعي دون أدنى تعاطفٍ مع ضعفي. لكنّها ليست المرّة الأولى التي سأتواجه فيها مع غلاظة روحها، وسأعرف حتمًا كيف

أتصدى لصَلَفَها بلامبالاةٍ مُصطنَعَةٍ ريثما أتمكّن من تجاوز حضورها ورَصفها في مساحةٍ معتمةٍ من الذاكرة.

اليوم صحوتُ باكراً قبل أن تباغتني السيّدة لولية وتُغرقني في حوارات عشوائيّة تمتدّ لوقتٍ طويلٍ، وتُعمِل حشريّتها فيما أنوي القيام به، فتعطّل مشروعاً رسمتُه ليومي، في الوقت الذي أحتاج فيه إلى كلَّ دقيقةٍ للبحث والاستقصاء.

تسلّلتُ من الباب في توقيتٍ مبكّرٍ جدّاً. وبمجرّد أن خرجتُ من علبة الصفيح حتى صفعَتني الرّيح الباردة التي عصفَت طوال اللّيل، واستمرّت في جنونها دون أيّ تعاطفٍ مع حال البشر الكادحين والسّاعين لأرزاقهم وقُوت أولادهم.

كانت درّاجتي العتيقة مركونةً قرب جذع شجرة اللّيمون القائمة وسطَ فناء البيت. كم اشتَقتُها وأنا التي لم أعتَد على فراقها مدّةً طويلةً كالتي مرَّت. بدَت في حالٍ جيّدة بعد أن زالَت عنها الرّمال، وجرى تنظيفها بشكلٍ مُتقَن. سأشكر السيّدة لولية لاحقاً على عنايتها بها، لكنّني الآن سأغادر سريعاً قبل أن تلتقط غيابي ويتأجَّج فضولُها فتُشوّه خارطةَ يومي بالكامل.

هدفي الأوّل إذاً سيكون منزل السيّدة شَهربان! بالرغم ما يعتريني من مشاعر سلبيّة، اتّخذتُ قراراً بعدم السماح لأيّ شرارةٍ سوداء أن تقتحم

أعماقي وتُلهب داخلي. سأبقى على الحيّاد إزاء إساءاتها، لكنّي لن أجعلها تتجاوز الخطّ الفاصل بين غيظي والجنون.

انطلَقتُ وقلبي مشبَعٌ بتوتّرٍ وارتباكٍ.. ثمّ، ذات حنينٍ، شعرتُ بقلبي يتهاوى وأنا أقترب من زقاق بيتنا المحترق. لم أُعايِن المكان منذ الفاجعة، والأصحّ أنّني لم أملك شجاعةً كافيةً للقدوم إلى حيث حصل الخسران الكبير..

لروحك السلام يا أبي، وعليك الرحمة جارتنا الطيّبة..

يا إلهي.. ما هذا الكمّ الهائل من البشاعة!

ضاعت معالم المكان بين رمادٍ وسواد، وبات الزقاق أشبه بأنقاضِ روح! كل الوجع الذي سكن هذه البقعة سابقًا، غدا رفاهيةً أمام هذا التحوُّل المأساويّ. بيوت الصفيح صارت كمغارات تنعق فيها الغربان، ولم يتبقَّ من مقتنياتها سوى أجسامٍ متفحّمةٍ غريبة.

فجأةً تذكّرتُ أمراً جسيمًا احتجب عن ذهني العليل خلال الفترة السابقة، برغم تداعياته الموجِعة على مستقبلي.. أوراقي الثبوتيّة!

كانت في بيتنا قبيل حادثة الحريق، لا بدّ وأنّها استحالَت رماداً وتناثرَت حروفُها هباءً.. كيف لي أن أتخطّى الحدودَ يومًا، وأنا لا أحمل من هويتي إلّا ملامحي وذكريات المكان! أكاد ألمح رجال الحدود وهم يقفون حاجزاً يحول بيني وبين العبور، ويُلصقون باسمي نَعتَ «الغريبة»!

لم أحتمل هذا المشهد الذي تساقط ألمـاً على قلبي، فرحتُ أرتعد ضعفـاً، وأنسكب قصاصات بالية، وبقايا ذات.

موجوعةٌ أنا من الشَتات!

في نفسي توقٌ لعبور الحدود وإراقة المشاعر سيلاً، لكن قلبي هزيلٌ.. منهكٌ، ووحيد.

كم أحتاجكِ أمّي لتساندي نبضي وتنفضي عنّي وطأة الحزن.. كم أحتاج أن أصدح بنداءٍ يفجّر بركاني، فيغدو وجعي صدى تبعثره دهاليز الغياب.. في داخلي كمّ من حكايا الشوق المعتّق، فراغ باهتٌ، وكمشة أنين..

أحتاج جسراً من غيمٍ يرفعني من اللامكان، ويغرسني وردةً في حضنٍ قَصيّ.. في حضنكِ أمّي. لكنّه المستحيل! ورغم ذلك سأبقى وفيّةً للمُحال، لعلّ في إخلاصي شرارةً قد تستدعي تعاطف القدر معي، فيتحقّق ما أصبو إليه!

وبسكونٍ جنائزيّ غادرتُ زقاق بيتنا العتيق، وأكملتُ طريقي دون أن ألتفت نحو لهفتي التي تركتُها ترتع بين الردم والرماد.. علَيَّ من الآن وصاعداً أن أتعلّم بناء الحواجز بيني وبين الأمكنة والأشياء وربّما البشر، حتى لا تطبع الخسارات نقوشَها على روحي وتصيبني بفجيعة الفقد مرّاتٍ جديدة.

تخطَّيتُ عتبة المخيّم سريعـًا وقلبي جمرةٌ تتلوّى بين اشتعالٍ وانطفاء، وانطلَقتُ باتّجاه الطريق الساحليّ بعد أن عطَّلتُ ذهني عن أيّ محاولةٍ للتذكّر أو التأمُّل أو حتى التفكير. هو نفس الطريق الذي سلَكتُه عشرات بل مئات المرّات من قَبل، وربّما أكثر.. لكنّني أحسّ بغربتي عنه، وانسلاخي عن كلّ ما يصادفه بصري من مبانٍ ومحلّاتٍ تجاريّة وطرقات!

حتى الشاطئ الرمليّ الذي ارتَدتُه كثيراً للقاء العم عُدَيّ، تراءى مختلفـًا!

ما هذا! هناك حاجزٌ منخفضُ العلوّ، يفصل الطريق العام عن المدخل الترابيّ المؤدّي إلى الشاطئ.. من أين أتت هذه البوابة الحديديّة الصغيرةُ خضراء اللّون؟!

أنا على يقينٍ أنّني لم ألحَظها هنا مطلقـًا من قَبل، وكنت أعبر الدرب الترابيّ على دراجتي دون أيّ عراقيل، حتى عندما جئت باحثةً عن العم عُدَيّ مؤخّراً، في ذلك اليوم العاصف المشؤوم، انسرَبتُ نحو البحر دون أن يمنعني عائق!

أوقفتُ درّاجتي جانبـًا، وأخذتُ أتأمّل المشهد المُستجَدّ.. أنا على يقينٍ أنّني لم أقفز مطلقـًا من فوق هذه البوّابة الحديديّة من قَبل، بل كنت في كلّ مرّة أدخل بدرّاجتي وأركنُها فوق الرّمال.. وفي المقابل لا يُعقل أن

تكـون هـذه البوّابـة حديثـةُ العهـد بالمكـان، فقـد تشـوَّهَت معالمُهـا بفعـل الصّدأ وتآكَل لونُها في أكثر من مكان!

غرِقـتُ في دهشـتي، وبقيـتُ متسـمّرةً مكـاني أرقُـبُ اللّامعقـول حتـى لفَحني هواءٌ باردٌ اخترق ثيابي وجلدي وعظامي نافذاً إلى الروح..

ارتعَشـتُ حـى كـدتُ أتهـاوى علـى الأرض، وسـريعـًا اتّخَـذتُ قـراري بالعودة إلى هذا الحيّز المكـاني لاحقـًا للاستفسـار عمّـا أثـار ارتيـابي، أمّـا الآن فعلَيّ السعي لإتمام ما أتيتُ من أجله. التَحَفتُ جيّداً بشـالي الصـوفيّ وتدثَّرتُ بالأمل. ثمّ، وبارتيابٍ كبيرٍ، انطلَقـتُ نحـو منـزل السيّدة التي – وبغطرسـتها المسـتفِزة – ستضـيف حتمـًا إلـى ارتعاشـي وبَـردي وخـوفي، صقيعـًا في عمق الوجدان..

***

أمام الباب الكبير الذي تتلطّى خلف دفَّتَيه غلاظةُ روح، وقفتُ أجمع أشلاء هَدأتي، وأستعدّ لاستقبال عنجهيّة السيّدة شَهربان وشراسة طباعها. رحتُ أُزيل بعض الوحول التي تطايرت عن الأرض والتصقَت بطرف الفستان. ثمّ، وببعض اللُّعاب الذي بلّلتُ به كفَّي، بدأتُ أُمسّد شعري المتشابك بفعل الرّياح القويّة. وقبل أن أقرع الباب، تنبَّهتُ إلى حذائي الغارق في أوساخ الطريق. وبحركةٍ بسيطة أعدتُ له بعضًا من بريقه بعد أن مسحتُ واجهتيه الأماميّتين بأطراف ساقَيّ.

والآن، وبأناقةٍ مفقودة، بِتّ في جهوزيّةٍ تامّةٍ للمواجهة.. بدأتُ أقرع الجرس وأستكين، وعندما لم يأتِني أيّ جواب انهَلتُ على الباب طَرقًا عنيفًا رغم علمي بِمَقت السيّدة شَهربان لهذه الحركة الصبيانيّة، وبالشَرَر الذي يتطاير من ملامحها إن حدَثَت. أشعر برغبةٍ عارمةٍ بالثأر لذاتي من كلّ شعورٍ بغيضٍ سكَبَته في قلبي، لكنّني لن أتمادى في ذلك الآن. على الأقلّ، ريثما أُنجزُ ما تحامَلتُ على ذاتي من أجله.

دقائق مرَّت دون أيّ استجابة! أكاد من فرط السكون أسمع حركةَ عقارب الساعة الكبيرة المعلّقة على الحائط، في الرّدهة الواسعة المطلّة على الصّالة..

أين أنتِ سيّدة شَهربان؟ لا يُعقل أن تغادري البيت في الوقت الذي أحتاج حضوركِ فيه هنا!

رغـم معرفتـي بطبعهـا المتـوحّش ورفضـها الاخـتلاط بمحـيطٍ تعتـبره وضيعـًا مقارنـةً بنَسَـبها المتأصّـل، إلّا أنّني كثيـراً مـا رجَـوتُ أثنـاء زيـاراتي السابقة لها أن تكون قد غـادرَت في زيـارةٍ بعيـداً عـن منزلهـا. وعديـدةٌ هـي المرّات التـي تمنّيـتُ فيهـا أن يُخبرَني أحـد الجيـران بهجرتهـا نحـو بلادهـا البعيدة بغير نيّةٍ للعودة. لكنّ رغباتي كانت تنتشر رماداً، بمجرّد أن تُطلّ مـن وراء دفّة الباب بِكُرة الصّوف الحمراء المستقرّة فوق رأسها، وتبدأ بتغريـد موشّحات الشَّتيمة والتحقير..

تكبّرُها على الجميع ونفورُها من محيطهـا شـنيعٌ، لكنّني أحتاجـه الآن لضمان وجودها في البيت.. أرجوكِ أن تفتحي الباب شَـهربان المُستفِزَّة.. ليتكِ تكونين ولو لمرّةٍ واحدةٍ مبعثـًا للنور في قلبي..

انتظرتُ لدقائق وأنا أغلي وأتشظّى، قبل أن أسمع حفيفـًا خافتـًا خلـف الباب، الذي ما لبث أن فُتح لتطلّ الكرّة الحمراء مـن خلـف دفّتـه.. أخيـراً أتت من أنتظر جَلافتَها بفارغ الصبر.

مـا إن تعانقَـت نظراتُهـا مـع حضـوري حتـى شـهَقت كِلانـا بصـوتٍ جَهوريّ!

أُصِبتُ بذهولٍ من هيئتها التي تبدّلَت كثيراً، حتى خِلتُني أمـام امـرأةٍ لا أعرفها! اعتدتُ، في زياراتي السابقة لها، أن أراها بكامـل أناقتهـا وتبرّجهـا، حتى ظننتُها من فصيلةٍ تختلـف عنّـا نحـن بنـات ونسـاء المخيّم. ولطالمـا

حسدتُها على رفاهيّةٍ وفضاوة بالٍ. ما بالُها إذاً تبدو كالسيّدة لولية في مظهرها البائس!

كانت ملامحها شاحبةً، واحتلَّت الهالات السوداء مساحةً واسعةً حول عينيها، بينما نبتت الكثير من الشعيرات فوق شفتها العليا وأسفل ذقنها. وأمّا عن جسدها الممتلئ، فقد تراءى مترهّلاً تحت ملابس النوم القطنية، بدءاً من رقبتها وصولاً إلى كعبَيها! لأوّل مرّةٍ أحضر دون موعدٍ مسبق، فعاينتُها دون بَهرجةٍ وتحسينات وإضافات.. وإذا بي أكتشف أنّني أمام امرأةٍ عاديّةٍ لا تمُتّ إلى عالم الجمال بأيّ صلة.. وكلّ التصوّرات السابقة التي بنيتُها حول حضورها تناثَرت وتلاشَت، فوقفتُ أرقُبها بعينين تقطر ذهولاً.

أمّا هي، فقد صعقها حضوري المباغت، خصوصاً مع علمها بمشروع عودتنا إلى أرضنا البعيدة خلف الحدود. فانبعثَت من بين شفتيها المتلاشيتين شهقةٌ تردّدت أصداؤها في المكان.. ثمّ تسمرَّت وتيبّسَت كأنّ شللاً ضرب أوصالها وأَرْداها في عَجزٍ حتميّ.

وقفنا في مواجهة بعضنا البعض لثوانٍ معدودة، قبل أن تصرخ في وجهي بنبرتها الحادّة: «أنتِ من جديد! ما الذي أتى بكِ؟ ألم تغادري مع عائلتكِ بغير عودة، أم أنّ الحياة هنا طابت لكم أكثر! تتسوّلون وتستعطفون وتمارسون طقوسَ حياةٍ مُغرية لم تتذوّقوا لها مثيلاً في بلادكم»!

رغم قسوة عبارتها، إلّا أنّني لم أُعِرها أيّ اهتمام، كما أنّها لم تستدعِ غيظي لانشغالي بما هو أهمّ. من الواضح أنّها لا تعلم عن أمرنا شيئًا، ممّا ينفي احتمالَ تواصل أمّي معها مؤخراً.. اعتمرَتني خيبةٌ بدّلَت مزاجي وملامحي فتلاشت رغبتي في الكلام، وانسحَبتُ بصمتٍ دون أن أسكب أيّ حرفٍ أو أرسم أيّ ردّة فعل. وبسكونٍ تام، رحتُ أنزل درجات السلّم الطويل، في الوقت الذي وقفَت شَهربان بكامل ترهّلها ودمامَتها ترقُبُني وتبعثر لعنات تردّدت أصداؤها في الدهليز الطويل.

في ابتعادي كانت خيبتي تسابقني، وتهزأ من سذاجتي ويقيني.. تُقحمني في تساؤلاتٍ لا متناهية، وتُرديني في ارتياب.

لماذا يعاندني القدر بهذه الفظاظة! لماذا لا يكون دَمِثًا معي ولو لمرّةٍ واحدة! لو أنّه يصاحبني قليلاً، ويرافق هذياني كصديقٍ أو حتى كغريب.. لو أنه يتغلغل بين أنفاسي، ويُصغي لنداءٍ خبّأتُه بين التنهدات.. لو أنه يُهديني باقةَ عطرٍ، وبعضًا من ضَوعٍ مُنتَثرٍ هنا وهناك.. لو أنه يعانقُني!

ركبتُ درّاجتي وسِرتُ على غير هدى. صارت المشاهد تعبُر أمامي دون أن ألحَظَها، حتى الأصوات المتباينة وصخب السيارات والازدحام، كلّه تلاشى وكأنّه سراب. أنا خائفةٌ بدرجة ارتعاب، وعلى درجةٍ عاليةٍ وفق مؤشّر التّيه والضياع. لا أستطيع أن أظلّ خارج دائرة اليقين، أعيش الشكَّ لحظةً بلحظة، ويلتهمني التوجّس وجبةً شهيّة.

صوتٌ مفاجئٌ وغليظٌ لبوقِ سيّارةٍ صدح فجأةً لينتشلني من أفكاري، ووجدتُني في مواجهة ذلك الشاطئ الذي يخفي بين رماله حكايا بدأت تُلقي بثِقَل غموضها على قلبي..

يا عم عُدَيّ.. أيّها العجوز الغريبُ في حضورِكَ والغياب.. لماذا لم أعُد ألتقيك!ما الذي يشغلك! وما بال هذا المكان قد غدا مَبعَثـًا للريبة في قلبي.

أوقفتُ درّاجتي جانبَ الطريق، واقترَبتُ من البوّابة الحديديّة الصغيرة، ورحتُ أتفرّس فيها وأتأمّل تفاصيلها الصّدئة وخَضارَها المتآكل من زمنٍ جائرٍ وعَصفٍ وقَيظ. وبحركةٍ عفويّةٍ انحنيتُ لأمسك قِفلاً مُحكَمَ الإغلاق ومعلّقـًا بسلسلةٍ عتيقةٍ. من الواضح أنّ يداً بشريّةً لم تلمَسه منذ عهدٍ بعيدٍ، بحيث أنّ طحالب بحرية التفّت حول السلسال وأكملت طريقها لتتمدّد داخل القفل وتشكّل عائقـًا بوجه أيّ جهدٍ لفَتحه، إن بُذِل..

الآن فقط بتُّ على قناعةٍ أنّ بوّابةً كالتي أُعاينُها، تُرِكَت مهمَلةً على حالها منذ توقيتٍ قد يتخطّى لجوءَنا بزمن.. وصِرتُ على يقينٍ أنّ غرابةً تلتفّ حول قصّة العم عُدَيّ، وتجعل منه عجوزاً بدرجة مُريب!

***

الآن أحتاج مقابلة العم «عُدّيّ» أكثر من أيّ وقتٍ مضى.. أنا في حال وهنٍ وحزنٍ وقلقٍ ووَحدةٍ وريبة، وكلّ ذلك اختلط في داخلي وامتزج مع روحي حتى صِرتُ أشعر بي فتاةً من ورقٍ، أتناثر قصاصات بالية وعلى استعدادٍ لأن أتهاوى بصفعة قدَرٍ مباغِتة.. لقد ضاق الكونُ على رحابته حولي، وباتت الثواني وخزَ إبَرٍ.

أراني اليوم في إقامةٍ جبريةٍ بين هواجسي، لا أملك أن أغادرها، والحنينُ يطوِّقني من كل اتجاه. صارت حياتي أشبه بتمثيليّةٍ ألعب أدوارَها وأمارس طقوسَها وأتأرجح على أوتارها، وفي أعماقي واقعٌ بائسٌ وأجيجٌ من حشرجات بكاءٍ وأنين.

أضحت كلّ الأمكنة متشابهة، توحي بالوَحشة، وتتشابك فيها الخيالات والظلال. لم يعد من فارقٍ بالنسبة لي بين مخيّمٍ يضجّ ببشاعة الفقر والحرمان، وبين وسط مدينةٍ يصخب بالعمارات الشاهقة ومحلّاتٍ تبيع الموضة كسلعةٍ ضروريّةٍ للبقاء.

فيما مضى كنت أدرك مغزىً للانتظار.. لطالما عشتُ بين ثناياه وأنا أحلم بالعودة وأحيا على أمل تحقيقها. أما اليوم، فقد أمسيتُ في المجهول، تتقاذفُني الهواجس وينهشُني عجزٌ وَحشيّ. وها أنا ذا أجدُني ألهث وراء طيف عجوزٍ يعاندني. أسارع الخُطى لألتقط حضورَه عساه يُهديني الأمان، فلا ألمس سوى السراب!

دفعتُ درّاجتي لتصبح لصيقةَ البوّابة الحديديّة، ثمّ قفزتُ فوق الحاجز وتقدّمتُ باتّجاه الشاطئ الرمليّ في محاولةٍ لتقصّي آثار العجوز. لا يُعقل أن يهجر هذا المكان نهائيّـًا، وهو الذي طالما أكّد لي أنّه المأوى الحاضن لنهاراته وحتى لسهراته التي قد تطول.

البرد القارس طبع بصماته على المكان، فبات خاليّـًا من أيّ حياة. وهو ما رجَوتُه حتى لا أقع فريسة حشريّةٍ أو مضايقات. سرحتُ بنظري فوق الرّمال، ورحتُ أمشّط المنطقة كسريَّةٍ عسكريّةٍ بحثـًا عن ضالّتي. من المؤكّد أنّني لن أعثر على أحد، فالشاطئ الواسع مكشوفٌ على الفراغ، ولا إمكانية لأيّ هفوةٍ أو خطأ. تنهيدةٌ عميقةٌ غافلَتني وانسرَبت من بين رئتَيّ رافقَتها عبراتٌ دافئةٌ فاضَت وانسَكَبَت لتحجب عنّي وضوح الرؤية.

ومع تلاشي كلّ أمل، جمعت ما تناثر من لهفتي واستدرتُ عائدةً أدراج خيبتي التي باتت رفيقة الدّرب المرير. وعلى حين يأس، لفت انتباهي ضوءٌ خافتٌ التمع بعيداً في البحر. تيقّظت جوارحي من خذلانها، وأمعنتُ في الرّجاء.. ليته يكون عجوزي لأُنهي مأساة انتظاري العقيم!

مركبٌ صغيرٌ تراءى واضحـًا مع اقترابه من الشاطئ، وبداخله جثا رجلٌ ضبابيّ الملامح. لم أتبيّن تفاصيلَه جيّداً، لكنّني مع دُنوّه تيقّنتُ أنّه صيّادٌ عائدٌ من رحلة اقتناص فرصٍ، في تحدٍّ للموج والبرودة والصقيع.

والآن، بعد أن أرسى قاربه وصار على بُعد خطوتين منّي، غدوتُ قادرةً على سَبر تفاصيله. هو رجلٌ في العقد الخامس من العمر، أسمر

البشرة وبشَعرٍ رماديٍّ مسترسلٍ حتى الكتفين. ملامحُه العادية لا تترك أيّ أثرٍ في الذّاكرة. ضخم الجثّة وبعضلات مفتولةٍ كمقاتلٍ أو رياضيّ.

عندما لمحني أتفرّس في تفاصيله، أرخى شبكة الصّيد التي في يده واستقام في وقفته، ثمّ طبع على وجهه ابتسامةً هادئة. عندها فقط تنبّهتُ إلى غرابة تصرّفي، فبادَلتُه ابتسامةً خجولةً، ثمّ هَمَمت بالرّحيل. لكنّه لم يكتَفِ بمبادرته اللّطيفة، بل صدح بصوته الأجَشّ مستفهماً عن سبب وجودي على الشاطئ في مثل هذا اليوم البارد.. رغم ارتباك مشاعري قرّرتُ أن أجعل من كلامه فرصةً للسؤال عن عجوزي، فربّما صادَفه في مكانٍ ما من هذا الشاطئ الواسع. اقترَبتُ من القارب بهدوء، وبنبرةٍ مرتجفةٍ توجَّهتُ إليه بالحديث: «مرحباً يا عمّ.. أنا أبحث عن عجوزٍ في حوالي السبعين من العمر، يرتاد هذا الشّاطئ باستمرار، لكنّني لم أعثر عليه.. هل حدث أن لمحتَه في مكانٍ ما؟».

بعينَين تآكلَتا استغراباً، حدّق في وجهي قبل أن يبادر في الإجابة: «وكيف لعجوزٍ سبعينيٍّ أن يأتي في هذا الجوّ القارس ليتنزّه على الشّاطئ! أظنّكِ حضَرتِ في توقيتٍ خاطئ.. أنا هنا منذ الصباح الباكر جدّاً، ولم ألمح مخلوقاً سواي».

يا إلهي كيف أشرح له أنّ عجوزي لا يأبَه بعَصفٍ أو أعاصير، وأنّه لا يبالي ببرودةٍ وصقيع، وأنّ المطر لا يمكن أن يردَعه عن تنفيذ ما يفكّر فيه. هو لن يصدّقَني حتماً، وسيظنّني أعبث وأملأ فراغي بحكايا للتسليّة!

رغم مؤشّرات الثقة في كلماته، إلّا أنّني آثَرتُ الاستفسار أكثر، فربّما غاب عنه تفصيلٌ تراءى أساسيّاً في نظري..

«إنّه يرتاد هذا الشّاطئ بالتحديد في أيّ وقتٍ دون أن يُعير بالاً لتوقيتٍ صَيفيٍّ أو شتويّ.. العم عُدَيّ صديقٌ لكلّ ما في الطبيعة من مظاهر هادئة ومتوحّشة أيضاً».

كنت أتحدّث بلهجةٍ لا تَشوبُها ريبةٌ، إلّا أنّني توقّفتُ فجأةً عندما لمحتُ آثار تعجُّبٍ على وجه الصيّاد بمجرّد أن نطقتُ باسم العم عُدَيّ.. استمرّ صمتُنا لحظات، قبل أن يستعيد مَلمَحه الهادئ ويسأل: «هل تقولين العم عُدَيّ! كنتُ أعرف عجوزاً طيّباً يحمل هذه التسمية.. لطالما التقَيتُه في هذا المكان الذي أحبَّه بقَدر ما كرهَه.. المسكين فقد ابنَه في البحر أثناء محاولةٍ يائسةٍ لترك هذه البلاد والهجرة إلى البعيد.. هجرةٌ غير شرعيّة انتهت بمأساةٍ تشرّبَها العجوز ودفع ثمنَها من مشاعره وأبوّته ونبضه.. لكنّه ومن شدّة الحزن مات تاركاً خلفه ظلاله البائسة وذكريات لا تموت.. كان ذلك منذ سنواتٍ ضاربة في النسيان، ربّما من قبل حتى أن توجدي أنتِ في هذه الحياة».

كنتُ أصغي إلى الصيّاد بلهفةٍ ولوعةٍ وارتياب! العم عُدَيّ مات منذ سنواتٍ بعيدة! هو أمرٌ مستحيل، فأنا أعرفه وأحادثه وكثيراً ما استشَرتُه في أموري.. لا بدّ وأنّه يقصد عجوزاً آخر.. مع هذه الفكرة، استرجَعتُ بعضاً من هَدأتي، واسترسَلتُ أكثر في الحديث: «العم عُدَيّ لاجئٌ مثلي،

ولكنّه قدِم من بلادٍ أخرى.. أتى إلى هنا في زمن النّكبة، كان طفلاً صغيراً جدّاً ومنذ ذلك التاريخ الأسود وهو يحلم بالعودة إلى أرضٍ لا يذكر منها سوى عطرِها، ويرسم لها خرائط طريقٍ بقيَت حبراً على ورقٍ رغم عبور السنوات».

توقّفتُ فجأةً عن الكلام وأنا أرى الصيّاد ينظر إليّ بعينين شاخصتَين وفمٍ شاغِرٍ، وكأنّني أروي أسطورةً عجائبيّةً أو قصّةً ساحرةً عن الجنيّات. ثمّ، وبنبرةٍ غير واثقة، قال: «العجوز الذي أحدّثكِ عنه لاجئٌ أيضاً.. أيُعقل هذا التماثل بينهما! أم أنّنا نتحدّث عن شخصٍ واحد!».

عند هذه العبارة جمدتُ مكاني وصفعَتني قشعريرةٌ ارتجف بدني مع تردّداتها، فتغلغَلتُ أكثر في شاليَ الصوفيّ ورحتُ أصغي لهدير الموج في محاولةٍ للهروب من فكرةٍ مخيفةٍ سيطَرت على ذهني وسطَرَت آثارَها فوق ملامحي.

وعلى حين ارتعاش، تبدّلَت حال الصيّاد من استغرابٍ إلى استهزاء، ونظر إليّ بعينين يفيض منهما الشكّ، وأردَف: «لا بدّ وأنّكِ عاطلةٌ عن أيّ مسؤولياتٍ يا فتاة، وتودّين تسلية وقتكِ بابتداع الحكايات.. الأفضل لكِ أن تعودي إلى البيت قبل اشتداد العاصفة، ودَعيني أُنهي عملي وأرتحل. لستُ بوارد الانغماس في اللّعب ومشاطرتك اللّهو.. لديّ من الأعمال ما يحمل على الأسى، لذلك دعيني وشأني وارحلي قبل أن يقع المحظور».

شعرتُ بالنّار تغلي في رأسي، وبدَمي يفور كَسَيل بركان.. ماذا يظنّ بي هذا الصيّاد! لو أنّه يعلم مقدار الأسى في قلبي لما جَسَرَ على النّطق بهذه الكلمات. استدَرتُ مغادرةً، وقبل أن أتوارى صدح الصيّاد قائلاً:

«يا فتاة.. لا تتركي نفسكِ أسيرةَ الحكايا والأوهام. انغمسي في الواقع مهما تراءى قاسيًا، فالخيال وإن انتشَلَكِ من لحظاتٍ بائسة، لن يغيّر من أمركِ شيئًا. عيشي زمانكِ ووقتكِ يا صغيرة وَدَعكِ من كلّ الهواجس الأُخرى».

لم أَقوَ على الصمت في مواجهة هذا الكلام.. أنا حتمًا لا أعيش الخيال، ولا أبتدع الحكايا.. لستُ بحاجةٍ إلى نصائح لا تعنيني. العم عُدَيّ ليس رسمًا في البال ولا ظلّاً لا وجود له. إنّه عحوزٌ من لحمٍ ودَمٍ ومشاعر بالرغم من غرائبيّة طباعه أحيانًا. سأعثر عليه، وعندما ألتقيه سأتحدّى بوجوده هذا الصيّاد، وكلّ من يُسَوّل له فكره أن يتّهمني بالانسلاخ عن الواقع.

هي الطريق إلى المخيّم الصغير – القابع وسط المباني الشاهقة المطلّة على البحر – التي سأسلكها سريعًا، وهناك حتمًا سأجده وسأُنهي مهزلةً بعثرت سكينتي وأضافت إلى حزني جرعات.

***

الطريق إلى مخيّم العم عُدَيّ تراءى طويلاً بامتداد الشجن في روحي. رحتُ أركض فوق الرّمال المُبتلة التي تطايرَت حولي وصارت تلتصق بحذائي وفستاني دون أن آبَهَ بذلك.

كان قلبي عالقًا بين توجُّسٍ ويقين حين عبَرتُ قرب درّاجتي دون أن أهتمّ لأمرها. أكملت عَدواً في الدّرب التي ما زلتُ أذكر تفاصيلها منذ أن خطَونا فيها أنا والعجوز.. اجتزتُ الطريق العام، ثمّ اتّخَذتُ من الرّصيف دليلاً إلى أن وصلتُ إلى زقاقٍ مُنسربٍ بين الأبنية الشاهقة الممتدّة على طول الشاطئ. ساورَتني الشكوك حول صوابيّة وُجهتي، لكنّني سرعان ما نفضتُ غبارَ الظنون عندما التقطَت نظراتي المبنى الزجاجيّ الضخم الذي استأثر باهتمامي يوم عبورنا الأوّل، واستمرّ ذهني ينسج رَسمُه حتى بعد مُضيِّ زمنٍ ليس بالقصير.

نعم، من هنا تسلّلتُ إلى عالم العجوز، ومن هذا الزقاق ولَجتُ إلى دائرة العَوَز والبؤس التي تضمّ بين حناياها عائلاتٍ شتَّتَها اللّجوء وجمعَتها الفاقَة.. لفحني الصقيع المتسرّب داخل الممَرّ الطويل ونخر الهواء البارد عظامي، لكنّني استمرَرتُ في التقدّم. وشيئًا فشيئًا أخذت الرّيح تشتدّ وتَقسو حتى كادت تطوّح بجسدي الهزيل لولا التصاقي بالجدار وتشبُّثي بنتوءاته. قطرات المطر بدأت تغزو رأسي وتزداد شدّةً وانهماراً، واستحالَت خلال ثوانٍ إلى انسكابٍ غليظ..

برأسي العاري ووجهي المتجمّد برودةً، رحتُ أتطلّع أمامي في محاولةٍ لتحديد وجهتي. تراءى المكان أشبة بدهليز ممتدٍّ بين حائطين نَقشت أيادي الصغار والمراهقين عليها رسومات وخربشات وكلمات بذيئة تجلَّت واضحةً رغم جنونٍ عصف بالسّماء. عليّ السّير مدّةً قد تتجاوز حدودَ لهفتي، أتسلّلُ خلالها بين الجدران الملتويّة يميناً ويساراً قبل أن أبلغ هدفي.

بدأتُ أمشي بحذرٍ خوفاً من أيّ حدثٍ طارئٍ، وأنا التي اعتدتُ على المفاجآت المُخزِية والكدمات التي تلتصق بالرّوح.

هذا الممرّ الطويل هو النفق الوحيد الموارب على الحياة. لم يعُد مجرّد طريقٍ اعتياديّ، بل غدا الأفقَ الحاضنَ لآخر نبضٍ ويقين. من شدّة ارتباكي تلاشت معالم المكان عن ناظري، فلم أعد ألمح الجدران المشوّهَة ولا وُحولَ الأرض المتراكمة هنا وهناك. حتى الصقيع صار بيني وبينه حاجزٌ منيعٌ من توتّرٍ وحيرةٍ وترقُّب. عليَّ أن أجتاز هذه المسافة بقدمَين من ريبة، وبقلبٍ يخفق توجّساً وفزعاً.

من شدّة الرّجاء، أكاد ألمح العجوز متسكّعاً في السّاحة العامة للمخيّم أو مُستلقياً في إحدى الزوايا يقرع على علبة الصّفيح، أو حتى جاثياً على كرسيٍّ من القشّ أمام إحدى المحلّات القليلة المتناثرة في السّاحة يدخّن «النرجيلة».. أنا لم أره من قبل في وضعيّة التدخين، ولا هو أخبرني عن تجربته في الموضوع، لكنّ صورته غالباً ما تأتيني والدّخان يتصاعد من

فمه ليملأ الفراغ حوله. ربّما لأنّني أشعر به قريبـًا من الحَجّي في طيبته وصفاء قلبه وحتى في غموضه أحيانـًا، والحَجّي له معشوقةٌ واحدة وهي «النرجيلة». يهتمّ كثيراً بتنظيفها وتلميع زجاجها وتكاد تكون الرفيقة الوحيدة لنهاراته وأمسياته الطويلة أمام «الكشك»..

رحتُ أمشي في الزّقاق بحذر من يتسلّل هروبـًا من سجنٍ أو معتقل. أخشى إن أسرَعتُ الخُطى أن تتآمر عليّ العاصفة، وتقذف بي على الأرض وأُصاب بكَسرٍ أو خدوشٍ غليظةٍ، تنتهي على أثرها عمليّتي الاستقصائيّة وينهار حلم اللّقاء كما سبَقَ وتناثر حلم العودة. أخذتُ ألتفّ مع الالتواءات الأقرب إلى متاهة بلا نهاية، وكلّما تقدّمتُ صار الممّر أكثر ضيقـًا وعبَقَت رائحة قاذوراتٍ شنيعة لتنفذَ بين شعيرات أنفي المتجمّد.

في الواقع لا أدري من أين يعصف بي الهواء بهذه الوحشيّة! المكان محاطٌ بالجدران العالية التي تكاد تحجب عنّي حتى الأنفاس، كما أنّ الالتواءات تعيق انسراب الرّيح وجموحها!

تقدّمتُ متأنيّةَ الخطوات بعد أن التحَفتُ جيّداً بشاليَ الصوفيّ الذي لا يُغنِ من برد. وعلى حين رَهبة، شعرتُ بأنفاس دافئة تلفح وجهي. وبشيءٍ يعبر سريعـًا من فراغٍ صغيرٍ يفصلني عن الحائط. تصلَّبتُ مكاني بعد أن تمرّد خَفقي وغدا كضرب طبول. هو ذات الإحساس المُريب الذي خالجَني أثناء بحثي عن العجوز فوق رمال الشاطئ، في ذلك اليوم العابر للذاكرة.

انسحبتُ سريعـًا من مكاني والتصَقتُ بالحائط بعد أن تراجعتُ خطوةً إلى الوراء. صرتُ أحدّق حولي، وأتفرّس في الممّر عَلّي أعثر على تفسيرٍ لما جرى. لكنّ نظراتي لم تتعثَّر سوى بالسكون. لا أفهم هذا الغموض المرافق دائمـًا لحضور العم «عُدَي» وحتّى لغيابه. في كلّ مرّةٍ ألتقي فيها به أو يخطُر رَسمُه في البال، هناك تشويشٌ يتغلغل في مسامات الفكر وبين تلابيب الوجدان، وأحيانـًا ثمّة شيء مريب يباغت يقيني فيقلب موازين هَدأتي ويُشَتّت نبضي.

الرائحة المَقيتة باتت أكثر شراسةً من موقعي الحاليّ، بعد أن تغلغَلتُ أكثر في الزّقاق العجائبيّ. رفعتُ طرف الشال وجعلتُه يستقرّ على وجهي ويحجب عن أنفي التقاط نتانَةَ الجوّ وعفونتَه. لكنّ ذلك لم يمنع شعوراً بالغثيان بدأ يسطر تردّداته داخلي، وأخذ يشتدّ رويداً رويداً حتى داهمتني حاجةٌ للتقيّؤ فانحنيتُ جانبـًا لأفرغ ما في جوفي من ريبةٍ وحيرةٍ وتوجّس.. لا بدّ وأنّ البرد القارس مضافـًا إليه زناخة المكان، تسبّبا لي بهذا التعب المباغت. كثيراً ما كانت أمّي تنبّهني إلى خطورة الصقيع وأوجاع البطن الناتجة عنه، والتي عانَيتُ منها كثيراً في صغري عندما كنتُ أستمرّ في اللّعب في فناء البيت حتى وقتٍ متأخر، ذاتَ زمنٍ جميل.

ومع ارتفاع وتيرة الخوف، اجتاحتني رغبةٌ بسلوك درب الرّجوع، والتوقّف عن العبث بسكينتي التي لم يتبقَّ لي منها سوى القليل. لكنَّ تحدّيـًا دخَلتُه مع الذات دفعني إلى الإصرار والمُضيّ قُدُمـًا. لا أعرف

سبب هذا الكمّ الهائل من الفزع الجاثي على قلبي، ولا أستطيع أن أعطي تفسيراً للتوجّس الذي نال منّي بمجرّد أن خطوتُ داخل الزقاق! أنا فتاةٌ قويّة، اعتدتُ على التسكّع في الحارات والطرقات والأزقّة وحدي دون أن أخشى شيئًا. حياة اللّجوء التي عصفت بي منذ الطفولة، بدَّلَت مسارَ حياتي ورسمت لي شخصيّةً لا تمتّ إلى تَرَف الطفلة بأيّ صلة.

منذ أن تخطَّيتُ عتبة الأرض الجديدة، ارتديتُ ثوبًا فضفاضًا لا يليق بي كطفلة، لكنّه تراءى أكثر رحابةً وقابليةً لنمط حياةٍ أُقحِمتُ فيها واستَقبَلَتني بشراسة.

أكملتُ مسيرتي وتغلغلتُ في عمق الزقاق وأنا أكاد أسمع وقعَ نبضي ينتفض ويَصخب في العروق. ومع شعوري بانقباض الأنفاس نتيجة ضيق المكان وتقلّص الفراغ الممتدّ بين الجدارين، أغمضتُ عينيّ ورحتُ أخطو إلى الأمام مستعينةً بيدين هزيلتين وقلبٍ هَشّ.

***

دلَفتُ إلى ساحة المخيّم بعد عناءٍ استنزَفَني. عندما بدأَت الجدران تتباعد وتُخفّف من ثِقَلها على الأنفاس، تسرّب قليلٌ من الأمل إلى ضعفي. وما إن رأيتُ النور يتجلّى باهتاً في البعيد بسبب كثافة الغيوم، أيقنتُ أنّ وصولي بات حتمياً، خصوصاً مع اشتداد رائحة القاذورات المتعفّنة.

أسرعتُ الخطوات ونبضي يسابقني للقاء العم عُدَيّ. منذ فترةٍ طويلة لم أتمكّن من مقابلته، رغم سَعيي الحثيث إلى ذلك، دون أن أدرك سبباً لهذا الغياب. في السابق، وبمجرّد ارتياد الشاطئ، كنتُ أعثر عليه حاضراً لإهدائي نصحاً أو مواساة.. ربّما صفعه المرض، أو انشغل بأمورٍ تخصّ أهل المخيّم الذين يعتبرونه بمثابة المختار والمرجع لقراراتهم، كما سبق وأخبرني.

وأخيراً ها أنا ذا أنسحب من زقاق الخوف وأتخطّى حدوده إلى ساحة المخيّم الآسنة، بشغفِ عاشق. من يراني سيلحظ حتماً معالم النّصر فوق ملامحي، وبصمات الفرح في بريق حدقتَيّ. السعادة التي احتضنَت مشاعري دفعَتني إلى حجب نظراتي قليلاً وإسدال أهدابي فوق العيون. ثمّ أخذتُ أنفاساً عميقةً، وبكامل لهفتي وقفتُ أتأمّل السّاحة العامّة التي تكبّدتُ في سبيلها شقاءً غير موصوف.

ما هذا! أكاد لا أصدّق ما ارتطمَت به دهشتي من مشهدٍ بائسٍ دميمٍ ومقزِّز! السّاحة الدائريّة تراءت وقد غزتها الأوساخ والنفايات والمخلّفات البشريّة والحيوانيّة على حدٍّ سواء، ممّا جعل المكان مأوى

للذباب والناموس المتطاير أسراباً في كلّ زاويةٍ ورُكن. لا يُعقل أن يكون هذا الكمّ المهول من القاذورات حديثَ العَهد هنا، وحتماً جرى تكديسه خلال سنوات غائرة في البُعد. وأمّا عن الرّائحة فقد تجاوزَت قدرتي على الاحتمال، من فرط الأبخرة المؤكسدة والنّتانة المهيّجة لمشاعر القرف والاشمئزاز. تحامَلتُ على نفسي، ورحتُ أُنقّل نظراتي يميناً ويساراً ليباغتَني الفراغ الباهت المُريبُ والمريب!

أبواب المحلّات الصّدئة والمبعثرة هنا وهناك مقفلةٌ على خواءٍ بائس، ونوافذ البيوت المطلّة على السّاحة مشرّعةٌ على الريح ممّا يوحي بغيابٍ كاملٍ لأيّ حياة!

السّاحة التي صخبَت أثناء زيارتي الأولى بضحكات الأولاد ومشاغباتهم، صفرت فيها الرّيح وارتادَتها الخيالات والظلال. فكأنّ وباءً استشرى في المكان وفرض سطوته عليه، أو كأنّ زلزالاً دكّ أركانه وترك بصماته السوداء في صورة خواءٍ غريب الملامح.

وقفتُ كالبلهاء وقد صعقَني الذّهول، وحقّقَت الحيرة هدفاً في مرمي مشاعري. تملّكَني الخوف وسطر حروفَه فوق ملامحي التي ازدادَت شحوباً وبؤساً. وأمام هذا الكمّ الهائل من اللّامعقول، أحسستُ برغبةٍ في الصّراخ، فأطلَقتُ العَنان لصوتي الذي صدح باكياً في تَوَسّلٍ مريرٍ للقدَر كي يخفّف وطأة نقمته على قلبي الصغير. بكَيتُ كما لم أفعل سابقاً، حتى كدتُ أختنق من دموعٍ فاضت وانسكَبت شلالات، دون أن تتمكّن من غسل ما علق في تجاويف روحي من انقباضٍ وتوتُّر.

لـم أسـتطع التـآلف مـع هـذا المشـهد الـذي ارتعشَـت أمامـه الجـوارح وانسلخَت به الرّوح عن الجسد. ما أنا فيه يؤكّد أنّني كنت أهذي، أو ربّمـا أنسج واقعـًا من الخيال وأختـال بـين ظلالـه كالبلهـاء! لكـنّ العـم «عُـدَيَ» موجود وقلبي يحدّثني بذلك، وهو أبعد ما يكون عن الوهم.. سأعثر عليه حتمـًا، وأؤكّد لنفسي قبل الآخرين أنّ الوساوس لم تنَل منّي، وأنّ العجوز ليس مجرّد قصاصات ورق تناثرَت ذات يقظة..

استدَرتُ مفجوعةَ الشعور، وفي قلبي شـغورٌ كامـلٌ حتى مـن النـبض. وقبل أن أخطـو في طريـق العـودة، تنبّهـتُ إلـى حركـةٍ وسـط كومـة نفايـات متراكمة قريبـًا منّي. استرَقتُ السمع ليأتيني اليقين بوجـود حيـاةٍ أُخـرى في المكـان. راح قلبـي ينـبض بوحشـيّة، وصـار عقلـي يفـرز احتمـالات وتوقّعات، ويرسل للنبض إشارات بالتخلّص من براثن الخـذلان، ونَسْـجِ الأمل بخيوطٍ من يقين.

أمعنتُ النظر، وحـدَّقتُ في ظـلال الجسـم المتحـرّك عَلّـي أهتـدي إلـى طبيعتـه، وإذا بـي ألمـح خيـال رجـلٍ محنـيٍّ يقـوم بحركـات عشـوائيّة لـم أتبيّنها. المثير للاستغراب هـو أنّ الصّـراخ الـذي اشـتعل مـن حنجـرتي لـم يحرّك حشريّة هذا الكائن ولا حتّى قام بأيّ ردّة فعل. تقـدّمتُ خطـوةً إلـى الأمام، وشرَعتُ بالسّعال المُفتعَل كي ألتقط انتباهه. وإثر عدّة محاولات، توقّف الظلّ عن الاهتزاز وساد السكون المكان.

بـرغم ارتعاشـة الخـوف التـي ملكَـت منّـي الفكـر والوجـدان، إلّا أنّنـي تصلّبتُ مكاني وأبَيتُ الفـرار، في انتظـارٍ لتبيُّن هويـة هـذا الغريـب. اسـتمرّ

ترَقُّبي لحظات قبل أن أصبح في مواجهة البؤس على هيئة رجل. جسدٌ هزيلٌ لفَردٍ أدركَه الموتُ لكنّه ما زال متشبّثًا بالحياة. عظام الوجه بارزةٌ وتكاد تُخفي بين تعرّجاتها الملامحَ الكئيبة لهذا الهيكل العظميّ. شحومٌ سوداء التصقَت بخِرَقٍ باليةٍ يرتديها ولا تَفي حتى لحَجب نسمة هواءٍ ربيعيّة. حتّى الحذاء بتشقّقاته والحُفر التي تَزين أجزاءَه، يبدو مُشرّعًا لاستقبال كافّة مظاهر العَصف والأعاصير برَحابةِ قَدَم.

حدّق الغريب في وجهي ببلاهة، ثمّ دنا منّي خطوات وهو يحمل في يده كيسًا كبيراً محشوّاً بالنفايات. وكردّة فعلٍ عفويّةٍ تراجعتُ إلى الخلف، ورفعتُ يدي في إشارةٍ إليه للتوقُّف وعدم تجاوز المسافة التي تفصلني عنه. استجاب لرغبتي رغم علامات الاستغراب التي ارتسمَت على وجهه، لكنّ امتثالَه لم يتجاوز هنيهاتٍ عاد بعدها للاقتراب مع ابتسامةٍ ساخرةٍ أظهرت صفّاً من الأسنان السوداء المتآكلة.. لم أستطع الاحتفاظ برَباطة جَأشي أمام هذا الكائن الغامض، ورحتُ أفكّر في وسيلةٍ للفرار السريع. لكنّه وبخُبث مُفرِط التقط نيّتي في الهروب، فاستقرّ مكانَه وراح يتأمّلُني قبل أن يبادر بالكلام: «ماذا تفعلين هنا يا فتاة؟ هذا المكان تابعٌ لسُلطتي ولم يتجرّأ أحدٌ قبلكِ على تخطّي حدوده».

اعتراني ارتباكٌ كبير، وعوضًا عن الإجابة شرعتُ بالسؤال: «أين ذهب سكّان المخيّم؟ ولماذا يبدو المكان مهجوراً رغم الحياة التي كانت تصخب فيه منذ فترةٍ وجيزة؟».

وفي ردّة فعلٍ غير متوقّعة، دخل الرجل حال ضحكٍ هستيريٍّ جعله يطرح كيس النفايات جانبًا ليتمكّن من التصفيق بيدَيه. ثمّ، وبعد أن سال من عينيه دَفقٌ من الدّموع وكادت يداه تتوّرمان من حدّة التصفيق، هدأ جنونه ليقول: «عن أيّ مخيّمٍ تتحدّثين! هذا المكان هو المكبّ الرسميّ لنفايات المنطقة الخاضعة لسيطرتي. كل النفايات هنا هي ملكٌ لي، أنتقي منها ما أريد ولا أسمح لأحدٍ بالاقتراب منها.. يبدو أنّكِ غريبةٌ وعلى جهلٍ بالنظام».

جاء كلامه كالصّاعقة في نفسي.. تساؤله عن المخيّم زلزل يقيني، وأرداني في ارتيابٍ كبير. ابتلَعتُ لعابي بصعوبةٍ، قبل أم أعاود الكلام: «المخيّم الذي أُنشئ هنا لاحتواء ضحايا النكبة.. نكبتُنا جميعًا كعرب متخاذلين.. ألا تعرف العم عُدَيّ؟ العجوز اللّاجئ الذي يرتاد الشاطئ القريب، والشخص الوحيد الذي بإمكانه دخول المخيّم والخروج منه في أيّ توقيتٍ دون أن يتعرّض لأيّ إزعاج! العجوز الذي يحبّه أهالي المخيّم ويستشيرونه في جميع القضايا، والذي يحترمه الجميع حتى خارج حدوده! ما بالكَ لا تجيب، ألا تسمعني!».

كان الرجل ينظر إليّ باستغرابٍ من يحاور كائنًا فضائيًّا. وشيئًا فشيئًا أخذت ملامحه تَلين إلى أن تراءَت علامات الشفقة بين حدَقتَيه. تطلّع نحوي بحيرةٍ وعطفٍ، ثمّ قال: «هذا المخيّم المنكوب تمّ نقله من هنا منذ سنواتٍ عديدة قد تتجاوز العشرين.. وذلك العجوز الذي قطن هنا، استمرّ في زيارة المكان بعد ارتحال الجميع ليقضي معظم نهاراته على

الشاطئ القريب قبل أن توافيه المَنيَّة.. أنا لا أعرفه، لكنّ الحكايا المتداوَلة كثيرة ولا أحد يدرك مدى صحّتها.. وحدهم سكّان هذه المنطقة القدامى من يملكون مفتاح الحقيقة، لكنّ معظمَهم هجر المكان في حركةٍ اعتراضيّةٍ على إنشاء المخيّم وسط المباني. وكلّ ما يجري الحديث عنه هو مجرّد أقاويل قد تُخطئ أو تصيب.

فجأةً، هبّت ريحٌ باردةٌ تطايرَت على إثرها الأوساخ وانسرَبَت الرائحة العَفنة بين شعيرات أنفي لتزيدني تقزّزاً وغَمّاً. رعدَت السّماء بوَحشيّةٍ وبَرَقَت لتنير مكبّ النفايات البغيض، وترفع مؤشّر الارتياب الذي اجتاحني وسلبني آخر رَجاء.

الأمطار التي بدأت زخّاتٍ خفيفة منذ وصولي، استحالَت هَطْلاً متدافعاً وانسكَبَت فوق رأسي لتزيدني وجَعاً وحسرات. ورغم هواءٍ عصف بشدّةٍ، إلّا أنّ الحرارة غزَت جسدي وألهَبَت جوفي حتى كدتُ أستغيث..

رفضي لما سمعتُه جعلني في وَضعيّة تِيه، وبدّد تلك السكينة التي جهدتُ في سبيل الحفاظ عليها رغم كلّ التحدّيات. وعلى حين يأس، غابت تفاصيل المكان عن إدراكي، وشعرتُ بصداعٍ يمزّق شرايين رأسي ويعتصرها بشراسة. وبيأسٍ كبير، استعَدتُ جميع ما في جعبتي من خيبات حتى صفعَتني الرّيبة وضاقَت بيَ الأنفاس.

ومع شريط ذكريات انسلّ من أعماقي، صرتُ أتنفس غربة، وأطرِّز هجرتي زخرفاتٍ على جدار القلب.. انتثَرتُ كورقةٍ واجفة، واستحَلتُ بقايا رماد، وشعرتُ بهذياني يسري حارقًا بين العروق.

لماذا أراني، ذات غفلةٍ، وحيدةً وفارغةً إلّا من الهذيان! ومع كلّ محاولةٍ للعثور على ضالّتي أجدُني أنتشر وأتبعثر أشلاءً لأعود من حيث بدأت!

باتَت هواجسي رفيقة دربي.. أراها تغفو بين نبضي، تتربّص بي، تقتحم عليّ خلوتي وتغرس أنيابها في ضعفي..

ومع هذا الكمّ الجسيم من خذلان الشعور، انسحَبت مُهرولةً من أمام رجل النفايات الغريب، ورحتُ أركض كالذي مسّه ضَربٌ من جنون. عدَوتُ سريعًا دون أن أستشعر توجّسًا من زقاق الخوف المُريب. ومع هَطل المطر سَيلاً، عثرتُ في البَلل الذي تملّك منّي على مواساةٍ كنتُ أطوق لها وأحتاجها في ظلّ غياب أيّ حضنٍ دافئٍ أرتمي بين خَفقه. فكأنّ الطبيعة تآلَفَت مع حزني وغربتي وسكبَت أمطارَها عبرات لتمنحني مؤازرةً، وسط هوَسٍ غزل فوق هدأتي نسيج عنكبوت.

***

الطقس العاصف رافقنا منذ الصباح الباكر جدّاً.. البرد قارسٌ والهواء غليظٌ يكاد يقتلع كلّ ما يعترضه بلا هوادة، لكنّ المطر انسحب قليلاً تاركاً مساحةً لحريّة التنقّل بعيداً عن بللٍ قد يعرقل كلّ حركة. لا أعرف كيف يمكن للطبيعة أن تستمرّ في حالٍ من الغضب ما يقارب الشهر، دون أن تدخل هدنةً أو حتى تُخفّف من وَطأة نقمتها وعنفها.

كان المخيّم مُشبَعاً بالعتمة وغارقاً في الوحول المتراكمة على مدى انهمارٍ طويلٍ، عندما غادَرتُه للمرّة الأخيرة مع السيّدة لولية التي استحوذَت بجسدها الممتلئ على جزءٍ كبيرٍ من المقعد فوق درّاجتي الناريّة المسكينة، بحيث لم يتبقَّ أمامي سوى أن أنسلَّ بحِرَفيَّةٍ لأستقرّ بجسدي الهزيل أمام المِقود.

في الواقع لا أعلم إن كانت الدرّاجة بِقِدَمها وصدئها واهتراء أجزائها، ستتمكّن من الصمود، ريثما نصل إلى الشاطئ حيث ينتظرنا آخرون ممّن حفر الألم بصماته في وجدانهم، لنغادر سويّاً نحو «أرض الحلم». ما أنا فيه أعاد إلى ذاكرتي ارتحالي منذ سنوات مع أمّي وأبي إلى «الأرض الجديدة» التي ظننّا بها خيراً، فقدّمت لنا البؤس واليأس على طبقٍ من استهزاء.

أجهل تماماً ما ينتظرني هناك في الأرض البعيدة، وأخشى أن تتكرّر مأساتي وأنا لم أعد أحتمل مزيداً من الخيبات. لكنّني لا أملك الخَيار!

منذ أن تخطّت أمي وإخوتي عتبة حدود «العَودة» مع الحَجّي والعم حسن، تلاشَت أخبارهم وتعذّر عليّ معرفة ما آلَت إليه أحوال معيشتهم، رغم محاولاتي الحثيثة والكئيبة. كان ذلك منذ ما يفيض عن الشهرين، ثمّ جاءت وفاة أبي لتضعني في مواجهةٍ شرسةٍ مع اليُتم الذي أخذ ينهش روحي شيئًا فشيئًا، ولم يخفّف من حِدّته حضور السيّدة لولية ومحاولاتها الخائبة لإخراج شياطين الوَحدة من أعماقي. حتى العم عُدَيّ تلاشى كوَمضِ بَرق.. وزيارتي الأخيرة لمسكنه في المخيّم المنكوب، طرحت ألف تساؤلٍ حول حقيقة وجوده، وسلبَتني آخر احتمالٍ للقائه من جديد.

هكذا شاء قدَري، ومن يملك أن يتحدّى الأقدار! استسلَمت لما أنا فيه، ورحت أطوي وَحدتي ووَجعي في كنف السيّدة لولية، بعد أن ارتدَيتُ قناعةَ اليُتم وطرَحتُ جانبًا أيّ أملٍ لي بـ«العودة».

كنتُ ما زلتُ أعيش مرحلةَ نقاهةٍ نفسيّةٍ من خيباتي المتلاحقة، عندما أتَتني السيّدة لولية ورمَت أمامي خَياراً قَسريّاً بالهجرة بحراً، في محاولةٍ لإنقاذنا من شَتاتٍ فاقد النكهة. وبالطبع فإنّ قراراً حاسمًا كهذا لم يترك لي حريّة الاختيار، بل فرض عليّ ارتحالاً جديداً خَشيةَ بقائي وحيدةً بلا أنيسٍ أو سندٍ. قالت بأنّها تُعوّل على تلك البلاد البعيدة، وتأمل أن تحتوينا وتنفض عنا سَوأَة اللّجوء، وتقدّم لنا عرضًا مُبهراً للحياة.. لكنّها أردفَت بأنّ عبورَنا لن

يكون سهلاً، خصوصاً وأنّنا سنغادر قريباً في طقسٍ قد يقسو على ضعفنا كما سبق وفعلت الأيّام بنا، وأنّ هجرةً غير شرعيّة سنخوضها لن تخلو من الصعوبات وحتى المخاطر.. لم يفاجئني تعبير «هجرةٍ غير شرعيّة»، فسبق واختبَرتُ هذه التجربة بَرّاً مع والدَيّ عندما تسلّلَنا هروباً من أرضنا، وأذكر مشقّات خضناها ومساحات خوفٍ وتعبٍ امتدّت على إثرها لتحتلّ أعماقَنا..

واليوم، ها أنا ذا أشدّ الرِّحال مرّةً جديدةً إلى حيث يغفو المجهول.

انطلقتُ مع السيّدة لولية على الدرّاجة الناريّة، بعد أن التَحَفنا بشالاتٍ صوفيّةٍ عساها تخفّف وَطأة صقيعٍ ينخر العظام. لم نحمل معنا شيئاً، وهذا كان شرطاً أساسيّاً لقبولنا ضمن قائمة المهاجرين. ورغم عدم قناعتي بجدوى الارتحال الجديد، وبوجوب المكوث انتظاراً لخَبَرٍ يَفِدُني من أمّي، إلّا أنّني لم أملك رفاهيةَ الاختيار ووجدتُني مجبرةً على الانصياع.

قطعنا مسافةً لا بأس بها لنَصل بعدها إلى الشاطئ وقد نالَ البرد منّا وغدَونا كقطعتَيّ جليدٍ غير قابلٍ للكسر. تراءى المكان مهيباً وقد أعتمَت السماء من فَيض غَيمٍ أسود تكاثفَ وانتشر. ومع الرّيح العاتية، ارتفع الموج وهدَر بجنونٍ مخيفٍ، فتردّدت أصداؤه في الفضاء الفسيح.

خطوتُ مع السيّدة لولية فوق الرّمال المبتَلّة، بعد أن ترجّلنا عن الدرّاجة خوفًا من انغراسها وتعطُّل حركتها، وأخذتُ أدفعها بصعوبةٍ وأتقدّم على وَقع نبضات قلبي الواهن.. كان علينا أن نقطع مسافةً كبيرةً ونحن نعرج فوق الرّمال ونعاند الرّيح التي اشتدَّت واستبدّت قبل أن نصل إلى منطقةٍ تكاثرَت فيها الصخور العالية التي تخترقها الممرّات الضيّقة.. بوصولنا إلى هذا المكان، بِتنا قاب قَوسَين من مركز التجمّع الذي تمّ الاتّفاق عليه مع السيّدة لولية. إنّ تواجد الصخور يبدو ضروريًا لعدم استثارة حشرية القاصي والدّاني، والتمكّن من الارتحال بعيداً عن أيّ عينٍ تَرقُب.. هكذا أخبرنا المسؤول، ونصَحَنا بعدم الثرثرة عمّا ننوي القيام به لأيّ مخلوق.

وَلَجنا بين الصخور بصعوبة.. أو بالأحرى مُرافِقتي هي التي تعثّرَت وابتأسَت وكادت تُعتصَر لولا العناية الإلهيّة التي رفقَت بكبَرِها وترهّل روحها. المسكينة انحشرَت بين الصخور، بعد أن ضربها اليأس وخُدش جسدها وتجرّح كتفاها في أكثر من مكان.. وأمّا عنّي فقد استشعرتُ خوفًا عظيمًا على رفيقتي وأنَسي المتبقّي في هذه الحياة.. ضجيج خَفقي استمرّ صاخبًا ولم يخبُت حتى تمكنّا من الخروج إلى الشاطئ الرمليّ مرّةً جديدة بأقلّ خسائر ممكنة من اليأس والجروح وتشوّهاتهما.

في الفسحة الرمليّة الممتدة أمامَنا عثرنا على حشدٍ كبيرٍ من الرّجال والنّساء وحتى الأطفال المتجمهرين. أصواتُ ضحكاتٍ وثرثراتٍ صدحَت عاليًا رغم دويّ الموج المتمرّد، حتى تراءى الشاطئ وكأنّه يحتضن احتفالاً وشيكًا، ولكن في توقيتٍ عاصفٍ غير ملائمٍ لدفء المشاعر وتأجّجها.

تقدّمتُ بحذرٍ وأنا أدفع درّاجتي، وخلفي السيّدة لولية تجرّ جسدها المنهَك والمتيبّس من فرط البرودة. المسكينة لم تَعتَد الخروج من بيتها في طقسٍ عاصف، كما أنّ ثِقَلَ وزنها فرض عليها معاناةً في الحركة والتنقّل.. وأمّا عن جروح جسدها التي أخذت تنزف، فقد زادت من تعبها وارتجافها وتقَلقُل مشيتها.

هكذا نحن.. بائسون في كلّ شيء، حتى في سَعينا وراء الحلم!

يا لنا من بشرٍ مساكين! ما إن نختبر تجربة اللّجوء، حتى يطبع التهجير بصماته فوق ملامحنا، وتغدو حياتُنا ارتحالاً بغير نهاية.

غربةٌ تتبعها أخرى، إلى أن نفقد آخر أثرٍ لهويتنا والانتماء، ويصبح الشَتات لصيقًا بأرواحنا، وخَياراً وحيداً أمام قوافل خيباتنا.

***

رجلٌ ضخم الجثّة، فظّ الملامح، يلتحف بمعطفٍ طويلٍ يغطّي كامل جسده حتى أسفل الكعبين، ويضع قبعةً صوفيّةً تخفي جزءاً من رأسه الكبير الأصلع. كان يقف على الشاطئ وسط جمهرة اللّاجئين، وفي يده ورقةٌ يقرأ ما عليها من أسماء بصوتٍ أجشّ، والجميع في حال هَرجٍ ومَرج.. البعض سعيدٌ بورود اسمه ضمن قائمة المرتحلين اليوم، والبعض الآخر مكفهرّ يشتم ويلعن حظّه الذي يعانده دائماً ويفرض عليه تأجيلاً، حتى في حلم «التّيه والشتات»..

ما إن وصلنا حتى أحجَم «شمشون» - كما ارتأيتُ أن أُسمّي الرجل - عن القراءة، ونظر إلينا شزراً قبل أن يشير بطرف إصبعه حتى ننضم إلى قافلة المنتظرين.

وقفتُ مع السيّدة لولية التي كادت تتهاوى من إرهاقٍ طاعنٍ في القسوة تغلّب على صبرها ومكابدتها، فما كان منها إلّا أن جثَت فوق الرّمال المبتلة، في ردّة فعلٍ خارجة عن سيطرة جسدها. أخذَت تمسح بطرف شالها الدماء التي رَسمت فوق يديها ووجهها خرائط وممرّات، وتتمتم بلعنات وهي تحصي عدد الثقوب التي خلّفَتها الصخور البارزة في ملابسها.

انتظرنا في الصقيع ما يقارب الساعة قبل أن يناديا «شمشون» بإسمَينا كلاجئتين محظوظتين ومقبولتَين في رحلة اليوم للهروب نحو «الضياع»!

«سيصل القارب بعد قليل، وعليكم أن تستعدّوا للرّحيل».

هكذا قال «شمشون»، طالبًا من الّذين لم تَرِد أسماؤهم اليوم في قائمة المرتحلين، العودة في الأسبوع المقبل وفي توقيتٍ مماثل.

لم أفهم ماذا قصد بـ«الاستعداد للرّحيل»، فنحن لا نملك حقائب ولا أكياس، وحتّى درّاجتي الصدئة استلَمَها هذا الضخم -كما تمّ الاتّفاق سابقًا- قبل أن يغادر الشاطئ دون أن يترك أمامي فرصةً لوداع آخر صديقةٍ في قاموس ذاكرتي الشريدة.

جلستُ قرب السيّدة لولية فوق الرّمال المبتلّة، ورحتُ أخفّف وطأة مزاجها المتعكّر، دون أن أُفلح في ذلك. في الواقع، لو كنتُ مكانها، لجعلتُ من نقمتي على هذا العالم شعاراً في الحياة. كان يُفترض بسيّدةٍ في عمرها أن تهنأ براحةٍ ودفء.. أن تعثر على اهتمامٍ ورعايةٍ.. وأن تجلس في هدوءٍ على الشرفة تَرقب البحر، مع قهوةٍ تحتسيها وهي تخطّط لرحلةٍ تزور فيها بلاداً بعيدة، لتعود بعدها إلى وطنٍ هو مَكمنُ الأمن والاستقرار!

طال مكوثُنا كثيراً حتى كاد الجميع يفقد أيّ أملٍ وحتى رغبةٍ في الرحيل.. الجوع أصبح مستعصيًا على النسيان، مع خُواءٍ استشرى في المعدة وامتدّ ليسري مع الدّم في الشرايين.

كانت الشمس قد قاربَت على المغيب، لكنّ العتمة رافقت حضورَنا منذ وقتٍ مبكرٍ بسبب كثافة الغيوم واسودادها. البرد نال منّا حتى استحالت شِفاهُنا بلونٍ أزرق، وتصلّبَت عروقُنا حتى عجزنا عن الحركة.

أيُعقل أن يكون «شمشون» قد استهزأ من ضعفنا، ومارس على يأسنا خداعًا! نحن لا نعرف عنه شيئًا، ولا حتى ندرك له اسمًا أو مكانَ إقامة. سبق وزارنا في المخيّم ونظّم لقاءاً خَفيّـًا مع سكانه طارحًا فكرة الهجرة بحراً، مقابل مبلغٍ من المال. والسيّدة لولية التي صفعها البؤس والخذلان

مرّات على مدى زمن، وجدَت في العرض طاقةَ نورٍ وسط العتمة، فباعَت طوقًا ذهبيًا ورثته عن أمّها وهو كلّ ما تملك، لتَنقدَ «شمشون» مالاً مقابل عبورنا نحن الاثنتين إلى «أرض الحلم».

لن أنسى ما حييت احتضانَها لوَحدتي، واهتمامَها بأمري، وسعيَها لإحاطتي بهالةٍ من أمانٍ وإن بدا مبتوراً.. لذلك، عندما فاجأتني بقرار الارتحال، لم أستطع أمامها اعتراضًا، خشيةَ خذلانٍ جديدٍ أضيفه إلى روزنامة خساراتها.. ووسط كل الأحداث اللّامنطقيّة التي زلزلَت حياتي، تبدو رِفقَتي لها الحدث المنطقيّ الوحيد.. نحن نشبه بعضنا في اليُتم النّفسيّ، وكلانا تحتاج الأخرى كأنيسٍ وسندٍ في مواجهة القادم المجهول.

مرَّ الوقتُ بطيئًا ونحن جميعًا بين قنوطٍ ووَهنٍ وشكٍّ.. حالُنا الكئيبة ازدادت بؤسًا وارتفع مؤشّر التوجّس في النفوس.. ما زلنا ننتظر حضور «قارب النجاة» تحت سماءٍ غاضبةٍ ترشَح علينا جنونَها سواداً وبرداً وانهماراً، ونحن لا نملك إزاءها أن نحتجب أو نعترض.

«سيصل القارب بعد قليل».. هكذا قال «شمشون» قبل أن يغادرنا.

كان ذلك منذ ما يقارب الست ساعات، وحتى الآن لا بوادر لأيّ قادم!

أُنهكتُ انتظاراُ وتعبًا وجوعًا وبرداً، لكنّني لم أجرؤ على البَوح وأنا أرى السيّدة لولية بكامل بؤسها، ساكنة ومستمرّة في صمتها الصاخب.. في الواقع، كان كلّ من على الشاطئ في حال استسلامٍ وانهزام، الوجوم خيّم على ملامحنا بعد حماسٍ كان قد اشتعل في النفوس. وحدهم الصغار من تعالت أصوات بكائهم واحتجاجاتهم التي لم نملك أمامها كبحًا.

من العَسير أن تنتظر، وتُمضي زمنًا وأنت في وضعيّة ارتقاب! أن يعتريك الشكّ ويملأ القلق جعبةَ مشاعرك، ويفيض! والأكثر صعوبةً هو ترصُّدُ المجهول، والتقوقعُ على تعب الروح، وأنت لا تعلم إن كان ما ترتقبه سيأتي أم أنّ مركب الوهم قد حمل كلّ جميلٍ ولن يعود..

صار الطقس شديدَ البرودة، والمطر الذي رفقَ بحالنا طيلة النهار وانهمرَ خفيفًا بين حينٍ وآخر، أصابه السأَم من مراعاة حضورِنا. وهكذا بدأت السماء تُغدِق علينا خيراتها دَفقًا، فتبرق وترعد وتسكب دِلاءَها فوق رؤوسنا المُتخمَة هَمًّا.

ونحن في ذروة اليأس، التمع ضوءٌ في البعيد، وسط عتمة المياه وجنونها. وشيئًا فشيئًا تراءى أمام تيهِنا مركبٌ يشقّ الموج بصعوبةٍ، ويمتزج صوته الغليظ بهياج البحر وهدير الرّعد.

وقفنا جميعًا كردّة فعل عفويّة، ورحنا نتراقص ونضحك بهستيريّةٍ. حتى السيّدة لولية تمايلَت بجسدها المنتفخ، متناسيةً أوجاعَ مفاصلها وجروحَ جسدها وورودَ عمرها التي أوشكت على الذبول..

إنّه الرّقص على أوتار الخوف، وربّما هي محاولةٌ لاقتناص فرصةٍ للحياة من لحظات فرحٍ عابِر!

بل هي الحيرة المتأججة في صورة أملٍ خجولٍ.. غير قابلٍ للتصديق!

***

بصخبٍ وعشوائيّةٍ صعدنا إلى المركب الذي رسا بصعوبةٍ على الشاطئ بفعل الرياح الشديدة. لم ننتظر حتى المسؤول لنسأله إن كان هو هدفُنا المنتَظر.. رحنا نتسابق في الطلوع، واختيار أمكِنتنا التي ستحتضن خوفَنا طيلةَ ارتحالٍ مُريب. جرى الأولاد سريعًا مخلّفين وراءهم فوضى عارمة. صراخُهُم ملأ المكان، وشِجارهُم رفع وتيرة القلق في النفوس. حتى السيّدة لولية ركضَت كالتي مسّها ضَربٌ من جنون، وصارت تشدّ في فستان تلك وتدهَس على رِجل ذاك حتى وصلت إلى المركب، دون حتى أن تلتفت نحوي أو تتساءل عن حالي.. لكنّني لا ألومها، وأفهم سلوكَها وردّةَ فعلها كمحاولةٍ لاقتناص فرصةٍ للحياة، وسط خيباتٍ متكدّسة.

كنت أتوقّع أن تأتينا سفينةٌ كالتي تَمخُر عِبابَ البحار وتُقِلّ المسافرين إلى أقصى الأمكنة، وإذا بي أفاجأ بمركَبٍ أشبهَ بزورقٍ يحتوي غرفةً صغيرةً في وسطه، حيث يجلس القبطان وتتناثر عدد من المقاعد الخشبيّة. لا بدّ وأنّه مخصّصٌ للصّيد، أو ربّما لرحلات أسريّةٍ إلى الجزر القريبة في أيّام الصيف المُشبَعَة حرارة.

كيف يمكن لهذا الزورق أن يقطع المسافات ويحمل ما يزيد عن أربعين شخصاً؟! حتى إن تكوّمنا فوق بعضنا بعضا، هل سيصمد ويُكابر حتى نصلَ «أرضَ الحلم»؟

برغم كمّ التساؤلات التي راحت تتدافع في ذهني، إلّا أنّني احتذَيتُ بالآخرين، وأسرعتُ لأحفظ مكانًا لي وأجدَ زاويةً تحتويني وسط هذا الهرج والمرج. قسمٌ من اللّاجئين تمكّن من السَّطو على الغرفة الصغيرة،

فافترَشَ الأرض شاكراً الله على هذه النّعمة، والقسم الآخر لم يحظَ بمكانٍ سوى على سطح المركب المشرَّع على الصقيع، فامتثلَ صاغراً عسى الفرجَ يأتي بعد الكَرب والعَناء..

جلستُ قرب السيّدة لولية التي حجزَت لنا ركنًا في الغرفة الصغيرة.. في الواقع هو ليس بالرُّكن بقَدر ما هو مساحةٌ ضئيلةٌ تتّسع لجسدَين متيبّسَين متقوقعَين دون أدنى حركة.

ولكن، لا بأس في ذلك! نستطيع أن نحتمل ما نحن فيه، إن كنّا بعدها سنلتقط حريّتَنا وإنسانيّتَنا في أرضٍ ستهبُنا لقب «بَشر»، قبل أن تخلع عنّا وَصمَ اللّجوء وتُدرجَنا في قائمة «مواطنين قيد الدّرس».

تكوّمنا كالخراف المعدّة للذبح، دون أن نملك وسيلةً للرفض أو رغبةً في التمرّد. وعوَضًا عن طرح الأسئلة والاستفهام حول الطريق والمصير، انهمكنا جميعًا في تناول ما تمّ توزيعه علينا من طعام قليلٍ، من قِبَل الرجل الهزيل الذي رسا بالمركب. أكلنا بنهَمٍ وابتلَعنا ما قُدّم إلينا من غير تمييزٍ للنكَهات أو معرفةٍ بمحتوى الوجبات. نهارٌ شاقٌّ طويلٌ أمضيناه من غير أن نقتات شيئًا، ذلك أنّ «شمشون» أخبرنا أنّ الطعام سيقدّم لنا مجّانًا على المركب الذي «سيصل بعد قليل»، وهكذا انسرب يومُنا تحت وطأة الجوع والانتظار، حتى كدنا نَنفَق كالأغنام التي ضربها الوباء.

على ظهر المركب، تجلّى الصمت سيّداً بحيث بدا الكل غارقًا في عمليّة القضم والبَلع، ولم تُسمع في الأرجاء سوى أصوات الأسنان أثناء احتكاكها

ببعضها البعض. سمفونيّةٌ اشتقناها، وشرَعنا بعزفها في أوركسترا متكاملة دون هدنةٍ تقطع انسيابها.

بالرغم من كميّة الطعام القليلة التي دلفَت داخل المعدة، إلّا أنّها تراءت كافيةً ليتملّكَنا شبح النّعاس، فارتمَت رؤوسنا على أكتاف بعضنا البعض، دون تمييزٍ بين صغيرٍ وكبيرٍ، ودخلنا دوّامة نومٍ عَصيٍّ على أيّ مقاومة.

بين صَحوٍ وغَفوةٍ، ارتادَ سمعي صخبٌ غريبٌ انتشَلَني شيئًا فشيئًا من هدأتي، واستيقظتُ فجأةً على صوت ارتطامٍ شديدٍ وقرقعةٍ مدوية لم أدرك لها سببًا.

نظرتُ حولي والفزع يتطاير من ملامحي، لأعثر على كومةٍ من البشر محشورةٍ في زاوية الغرفة الصغيرة بينما يرتع الفراغ فيما تبقّى من المكان، ويتبَختَر..

ماذا يجري؟!

وقبل أن أزدادَ تعجّبًا، أخذ المركب يميل بقوّةٍ جهةَ اليمين تارّةً وجهةَ اليسار تارّةً أخرى، ممّا جعلني أرتمي في أحضان السيّدة لولية التي استمرّت بفعل حجمها ثابتةً في مكانها، وأمسكَتني بقوّةٍ حتى لا أُقذَف بعيداً وأتعرّض للأذى.. لأوّل مرّةٍ أسعَد بحجم السيّدة لوليّة ووزنها الزائد، وألمس في ضخامتها منقذاً من سوءٍ وشيك.

العاصفة التي بدأت تشتدّ قبل صعودنا إلى المركب، وصلت إلى ذروتها ونحن نيامٌ بعد أن أصبحنا في عمق البحر. في هذا الحيّز المكانيّ المهيب

ووسط العتمة الشديدة، أخذ الموج العارم يضرب زورقنا بوحشيّةٍ ويُفرغ عليه جنونًا يوازي حجم خيباتنا جميعًا، ويزيد.

فجأةً علا صراخٌ قويّ امتزج مع صخب العاصفة، فأخذتُ أرتعد في أحضان السيّدة لولية التي جحظت عيناها من شدّة الفزع..

المساكين، هؤلاء الذين لم يؤاتيهم الحظ فافترشوا السماء على ظهر المركب، نهش المطر أجسادَهم، وأخذ رذاذ الموج يتكسّر فوقها. ثم، ومع اشتداد الرّيح، باتوا على شفا غرقٍ بعد أن تقاذفَهم الهواء يمنةً ويسرة.

الصراخ استحال عويلاً مخيفًا طغى على جَلجلة السماء ودويّ نقمتها، وأصواتُ النشيج عبَقَت وفاضَت واجتازَت حدود الصخب! لا بدّ وأنّ كارثةً ضربَت سطح مركبنا، والبائسون المنكوبون في الأعلى يستغيثون من ويلاتٍ ورعب مَقيت..

يا إلهي.. كم أنا خائفة! شعرتُ بنبضي يلتهب في أعماقي وينسج بين أوردتي تراثًا عريقًا من القلق وحضارةً عمرها عقود من المخاوف.

أنا في وضعيّة فزعٍ مريعٍ أخذ يمزّق خَفقي ويسلخ عنّي سكينتي بوَحشيّةٍ وغِلظة.

أنا في حال انهزامٍ شنيعٍ راح يعبث بي، يحتفي بوَجَعي، ويقيم له وليمةً شهيّةَ العَبَرات.

أمّي.. أين أنتِ؟! أحتاج أن ألمس حضورَك معي.. أُعبري ذاكرتي ولو قليلاً وأقبلي من الفراغ. احتضني هلَعي وارتياعي، وأخبريني، كما اعتدتِ دائماً، أنّ الجميل قادمٌ لا مُحالة.

أبي.. لماذا ارتحَلت؟! منذ أن تركتَني تبدَّلت ملامح روحي، وتناثرَ رماد أفقي.. صرتُ طيفاً، تقتلني العتمة، وتؤرقني الظلال. أضحى قلبي زاويةً مُعتمةً تنعق فيها الغربان، وتتشح أركانها بسوادٍ مكفهرٍ حزين.

جلستُ في وضعيّة القرفصاء بعد أن ابتعدتُ عن حضن السيّدة لولية المتيبّس خوفاً، ثمّ جعلتُ رأسي بين قدميّ ولفَفتُ يديّ حولي كطوقٍ يفصلني عن المكان. صرتُ كالجنين متقوقعةً على ذاتي وخوفي وذكرياتي التعيسة. رحت أتفكّر بمحطات زمني النازف، وبأقدارٍ تستوطننا وتسطر حروفَها بين خطوط كفوفنا المثلّمة تعباً، دون أن نملك إزاءَها اعتراضاً..

أخذَت أصوات العويل ترتفع وتخترق سياجاً نسَجتُه، لأحتجب عن أحداثٍ تدور حولي. لكنّ الصياح استشرس واخترق سمعي ومساماتي وتغلغل بين الشرايين!

ضربني الهلَع، صفع جبهتي، وحفر آثارَه فوق ملامحي. صار قلبي يتهاوى مع كلّ اهتزازٍ للمركب، وراح صدري يضيق ويعتصر بدني. أخذتُ أشهق بقوّةٍ في سَعيٍ لالتقاط بقايا أنفاسٍ هاربة، دون أن أُفلح في ذلك.

أحتاج هواءً يقتحم رئتَيّ وينسرب كالدم في الشرايين!

وقفتُ بصعوبةٍ، ومشيتُ أترنّح من عَجزٍ وضَعف.. توجّهتُ نحو السلّم الصغير المؤدّي إلى ظهر المركب.. وبمشقّةٍ كبيرة، صعدتُ الدرجات الثلاث. بدت يدي أضعف من أن تملك قدرةً على الحركة.

كنت على شفا التقاط قبضة الباب الخشبيّ، عندما نبضَت كلماتُه في أذنيّ: تَرَف.. عزيزتي تَرَف.

يا إلهي.. إنّه العم عُدَيّ يناديني! هو في مكانٍ ما قريبٍ، هنا على ظهر هذا المركب!

أخيراً أتاني بعد غيابٍ ليواسي قلبي الصغير.. كنت أكيدةً من وجوده بعيداً عن أيّ وهم، وأنّه لن يخذل حاجتي، بل سيظل لي رفيقًا وناصحًا أمينًا..

تَرَف.. عاد الصوت لينادي باسمي من جديد، يرافقه قَرعٌ خفيفٌ على معدنٍ صَلب.

استشعرتُ طاقةً تنساب في جسدي، وبيدي وقد ارتدَت صلابةً مُباغِتَة سحبتُ بها دفّة الباب، في محاولةٍ لالتقاط حضورِه المستحيل..

ريحٌ مُشبعَةٌ بالرذاذ ضربت وجهي حتى كدتُ أتهاوى، لولا أنّني تماسكتُ بصعوبة.. وقبل أن أخطو نحو «الضياع»، شيءٌ ثقيلٌ مُشبعٌ بملوحةٍ جارحةٍ صفع جسدي الهزيل.. صدَحتُ بصراخٍ غليظٍ متمرّدٍ مريرٍ وفادحٍ، دوّى في أرجاء المَركب، وتعالَى ليبلغ عنان السماء بسُخطها واهتياجها.. ثمّ انساب بين السّحاب القاتم ليُكمل طريقَه كلاجئٍ بائسٍ ما زالَ على قَيد الحلم.. والحياة..

تمّت

نحن أحياءٌ وباقون . .

وللحلم بقيّة . .

محمود درويش

وتمضي الأيام . . تعدو السنوات . .

وتستمرّ اللّحاظ متثاقلة، ترزح تحت وطأة العودة . .

وأبقى على حالي،

أحكي وأحكي . . ولا تنتهي الرواية . .

براءة محمد الأيوبي